تمهيـــــد

مصر القديمة قبيل القرن السابع عشر

قبل الخوض فى دراسة مدينة مصر القديمة (وريثة الفسطاط) خلال القـــرن الســـابع عشر الميلادى، رأينا أن نضع أيدينا على بعض النقاط الهامة حتى تتضح لنا الصورة.

نقول أن الإنسانية قد عرفت منذ بواكير الحضارات الأولى التى قامت فـــى حضـــن الأنـهار سواء الحضارة الفرعونية أو حضارة بلاد الرافدين وفينيقيا أو حضـــارات الإغريـــق والرومان فكرة بناء المدن. فعندما هبط المصرى القديم من فوق الهضبتين الشرقية والغربيـــة فراراً من شبح الجفاف الذى أرخى سدوله عليهما، واستقر حول ضفتى وادى النيل، فعـــرف الزراعة ونعم بحياة الاستقرار، فعندئذ بدأ يفكر فى بناء القرى الريفية وما تبع ذلك من تشـــييد المدن التى ضمت العديد من هذه القرى.

وكذلك لا ننكر فضل الحضارة الإغريقية فى هذا، فقد قدمت لنا العديد مـــن المـــدن أمثال مدينة موكيناى وكورنثا وأثينا وإسبرطة وغيرهم، فكانت كلمة مدينـــة عندهـــم تعنـــى (Polis) أى تجمع سكانى وسياسى يضم عدة قبائل مختلفة(1). صحيح أن الإغريق قد أخـــذوا فكرة الـــ (Polis) من السومريين الذين سبقوهم فى هذا المضمار بأكثر من ألفـــى عـــام أى سنة ٣٠٠٠ ق.م، ولكن يحسب للإغريق أنهم طوروا نظام المدينة وجعلوا لـــها شـــخصيتها المستقلة.

وعندما ظهر الإسلام وقامت الدولة العربية الإسلامية، وتوحدت الجزيـــرة العربيـــة تحت لوائها بعدما عاش العرب قروناً طويلة فى حروبٍ وتناحر وفرقة قبل الإسلام. وما تبـــع ذلك من فتوحات إسلامية وشعور الفاتحين بحاجتهم إلى الاستقرار فى تلـــك الأقـــاليم التـــى فتحوها. فشرعوا فى تأسيس المدن الجديدة التى كانت أشبه بالمعسكرات الحربية واتخذوهـــا

(1) سيد الناصرى: الإغريق تاريخهم وحضارتهم. دار النهضة العربية، القاهرة، ط١، ١٩٧٦، ص٩٧

عواصم لأقاليمهم وأطلقوا عليها لقب " الأمصار " فكانت البصرة والكوفة أولـــى الأمصـــار الإسلامية[1].

فكانت المدينة النبوية أو المنورة – التى حلت محل يثرب بعد نزول النبى صلـــى الله عليه وسلم بها واتخذها داراً له – أول ظهور للفظ " مدينة فى الإسلام "، فقد ورد أن اللفـــظ أصله أرامى والمقطع (دين) يعنى العدل والديان فى اللغات العربية والآرامية والعبرية هـــو القاضى فبذلك يطلق لفظ مدينة على المكان الذى يطبق فيه العدل أو المكان الذى توجد فيـــه الحكومة ومقر ممثلى الدولة أو المكان الذى يكون فيه القضاء[2].

وتخطيط المدينة الإسلامية جاء مبسطاً بعيداً عن التعقيد، فكان الفاتحون يبـــدأون أولاً بالجامع ودار الإمارة والسوق، وفى أحيان كثيرة كان الجامع والسوق داراً للإمارة، فالمســـجد عموماً هو حجر الزاوية فى المدينة الإسلامية[3].

ظهر ذلك بوضوح فى مدينة الفسطاط أولى عواصم مصر الإسلامية والتى ضمـــرت بمرور الأيام وحلت محلها مدينة أخرى أخذت لفظ مدينة مصر أو مصـــر العتيقـــة ومصـــر القديمة كما سنرى.

الفسطاط: ظهورها، نموها، أفولها:

شرع عمرو بن العاص بعد عودته من الإسكندرية وإتمام فتح مصـــر فـــى تخطيـــط الفسطاط عام ٢١هـ/٦٤١م لتكون أولى عواصم مصر الإسلامية وهى تقع إلى الشمال مـــن مدينة بابليون العتيقة بمسافة ٤٢٠ متراً حيث عسكرت قوات عمرو للمـــرة الأولـــى، وذلـــك بهدف جعلها دار مستقر للقبائل العربية، وقد عهد عمرو إلى أربعة من المسلمين بالفصل بيـــن

---

[1] أيمن فؤاد سيد: المدينة الإسلامية والدراسات الحديثة التى تناولتها. بحث فى المجلة التاريخية. العدد ٤٠ لسـنة ١٩٩٧، ص٤٧

[2] أيمن فؤاد سيد: المرجع السابق، ص٤٩

[3] سعاد ماهر: تطور العمائر الإسلامية بتطور وظائفها. مقال بالمجلة التاريخية، مجلد ١٨ عام ١٩٧١، ص٥٥

القبائل فى تنظيم خطة كل منها، وهم معاوية ابن حديج التجيبى وشريك بن سمى الغطيفى وعمرو بن قحزم الخولانى وجبريل بن ناشرة المعافرى.

وتم تقسيم الفسطاط على هيئة خطط مثل خطة أهل الراية أى حاملى الأعلام والمواد هنا ألوية القبائل – حيث كان لكل قبيلة لواء يحمله رئيسها، وكان أصحاب الألوية رؤساء الجند لذلك كانت هذه الخطة تسمى خطة الرؤساء[١]. وخطتا الحمراء الدنيا والقصوى[*]. وكانت أكبر الخطط تجيب وعطيف وخولان ومعافر وكلها قبائل يمنية، وما أن أخذت تكتمل هذه الخطط حتى أخذ الناس يتسابقون فيها على بناء الدور والمساجد[٢].

وقد خالفت بتلر Butler هذا الرأى فقالت " **والظاهر أن الذى قام بتنفيذ هذا الأمر** – أى تخطيط الفسطاط – **إنما هم القبط لدرايتهم بفن العمارة التى كان يجهلها العرب** ". ولكن يرى الكثير من المؤرخين وعلى رأسهم عبد الرحمن زكى أن تخطيط الفسطاط فى ذلك العهد لم يكن من التعقيد بحيث يحتاج إلى معماريين مهرة من القبط[٣].

وقد عمرت الفسطاط واتسعت حتى قال ابن حوقل إنها " **مدينة كبيرة نحو ثلث بغداد ومقدارها نحو فرسخ للمسافة[**] على غاية العمارة والخصب والطيبة واللذة ذات رحاب فى محالها وأسواق عظام ومتاجر فخام ....** " [٤]. ويرى أندريه ريمون أن مساحة الفسطاط قد بلغت زمن الفاطميين نحو ٣٠٠ هكتار، (أى ٧٤٠ فداناً)[٥]. فى حين قدرها بعض الجغرافيين المحدثين بنحو ٢٧٠٠ متراً[٦].

---

[١] جرجى زيدان: تاريخ التمدن الإسلامى، ج٢، مراجعة حسين مؤنس، دار الهلال، ط١، هامش ص١٨٢

[*] الحمراء: بطن من عقب أرش بن أراس بن جزيلة بن لخم من القحطانية. انظر: عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، مؤسسة الرسالة، ط٨، ١٩٩٧، ص٢٩٩

[٢] أحمد فكرى: مساجد القاهرة ومدارسها، دار المعارف، ١٩٦١، ص٥٧

[٣] عبد الرحمن زكى: القاهرة، ١٩٤٣، ص١١

[**] الفرسخ: مقياس فرنسى يبلغ نحو عشرة آلاف كم^2

[٤] ابن حوقل: صورة الأرض، دار الكتاب الإسلامى، القاهرة، ١٩٩٨، ص١٣٧

[٥] أندريه ريمون: القاهرة تاريخ حاضرة، ترجمة لطيف فرج، دار الفكر، القاهرة، ط١، ١٩٩٤، ص٦٢

[٦] فتحى محمد مصلحى: تطور العاصمة المصرية والقاهرة الكبرى، ص١٢٣

وقد امتاز موقع الفسطاط بحصانة طبيعية، يتضح لنا ذلك من خلال تحديد مسار المدينة طبيعياً فهى تمتد شمالاً حتى كوم الجارح وقنطرة السد منطلقة جنوباً من الرصد " الذى كان قائماً على ذروة الشرف المطل على بركة الحبش " – وحدها الغربى هو الشاطئ الأيمن لنهر النيل والذى كان ينتقل على تتابع السنين مع تنقل الشاطئ نحو الغرب والحد الشرقى ينتهى إلى القرافة[١].

وكثر السكان بالفسطاط حتى أننا نجد المقدسى فى القرن الرابع الهجرى لم يكتفِ بما سمعه عن مدى اكتظاظها بالسكان فأراد أن يتأكد من ذلك فقال " **وسمعتهم يذكرون إنه يصلى قدام الإمام يوم الجمعة نحو عشرة آلاف رجل فلم أصدق حتى خرجت مع المتسرعة إلى سوق الطير فرأيت الأمر قريباً مما قالوا .....** "[٢]. ويستخلص أندريه ريمون رقماً لتعداد سكان الفسطاط خلال القرن الرابع الهجرى أيضاً من وسط العديد من التقديرات، ويرى أن عدد سكانها آنذاك يقترب من ١٢٠ ألف نسمة[٣].

ويرصد خالد عزب حال الفسطاط فى العصور التالية من النشأة فقد ازدهرت فى العصر الأموى على يد الوالى مسلمة بن مخلد الأنصارى " ٤٧-٦٢هـ/٦٦٧-٦٨١م " الذى بنى مقياس الروضة وداراً للصناعة وكذلك على يد عبد الملك بن مروان " ٧٩-٨٩هـ/٦٨٢-٧٠٥م " الذى شهدت الفسطاط فى عهده نهضة عمرانية كبيرة[٤].

واستمر عمران الفسطاط وازدهارها حتى زمن الفاطميين وبالتحديد منذ بداية حكم المستنصر " ٤٢٧-٤٨٧هـ/١٠٣٥-١٠٩٤م "، فيرى المقريزى وغيره من المؤرخين أن تدهور الفسطاط حدث نتيجة سببين:-

---

(١) أبو الحمد محمود فرغلى: الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية فى القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٠، ص٥٩

(٢) المقدسى: أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، دار صادر بيروت، ط٢، ١٩٩٠، ص١٩٨

(٣) أندريه ريمون: المرجع السابق، ص٦٢

(٤) خالد عزب: الفسطاط أولى عواصم مصر الإسلامية. مقال مطبوع ضمن مقالات الهيئة العامة لقصور الثقافة للإحتفال بمرور ١٤٠٠ سنة على دخول الإسلام مصر، القاهرة، ١٩٩٩، ص١٤٧

- الشدة المستنصرية وما تبعها من خراب ودمار حل فى ربوع البلاد.
- حريق الفسطاط فى عهد وزارة شاور بن مجير السعدى عام ٥٦٤هـ/١١٦٨م أثناء قدوم عمورى ملك الأفرنج – أو مرى كما نعته ابن أبى السرور البكرى – **ونزل فى جموعٍ على بركة الحبش " يريد الاستيلاء على مملكة مصر وأخذ الفسطاط والقاهرة "**[١]. فأضرمت النار فى الفسطاط حتى إحترقت، وإستولى بعد ذلك أسد الدين شيركوه على الوزارة، ولكنه لم يمكث فيها طويلاً إذ توفى وخلفه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبى الذى عمّر الكثير من خرائب الفسطاط، فلم يحذو حذو سابقيه من بناء ضواحٍ جديدة وترك آثار الماضى، بل عمل جاهداً على إحياء المدن القديمة، فقد عقد العزم على إحياء مدينة مصر نعنى الفسطاط السابقة والتى عمها الخراب وتراكمت عليها الأتربة[٢]. فضرب سوراً فى استحكامات بدر الجمالى القديمة، وقيل أنه مد سور بدر الجمالى شمالاً من نهايته عند الخليج على النيل حيث موضع حصن المقس، أما من الجهة الشرقية فقد مد الحائط القديم جنوباً حتى باب الوزير قرب القلعة.

ويرى ستانلى لينبول " أن فكرة الأسوار لم تكن إلا تطوراً لأسوار بدر الجمالى القديمة "[٣]. ولكن رغم ذلك لا ننكر فضل صلاح الدين فى وقف النزيف الذى حل بمدينة مصر منذ عهد الفاطميين. فقد كان صلاح الدين مشغولاً بمشروعاته الحربية فى بلاد الشام لدرء خطر الصليبيين عن ديار الإسلام.

وخلال العصر المملوكى نجد أن مدينة مصر [القديمة] قد حدث اهتمام بها من جانب بعض السلاطين وجاء ذلك مرهوناً بأحوال البلاد الأمنية. فالناصر محمد بن قلاوون شيد بها بعض المبانى الدينية كالجامع الجديد الناصر قرب فم الخليج، وكذلك انصب اهتمام

---

[١] محمد بن أبى السرور البكرى: قطف الأزهار من الخطط والآثار. مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٥٧ ميكروفيلم ٤٥٨٥٢ ورقة ٤٨

[٢] ستانلى لينبول: سيرة القاهرة، ترجمة حسن إبراهيم حسن وعلى إبراهيم حسن، هيئة الكتاب، ١٩٩٧، ص١٥٦

[٣] نفس المرجع: ص١٥٧

الغورى حول ذات المنطقة فقام بهدم قناطر المياه القديمة وأعاد تشييدها من جديد عند مـوردة الخلفاء قرب الجامع الجديد مما وفر المياه للمنطقة التى دبت فيها الـزروع والبسـاتين بعـد السنوات العجاف التى شهدتها وحل بها السكان بعد الهجر.

ولما أقبل العصر العثمانى اتخذت مصر القديمة منعطفاً آخر، فقد درج على وصفـها بلقب [حى] رغم احتوائها على ميناء أشبه بخلية النحل من كثرة الرواج التجارى لـه كمـا سنرى. وقيل أن الخراب قد عم أجزاء كبيرة منها وقل نشاطها واتخذت بولاق دور الزعامـة بوصفها ميناء القاهرة الأول. فهل صحيح أن مصر القديمة قد توارى دورها خلال العصـر العثمانى خاصة القرن السابع عشر وهى الفترة المعنية بالدراسة ؟ وهل عـم الخـراب تلـك المدينة وريثة الفسطاط ذات الماضى التليد ؟ ولم تكن هناك ثمة محاولة للعمران من جـانب الحكومة (الإدارة العثمانية) ؟

هذه بعض التساؤلات سوف نحاول الإجابة عنها فى جوٍ من الإنصاف بغية الوصـول إلى الحقيقة التاريخية وكشف اللثام عن مدينة كانت ذات ماضٍ جميل حفها الـوادى الأميـن بالرعاية والنماء عبر العصور التاريخية المتلاحقة.

مصر القديمة من منظور عمرانى

تقع مصر القديمة على الضفة الشرقية لنهر النيل، ومن ملحقاتها جزيـــرة الروضـــة التى يفصلها عنها أحد أفرع النهر، ولذلك فهى ذات موقع جغرافى متميز، تطل علـــى منفـذ مائى سهل عليها الاتصال بالخارج ونشر العمران فى ربوعها. إضـــافة إلـــى أنـــها وريثـــة لمدينتين قديمتين كانتا لهما عمقاً فى التاريخ نعنى مدينة بابليون القديمة علـــى ســاحل النيــل ومدينة الفسطاط الإسلامية.

وقبل التطرق إلى الجوانب العمرانية فى المدينة لابد لنا هنا من وقفة لتحديد مشــــكلة قد تثير بعض الجدل، وهى " مسمى المدينة " وذلك حتى لا يحدث اللبـــس، ولارتبـــاط ذلــك بالعمران كما سنرى، ولنتفق معاً حول مفهوم واحد نطلقه على المدينة موضوع الدراسة.

فقد لاحظنا تضارب كبير بين أقوال الرحالة لتحديد مسمى مصر القديمة، وظهر ذلـك بوضوح لدى الرحالة الفرنسيون الذين زاروا المدينة خلال القرن السابع عشر.

فالمصـــادر العربية دائماً تطــلق عليها " مدينة مصر " فى حين أن أغلب الرحالـــة الأجانب يسمونها " القاهرة القديمة " وقد خرج من عباءة هذين اللفظين مســـــميات أخــرى. فمثلاً يطلق عليها الرحالة " جوهان ويلد Wild " اسم مصر العتيقة[١]. وهى نفـــس المعنـــى الإيطالى الذى وضعه " برمون Premond" وهو "مصـــر البيطيـــش Misrul-betich "[٢]. ولكن نجد أغلبهم يركز حول لفظ " بابليون "[٣] التى توصف بأنها القاهرة القديمة الآن. والتـــى تقع جنوبى القاهرة على بعد ٥ كيلو متر، وقد شيدت على أنقاض مدينة الفسطاط الغـــابرة[٤]،

---

[١] Johann Wild: Voyage en Egypte "1610-1616" ch30 p167.

[٢] وكذلك نفس المعنى الإيطالى انظر: Gabriel. Premond
George Sandys: Voyages en Egypte "1611" p182

[٣] والتى يرى بلان أنها مدينة فرعونية – بيزنطية، أى هى بناء فرعونى-بيزنطى فى نفس الوقت. انظر:
Henry.Blunt: Voyege en Egypte "1634-1635" p127

[٤] Jacques Albert. Voyage "1634-1635" p138 =

ولكن يجب أن نأخذ فى اعتبارنا أن المؤرخين الأوربيين قد خلطوا منذ العصور الوسطى وحتى القرن ١٧م بين بابليون وبابل (بابلونيا Babylonia) فأطلقوا – كما يروى جرجى زيدان – اسم بابلونيا على القاهرة، بل علٰى مصر كلها فكانوا يقولون " سلطان بابلونيا " ويريدون سلطان مصر. ومما يؤكد رأى زيدان قول الرحالة فارمنيل Fermanel الذى زار المنطقة عام ١٦٣١ ووضع عدة مسميات للقاهرة منها بابليون[١].

وعموماً فقد درج المصريون على تسمية بابليون قصر الشمع والذى لا تزال بقاياه محتفظة بهذا الاسم إلى الآن، بل إن بعض الشوارع والمقاهى خلف جامع عمرو بن العاص قرب مارى جرجس تحمل اسم " قصر الشمع ".

على أية حال نخرج من هذا التضارب حول تحديد اسم للمدينة بنتائج هامة. أن المصادر العربية تطلق عليها اسم " مدينة مصر " بإعتبار أن موضعها هو موضع مدينة الفسطاط التى هى نواة مصر الإسلامية من وجهة نظر تلك المصادر. وخلال العصر المملوكى نجد مصدراً مثل المقريزى يطلق عليها نفس المسمى. ثم يعود فيقول " مصر القديمة " كتحديد لتلك المدينة التى آل أمرها إلى خراب حتى وصفها بلفظ " قديمة "[٢].

أما المصادر غير العربية فنجدها تركز حول المسميات السابقة الذكر، فلا ندهش حين نرى على وجه التحديد الرحالة الفرنسيين الذين زاروا المدينة خلال القرن يطلقون عليها مسمى " بابليون " أو " القاهرة القديمة Le vieux caire ". ونلمس العذر لهؤلاء جمعياً خاصة وأن هدفهم واحد وبؤرة اهتمامهم كانت موجهة نحو مدن ذات تاريخ عريق

= ومدينة بابليون العتيقة قد شيد فيها حصن " بابليون" ويرجح إنه من إنشاء المصريين القدماء واسمه الأصلى "بى-هابى-ن-أون" Pi-Hapi-N-On ، ولكن يرى المستشرق كازانوفا أن الإغريق حرفوه إلى بابليون Bobylone وتبعهم فى ذلك الرومان والعرب. جرجى زيدان: المرجع السابق، هامش ص١٨١ – انظر: ملحق الأشكال: خريطة توضح التركيب العمرانى لبابليون كما رآها كليرجيه.

[١] Gilles Fermanel: Voyage en Egypte “1631”. Inprine en 1975. Francais p41

[٢] ويرى المقريزى إن الذى بنى قصر الشمع هو طخشاشت أحد ملوك الفرس عندما جاء لمصر واستولى عليها، فأراد أن يبنى قصراً للفرس فيه بيت نار على شاطئ النيل الشرقى. وقد عرف بقصر الشمع لأن به باب يقال له باب الشمع، حيث يوقد فيه الشمع فى رأس كل سنة، وفى هذه الليلة إذا دخلت الشمس البروج، يعلم الناس بوقود الشمع أن الشمس نقلت من البرج الذى كانت فيه إلى برج آخر. انظر: المقريزى. الخطط. جـ٢، ص٦١

ظلت عاصمة لمصر فى فترات سابقة سواء بابليون أو الفسطاط أو حتى العسكر والقطائع والقاهرة المعزية. وكانت حركة العواصم هذه فى منطقة مركزية بالنسبة لمصر[*]

العمران بمصر القديمة :

بادئ ذى بدء لابد لنا أن نحدد موقع المدينة جغرافياً حتى يتثنى لنا تحديد مواضع العمران، فقد حددها المقريزى خلال العصر المملوكى فقال " إن مدينة مصر محددة الآن بحدود أربع. فحدها الشرقى اليوم من قلعة الجبل وأنت آخذ إلى باب القرافة فتمر من داخل السور الفاصل بين القرافة ومصر إلى كوم الجارح وتمر من كوم الجارح وتجعل كيمان مصر كلها عن يمينك حتى تنتهى إلى الرصد حيث أول بركة الحبش فهذا طول مصر من جهة الشرق وكان يقال لهذه الجهة عمل فوق .. أما حدها الغربى من قناطر السباع خارج القاهرة إلى موردة الخلفاء ونأخذ على شاطئ النيل الى دير الطين وهذا طولها من جهة الغرب، وحدها القبلى من شاطئ النيل بدير الطين حيث ينتهى الحد الغربى إلى بركة الحبش تحت الرصد حيث انتهى الحد الشرقى فهذا عرض مصر من الجنوب التى يسميها أهل مصر الجهة القبلية، وحدها البحرى من قناطر السباع حيث ابتداء الحد الغربى إلى قلعة الجبل حيث ابتداء الحد الشرقى فهذا حد مصر من ناحية الشمال، وما بين الجهات الأربعة فإنه يطلق عليه وقتئذ مصر[1].

إضافة إلى كل ما ذكره المقريزى وجد خط فم الخليج ومعه خط الجامع الجديد وخط السبع سقايات الذى هو من جملة الحمراء الدنيا، كل ذلك ضمن حدود مصر القديمة.

ومن خلال استقرائنا لوثائق القرن ١٧ نجد أن تحديد المقريزى السابق قد طرأت عليه بعض التغيرات، نجد أن جزيرة الروضة تدخل ضمن حدود مصر القديمة، فنقول "

---

[*] انظر: الخريطة الخاصة بحركة العواصم فى ملحق رقم (١) الخاص بالأشكال، ص١٩٢

[1] المقريزى: المصدر السابق، ج٢، ص ص١٤٩، ١٥٠

روضة مصر القديمة "[١]. والتى يرى كازانوفا أنها لم تكن موجودة فى زمن الفراعنــة، بــل كان موقعها وقتئذ جزءا من الشاطئ الأيسر للنيل[٢]. ومن خلال حفريات الفسطاط يؤكد لنــا على بهجت وألبير جبرييل أن جزيرة الروضة من ملحقات الفسطاط الطبيعية، وقد بنى بــها محمد بن طغج الإخشيد عام ٣٢٣هـ/٩٣٢م دارا له ذات بساتين واتخذ فيها دارا للنوبة ودارا للغلمان[٣].

إضافة إلى خط قناطر السباع (السيدة زينب) فقد أشار إليه المقريزى على أنه بدايــة الحد الغربى لمصر القديمة، فى حين تذكر وثائق القرن أجزاء من قناطر السباع هذه ضمــن حدود مصر القديمة فتقول: " **درب السيدة زينب بخط قناطر السباع المعدود من درك مصــر القديمة** "[٤].

ويروق للرحالة نترشيتز Neitzschitz الذى زار المدينة فــى بدايــة القــرن أن يقســمها إلى قسـمين هما " بابليون القديمة – بابليون الحديثة "، ويقول فبابليون القديمة لــم تكن مبنية جيدا ، ولم تكن مأهولة بالسكان مثل بابليون الجديدة[٥]. وتقسيم نترو هنــا يوضــح حقيقة هامة أن العمران قد حدث بالفعل فى المدينة، وهو ما دفع نترشيتز وغيره إلى تأييد هذا التقسيم الذى نقبله مبدئيا بصفته تقسيما جزافيا إن لم يكن يذكر صراحة فى نصوصنا.

وهنا يجب أن نأخذ فى الاعتبار أمورا هامة لكى نوفق بين ما رصده المقريزى، وما جرى على لسان الرحالة خلال القرن، إضافة إلى شئ هام كان له دور كبير فى تحديد المدينة

---

[١] يروى السيوطى أن الروضة تطلق فى زماننا على الجزيرة التى بين مدينة مصر وبين مدينــة الجيزيــة أو الجــيزة وعرفت أول الإسلام بالجزيرة وجزيرة مصر ثم قيل لها جزيرة الحصن وعرفت بالروضة منذ زمن الأفضــل بــن أمير الجيوش بدر الجمالى إلى اليوم. انظر: السيوطى: حسن المحاضرة، ج٢، ص٣٣٦

[٢] على بهجت وألبير جبرييل: حفريات الفسطاط، دار الكتب، ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م، ص٣١

[٣] نفســـه: ص٣١ - انظر ملحق الأشكال الخاص بمنظر الفسطاط ومواقع الحفر.

[٤] محكمة مصر القديمة: س١٠١، م٥٥٥، ص٢٠٨- وأيضا محكمة الباب العالى: س١٢٥، م١٠٢، ص٣٩- وقنــاطر السباع قد أنشأها الظاهر بيبرس "١٢٥٩-١٢٧٧" وكان موقعها أمام السيدة زينب أمام المسجد الحالى، وقد ربطــت حى السيدة بالحنفى والناصرية من الشمال. انظر: فتحى محمد مصيلحى: المرجع السابق، ص١٢٤

[٥] Neitzschitz: Voyages en Egypte "1634-1636". P227

طبوغرافياً نقصد نهر النيل الذى كان ينتقل على تتابع السنين مع تنقل الشاطئ نحو الغـــرب. فالمقريزى يجعل نهر النيل هو الحد الطبيعى الغربى لمصـــر القديمة، وعندما أقبـــل زمـــن الكامل الأيوبى تقلص الماء عند ساحل مصر القديمة فقام الحاكـم بحفر البحر حتـــى صـــار الماء يحيط بالمقياس وجزيرة الروضة، وتتابع السنين جعل الحد الغربى هـذا غـير مسـتقر حيث استمر نهر النيل فى عملية النحر وتوسيع المجرى والترسـيب على الضفـــة الشـرقية الأمر الذى أضاف مساحات إلى مصر القديمة قرب جامع عمرو ومنطـقة مـارى جرجـس التى أصبحت أرض بساتين ونخيل خلال العصر العثمانى محاطـــة بـالعديد مـن المبـانى والمنازل الجميلة. أما قول الرحالة نتزو [بابليون القديمة – بابليون الجديـدة] دون الإشـارة الواضحة لتحديد المدينة يجعلنا نؤكد إنه اكتفى بالتحديد الذى وضعه سـابقوه وإن كـان قـد أضاف المناطـق التى حدث فيها تطور وعمـران حتى وصفها " بالجديدة ".

وعموماً تؤكد لنا الوثائق أموراً أخرى لتصحيح وتحديد بعض المفاهيم التى درجـت على الألسنة كفكرة " خرائب مصر القديمة " و " التحديد الدقيق لها من خلال الوثائق ". وقـد وجدنا أنفسنا أمام عدة تساؤلات: متى حدث الخراب بمصر القديمة ؟ ولماذا ؟ وهـل حـدث عمران لتلك الخرائب ؟ وظهرت خريطة جديدة للمدينة ؟ وما السبب فـى هـذه المحـاولات العمرانية ؟

والحق أنها تسـاؤلات فى غاية الأهمية، وربما تأتى الإجابة عليها لتبرز حقـائق أهم. فالتساؤل عن بداية حدوث الخراب بمصر القديمـة يعود إلى هجـرة سـكانها إلـى العاصمة الجديدة القاهـرة ، إضافة إلى كثرة المجاعات والأوبئة التـى حلـت بالمنطقـة وهلاك الكثيرين وفرار الأحياء إلى المناطق المجـاورة تاركين المدينة العتيقة ترثى مجدهـا الزائل بعدما تهدمـت العديد من المبانى بها.

وقد لاحظ ذلك الرحالة جوهان ويلد Johann Wild الذى زارهـا فـى الفـترة "١٦١٠ –١٦١٦ " ورصـد بها نحو ٤ أحياء، وقال " إن المدينـة قـد تهدمـت كليـاً، وأصبحـت بدون أسـوار مرتفعة، ولذلك كان من الممكن بسـهولة دخولـها أو الخـروج

منها ..... "(١). وأكدت وثائق العصر ذلك بذكر مناطق عديدة بالمدينة قد حل بها الخراب وأعطتها لفظ " خلاء وكيمان " كمنطقة الخلاء والكيمان خلف جامع عمرو قرب حمام جمدار، والخرائب التى ظهرت بخط دار النحاس وفم الخليج وكوم الجارح.

كل هذا جاء نتيجة طبيعية بأن يترك السكان تلك الخرائب والفرار من شبح الجوع والطاعون يلتمسون أماكن أكثر أماناً وسعة فى العيش فلم يجدوا أفضل من القاهرة التى أصبحت أغنى وأكثر الجهات سكاناً. ولكن لم يستمر الحال بالمدينة على هذا المنوال، صحيح أنه قد بقى بها بعض سكانها رغم ما ألم بها من خراب لكنهم كانوا فئة قليلة حتى حدثت بعض المحاولات لتعمير المنطقة خاصة فى النصف الثانى من القرن ١٧. فلا ننسى أن الدمار قد حل بمدينة مصر [الفسطاط] منذ زمن وبالتحديد عام ٥٦٤هـ/١١٦٨م عندما تعرضت للحرائق أثناء وزارة شاور بن مجير السعدى. ورأينا كيف كانت هناك بعض المحاولات السابقة لتعمير المنطقة سواء من جانب الأيوبيين أو المماليك(٢). وقد اهتمت الإدارة العثمانية بتعمير المنطقة وإن جاء ذلك فى النصف الثانى من القرن بسبب وقوع العديد من المجاعات فى سنوات متفرقة فى النصف الأول حالت دون إحداث محاولات عمرانية ذات شأن كبير يذكر. فقد وجدنا بيورلدى صادر فى ٩ صفر عام ١٠١٩هـ/١٦٠٩م للزينى حسين صوباشى مصر القديمة آنذاك بضرورة تعمير الأماكن الخربة(٣). ولكن لم يحدد البيورلدى أى المناطق الخربة يقصد ؟ وما حجم التعمير الذى سوف يحدث بها ؟

---

(١)Johann Wild: Voyage, "1610-1616" en 1973. Ch30. P15

وقد لاحظ ذلك أيضاً الرحالة (تفنو Thevenot) الذى تجول فى المدينة فى بداية النصف الثانى من القرن السابع عشر، وأعلن أنها مدينة متهدمة، وما زال يوجد حالياً (أى وقت زيارته) بعض المنازل يسكنها العديد من الناس مبتعدين عن القاهرة الجديدة التى يتكالب عليها الكثيرون. انظر:

M. T. E Thevenot: Voyage De Levant. A. Pris p263

(٢) انظر ص٤ من مقدمة دراستنا هذه

(٣) محكمة مصر القديمة: س٩٨، م٥٦٥، ص١٦٣

في حين عثرنا على العديد من الخرائب بظاهر قصر الشمع ممتلئة بالأتربة وخالية من السكان، ويخشى على سكان المنطقة المتاخمة لها، لذلك وقع بيورلدى شريف من طرف الديوان عام ١٠٥٥هـ/١٦٤٣م يرى بأن " **كل من يبنى ويعمر بهذا المكان يكون ملكاً له قصداً لدفع الضرر عن الجيران وعن الذين يمرون بهذا المكان....** "[1]. وبالفعل قام بعض النصارى القاطنين بالمنطقة بتنظيف هذه الأرض الخالية وبنوا عليها بيوتاً عديدة بمساعدة ناظر كنيسة أبى سرجه[2]. والجدير بالذكر أن هذه الأرض فى البداية عندما كانت خراباً جارية فى وقف زاوية النعمانية، وأن البناء الموضوع عليها جارياً فى وقف الكنيسة المذكورة.

وفى النصف الثانى من القرن كثرت الحركة العمرانية بالمدينة بشكل واضح للعيان، ففى أطراف حمام جمدار تجاه جامع الدبان قد انتشرت أكوام الأتربة التى يرجح أنها بيوت قد تهدمت لجماعة الفقراء المنتشرين بالمنطقة، ذلك أن شخصاً يدعى عيسى المضبوى قد رغب هو وجماعة الفقراء التراسين المساعدين بالعنبر الشريف بمصر القديمة فى إزالة كوم التراب وعمارته لهم، وفى الحال برز الأمر الشريف فى ١٣ ربيع الأول ١٠٧١هـ/١٦٦١م يقر لهؤلاء الفقراء بتعمير المنطقة إذا لم تكن فى يد أحد ولا فى وقف من الأوقاف، أما إذا كانت غير ذلك، بحيث أنها ضمن أملاك أو أوقاف شخص آخر فليحضر وعليه تعمير ذلك، ولكن إذا لم يحضر بعد ثلاثة أيام فلا يتعرض من بعد ذلك لمن يرغب فى إزالة ذلك وتعميره حسب الأمر الشريف[3].

وعلى العادة المتبعة آنذاك فقد أجهر النداء، واتصل ذلك بمسامع الخاص والعام من أهالى مصر القديمة، وقد مضت الثلاثة أيام ولم يحضر مدعٍ بشئ من الكوم المذكور. فجاء جماعة التراسين المذكورين وعلى رأسهم المحترم أحمد بك سالم الشهير بالردكينى العقبلوى،

---

(١) الباب العالى: س١٢٤، م١٥٢٤، ص٣٢٣ - انظر: ملحق رقم (٢) الخاص بمجموعة الوثائق التى قمنا بنشرها والتى توضح العمران بمصر القديمة خلال ق١٧

(٢) نفسه: ص٣٢٣

(٣) محكمة مصر القديمة: س١٠٢، م١٤٧٢، ص٥٦٨

والمعلم على وأخوه أحمد ولدى المرحوم الحاج حسين بيسارة وشرعوا فى تعميره وامتلاكه[١].

ويبدو منذ الوهلة الأولى أن جل اهتمام كل من الإدارة العثمانية وكذلك الأهالى كان موجهاً لتعمير منطقة الشيخ شهاب المجذوب وحول زاويته بأطراف حمام جمدار قرب الجامع المسلمية أو الدبان، فهناك العديد من الأوامر الشريفة قد صدرت بناء على ذلك من ولاة مصر المحروسة. فقد أصدر الوالى عمر باشا "١٠٧٤-١٠٧٧هـ/١٦٦٤-١٦٦٧م" أمراً بإزالة أكوام الأتربة الكائنة بأطراف حمام جمدار قرب الشيخ شهاب المجذوب، وحيازة ذلك بعد تعميره، وفى نفس الوقت يحرم أى شخص من امتلاك أى جزء فى المنطقة إذا تركه خراباً ولم يجر فيه أى عمران حتى لو كان تحت حوزته. ففى هذه المنطقة امتلك كل من المعلم إبراهيم بن محمد عرف بإبن المطهرية وكان تراساً بالعنبر الشريف بمصر القديمة، والمرأة نعمة بنت عامر السقا. قطعة أرض كان لإبراهيم بها النصف والربع بينما حازت نعمة الربع فقط، ولما صدر الأمر الشريف من قبل الوالى عمر باشا، قام المعلم إبراهيم بتعمير حصته المذكورة فى حين تخلفت نعمة المذكورة لمدة أربعة أشهر، فوقع التشديد والتهديد من الحكام على شريكها إبراهيم الذى قام بتعمير حصتها أثناء غيابها حيث عمّر بها نحو أربع قاعات وسوراً دايراً عليهم، وكل ذلك من ماله وصلب حاله على حد تعبير الوثائق[٢].

وعندما عادت نعمة أبت أن تدفع تكلفة تعمير حصتها المذكورة، بل أنها ادعت إنها شريكة للمعلم إبراهيم بحق النصف وإنها غابت عنه وتركته المدة المذكورة، ودفعت له قبل غيبتها ثلاثة قروش وأذنته بصرفها على حصتها وليس بيدها الآن شئ تصرفه على عمارة ذلك كونها عاجزة عن التكلفة.

وقد احتكم الطرفان هنا إلى حجة الحيازة المتضمنة لشركتها معه، فوجدت " **متضمنة حقها فى الربع فقط، ومعين بها إظهار الندا من قبل ولى الأمر نصره الله تعالى إن كان من**

---

(١) نفسه: ص٥٦٨

(٢) محكمة مصر القديمة: س١٠٢، م١٢٧، ص٥٦

حاز شيئاً من ذلك ولم يعمره على الفور ترفع يده عنه ويمكن منه الراغب فى عمارته فوراً .... "[١].

وتؤكد هذه الحجة المؤرخة عام ١٠٧٥هـ/١٦٦٥م ما ذكر سابقاً من أن عملية امتلاك العقارات هنا من حق أى شخص قام بتأسيس هذا العقار وليس الشخص المالك لأرض هذا العقار، فبناء على هذه الحجة أصبح المعلم إبراهيم هو المالك الوحيد للحصة المذكورة كلها وأن المرأة المدعية [نعمة] لا حصة لها معه، ومنعت من التعرض له بسبب ذلك.

وكذلك تؤكد هى وغيرها من الحجج أن عبء وتكلفة العمران قد وقع على عاتق الأهالى الذين رغبوا فى السكنى والحماية من خطر اللصوص الذين اتخذوا من الأماكن الخربة مأوى لنشاطهم الإجرامى.

ونتيجة للاهتمام المتزايد بتعمير منطقة الخلاء والكيمان بأطراف حمام جمدار ظهرت أسماء العديد من الحارات أهمها حارة الشيخ شهاب، وكذلك الكفور المستجدة بها الكثير من المناطق السكنية التى تزاحم أهالى مصر القديمة للإقامة بها وشراء الدور اللازمة لهم، فقد اشترى الحاج سالم بن المعلم أحمد المعروف بالصولى التراس بالعنبر الشريف من الحاج مصطفى بن الشيخ حسن الشهير بإبن أبى طوغابى التراس هو أيضاً والقاطن كلاهما بخط حمام جمدار، داراً تشمل قاعة صغيرة وأرضية مسقفة غشيماً والباقى كشفاً سماوياً، وهذه الدار كانت فى الأساس قطعة أرض من أصل الكوم الكاين بأطراف حمام جمدار المذكور[٢].

وتذكر الوثائق العديد من المنازل فى هذه المنطقة التى كانت بالأمس القريب خراباً دايراً، فهناك منزل دويدار الطحان ، ومنزل الحاج عبد الرحمن السملى، ومعظم سكان هذه المنطقة الجديدة من طائفة التراسين بعنبر غلال مصر القديمة ويعود السبب فى ذلك لعامل الجوار، فعنبر الغلال بمنطقة حمام جمدار القريبة من المنطقة المستجدة هو مسقط رأس طائفة

---

(١) نفسه، م١٢٧، ص٥٦

(٢) محكمة مصر القديمة: س١٠٢، م١٨٢٨، ص٦٩١

التراسين المذكورة. ووجد أيضاً حوش ضمن أملاك الشيخ عبد الرازق أبو العطا بن وفا[١] وقد عرف هذا الحوش بسكن أبو عجاج شيخ طائفة الحمارة[٢]. فقد انتشرت الحمير في المنطقة الجديدة وكان لهم موقف خاص عرف "بموقف الحمارة" فلا ننسى أن الحمير هي وسيلة الانتقال الأساسية داخل المدينة وكان لها الفضل الأول بربط هذه المنطقة التي مازالت حديثة العهد بالعمران بسوق حمام جمدار العظيم، فكانوا يسلكون الطريق الموصل إلى جامع عمرو بن العاص[٣].

بيد أن هذه المنطقة رغم كل ما حدث بها ما تزال عرضة لتهديد اللصوص الأمر الذى دفع جماعة التراسين القاطنين بها يرفعون شكوى مضمونها " إن اللصوص فى كل يوم يأتون إليهم ويتسلقون عليهم وقد حصل لهم بذلك غاية الضرر وقصدهم عمارة دربين متقنين لصون أماكنهم من اللصوص المذكورين ويصيرون بذلك آمنين. وإنهم جمعوا من بعضهم أربعة آلاف نصف فضة ليصرفوها فى عمارة ذلك بمعرفة فخر الأعيان الأمير محمد بن المرحوم سليمان زعيم مصر القديمة حالاً ".

وفى الحال ورد بيورلدى شريف لنايب مصر القديمة وهو الحاكم الشرعى الحنفى وساعده الأيمن الصوباشى محمد المذكور فى نص الشكوى، يأمرهما فيها بضرورة تعمير الدربين المذكورين وعدم التعرض لهم. فكان الدرب الأول يبدأ من كتف الدرب الذى بموقف الحمارة وحوش الشيخ عبد الرازق أبو العطا حتى قطعة أرض تحت تصرف المعلم منصور المعروف بابن الجزار، أما الدرب الثانى فيبدأ من كتف منزل دويدار الطحان وإلى منزل الحاج عبد الرحمن السملى ويوضع برأس الطريق الموصل إلى جامع عمرو. وكان

---

[١] عبد الرازق أبو العطا بن وفا من أشهر الشخصيات التى ظهرت بمصر القديمة خلال القرن السابع عشر، فقد كثر نشاطه واتسعت دائرة تعاملاته. للمزيد عنه انظر: الفصل الرابع الخاص بالتجارة من هذه الدراسة.

[٢] محكمة مصر القديمة: س١٠٤، م١٦٠٢، ص١٣٨٧

[٣] نفس السجل: س١٠٤، م١٦٠٢، ص١٣٨٧

طول كل درب نحو خمسة أذرع وكانا محكمى البناء بالمون المتقنة والدبش وأكتافهما بالحجر الفص الأحمر المنحوت بها الأبواب المحكمة بالخشب النقى والمسامير[١].

ويذكر إنه من أبرز الشخصيات التى رغبت فى حيازة أراضى بظهر سور حارة الشيخ شهاب المجذوب وتعميرها الأمير يوسف جوربجى من طائفة عزبان والمتحدث على حطب مطبخ الديوان الشريف، والأمير محمد بن الأمير سليمان زعيم مصر القديمة الآن. وقبلهم كان الشيخ عبد الرازق أبو العطا شيخ السادات الوفائية. ذلك كله يؤكد خروج المدينة كلها عن بكرة أبيها فقرائها وميسوريها للمساهمة فى تعميرها وعودة الحياة من جديد لبعض المناطق التى لا تزال تعانى من جراء اعتداءات سابقة.

وقد لاحظنا أيضاً حدوث عمران فى مناطق أخرى فى النصف الثانى من القرن، خاصة فى منطقة قصر الشمع داخل حارة النصارى وإن اختلف أسلوب العمران هنا حيث شمل أماكن متهدمة، وإعادة تجديدها مرة أخرى، ففى عام ١٠٧٦هـ/١٦٦٦م ذكر الذمى درهمى الخياط بخط قنطرة أق سنقر وناظر وقف كنيسة أبى سرجة بقصر الشمع، أنه يوجد مكان آيلا للسقوط ضمن أملاك الكنيسة المذكورة ومجاوراً لها، ويخشى من بقائه على هذه الحالة سقوطه على الجيران أو المارة من أهل مصر القديمة وغيرهم. لذلك صدر الأمر الشريف إلى الحاكم الشرعى الحنفى بمصر القديمة بالكشف على هذا المكان لأجل عمارته والسكنى به[٢]. وبالفعل قام الحاكم الحنفى هذا ومساعدوه بهدم الأجزاء الباقية من هذا المكان بعدما شاهد بنفسه مدى الضرر الذى سوف يلحق بالأهالى لو بقى هذا المكان على حاله، وقد قوبل ذلك بالترحاب من قبل الذميين القاطنيين قرب الخربة هذه وهم الذمى برسوم وشلتوت وشرابى والقسيس لطف الله.

وبحارة النصارى كنيسة تسمى بالمعلقة قد ارتبط بها العديد من الفقراء الذين اعتمدوا فى حياتهم على الأوقاف التى يحبسها أهل البر لصالح الكنيسة. وكان من جملة أوقاف هذه الكنيسة قطعة أرض قد خصصت كسكن لطائفة النصارى بالحارة المذكورة، ولكن

---

[١] محكمة مصر القديمة: س١٠٤، م١٦٠٢، ص١٣٨٧. الذراع يبلغ نحو ٥٠ سم.

[٢] محكمة مصر القديمة: س١٠٣، م١٤٠، ص٦٢

بمرور الزمن تهدم هذا المسكن وصار خراباً يتضرر منه الجار والمار، فرغب هؤلاء في تعمير هذا المكان لأجل عمل الشمع السكندرى به، وما يعود ذلك بنفع على فقراء الكنيسة المذكورة وأيضاً على القاطنين بها والواردين عليها، وأمام هذا الحماس الشديد من جانب النصارى وأيضاً ناظر أوقاف كنيسة المعلقة ويدعى إبراهيم بن يوحنا – الذى تبرع بالكثير من أمواله لفقراء الكنيسة – لم يجد الحاكم الشرعى الحنفى بد من إصدار أوامره بضرورة العمارة لهذا المكان المتهدم بعدما تأكد من خرابه[١].

وفى مواضع عديدة من المدينة امتدت أيدى العمران لترسم الحياة من جديد على المناطق التى هجرها أهلها كمنطقة كوم الجارح التى دب فيها العمران وظهرت فيها المنازل والحارات التى تكتظ بالسكان وعموماً حركة العمران هذه لم تكن تشهدها مصر القديمة وحدها، بل تزامنت مع مناطق أخرى. حتى مع المدينة القاهرة التى سرقت الأضواء من المدينة العتيقة، فسمعنا عن مناطق عديدة يجرى فيها العمران على قدم وساق كمنطقة أطراف بابى زويلة والخلق المسماة بأطراف قناطر السباع[٢].

مما سبق يتضح لنا أن فكرة "خرائب مصر القديمة" لم تكن ذات معنى كبير هنا بعدما شاهدنا العمران الذى حدث بها، ولكن لا يعنى ذلك أن الصورة تغيرت كلياً، فرغم العمران الذى نتحدث عنه وجدت العديد من الخرائب التى لم تصلها يد العمران بعد ولكننا أردنا تصحيح الصورة القاتمة التى رسمها البعض عن المدينة فى جو من الإنصاف التاريخى. وقد ظهرت العديد من المنازل، والحارات والوكائل التجارية وكذلك الأسبلة وما يلزم صور الحياة المختلفة فى المناطق الجديدة المعمرة، بحيث يمكننا القول بأنه قد ظهرت خريطة جديدة للمدينة فى ضوء الخطط التى ظهرت بها وما تبعها من حارات وأزقة وشوارع ودروب أو حتى خوخة وعطفة سوف نتناولها بعد قليل.

---

[١] محكمة مصر القديمة: س١٠٤، م١٨٢٠، ص١٤٧٣

[٢] محكمة قناطر السباع: س١٣٦، م٨٣٣، ص٢١٢

المنشآت العمرانية:

وظهرت على أرض المدينة العديد من المنشآت المعمارية سواء فى العصر العثمانى أو فى عصور سابقة عليه، هذه المنشآت اختص بعضها بالنواحى الدينية والأخرى بنواحى اجتماعية فنجد:

أولاً المنشآت الدينية:

١. المساجد:

لقد بدأت العمارة الإسلامية ببناء المساجد، فقد كان أول عمل قام به النبى (ص) عند هجرته إلى المدينة هو بناء مسجد للمسلمين فى مربد التمر الذى بركت فيه ناقته، وكان البناء فى البداية بسيطا بأدوات من اللبن وسعف وجذوع النخيل. وقد نهج المسلمين هذا النهج فى بناء مساجدهم، فعندما فتح عمرو بن العاص مصر عام ٢٠هـ/٦٤١م ودانت له الأمور بها فكر فى بناء مسجده الجامع بها نعنى به جامع عمرو بن العاص بمصر القديمة، وهو أولى مساجد مصر الإسلامية. الذى أخذ عدة ألقاب إضافة إلى المسجد الجامع منها المسجد العتيق لأنه أقدم الجوامع[1]. وتاج الجوامع، وقد هدم هذا الجامع وأعيد بنائه أكثر من مرة[2]. على أن أكبر الزيادات حدثت للجامع فى ٢١٢هـ/٨٢٧م على يد عبد الله بن طاهر من قبل الخليفة هارون الرشيد حيث بلغت مساحته نحو ١١٢,٥٠ × ١٢٠,٥٠ مترا وهى مساحته الحالية.

---

[1] ولفظ عتيق ربما لا يكون حكرا فقط على جامع عمرو، فأهل دمياط يطلقون على أحد مساجدهم لفظ الجامع العتيق أيضا بثغر دمياط. انظر: محكمة دمياط: س١٠٢، م٧٤، ص٣٤ – انظر: ملحق رقم (١) شكل جامع عمرو بن العاص.

[2] بدأ ذلك منذ عهد والى مصر سلمة بن مخلد الذى أزاد فيه عام ٥٣هـ، ثم قام عبد العزيز بن مروان عام ٧٩هـ بهدم الجامع عن آخره وأعاد بنائه من جديد، ثم صالح بن على عام ٣٧٩هـ، وغيره للمزيد انظر: أبو الحمد محمود فرغلى: الدليل الموجز. ص ص٦٤، ٦٥. ويرى الكحلاوى أن أول مسجد شيد بالفسطاط بعد جامع عمرو بن العاص هو المسجد المعروف " بالغفلة " الذى شيد على أنقاض حصن الروم عند باب الريحان. انظر: محمد محمد الكحلاوى: آثار مصر الإسلامية فى كتابات المغاربة والأندلسيين، الدار المصرية اللبنانية، ط١، ١٩٩٤، ص٧٧

وخلال العصر المملوكى دخلت عليه بعض التجديدات نذكر منـــها تجديـد بعـض جهاته التى تمت فى عهد الأشرف قيتباى [٩٠١/٨٧٢هـ][1]. وخلال العصر العثمانى كـان الجامع عامراً بالشعائر الدينية المختلفة، فقد زاره النابلسى أواخر القرن السابع عشـــر وقـال عنه " إنه من أعظم الجوامع فى مصر وهو جامع كبير واسع الأطراف مقدار الجامع الأمـوى الذى عندنا فى دمشق..... "[2]. فوجد به الخطباء وكان أشهرهم على الإطلاق الشيخ عثمـــان بن أبى السعود الشهير بابن مسطولة، والمؤذنين أمثال الشيخ إبراهيم بـــن نـــوح[3]. وهنــاك الفراشين القائمين بأعمال الفراشة وممن تولاها السادات الوفائية الذين أنابوا عنهم من البــاطن بعض العمال لبسط الفراش وتنظيفه من الأتربة، وكان الشيخ الإمام زين الدين عبد الـــرؤوف البكرى المالكى ومحمد بن زين الوفائية من السادات الذين قاموا بذلك[4].

ووجدنا بجانب جامع عمرو بن العاص العديد من الجوامع الأخـــرى داخــل مصـــر القديمة، يعود تاريخ إنشاؤها إلى ما قبل العصر العثمانى وما تزال فى القرن الســـابع عشـــر عامرة. فالجامع الجديد الناصرى قد شيده الناصر محمد بن قلاوون بخط فم الخليج تمـــارس فيه العديد من الأنشطة الدينية إضافة إلى إنه مقر لمحكمة مصر القديمـــة ومكـــان للتقــاضى وإن انتقل مقر المحكمـــة منه إلى الجامـــع المنصورى وسط مصر القديمة وذلك فـــى عــام

---

(1) مجهول: قطعة من تاريخ مصر إلى العثمانيين. مخطوط بدار الكتب القومية تاريخ تيمور ٢٦٤١. ميكروفيلـم ٢٧٩٦٢ ، كذلك انظر: مرعى بن يوسف الحنبلى: نزهة الناظرين فى تاريخ من ولى مصر من الخلفاء والسلاطين. مخطــوط بدار الكتب القومية تاريخ تيمور ٣٠٣ ميكروفيلم ١٣٣٠٣ ص١١٣

(2) عبد الغنى بن إسماعيل النابلسى: الحقيقة والمجاز فى الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز. تحقيق د/ أحمـــد عبــد المجيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦، ص٢٤٢

(3) محكمة مصر القديمة: س١٠٣، م٥٢٩، ص٢٠٨

(4) تشت ١٤١، ص٤٧٥ لسنة ١٠٣٠هـ

١٠٦٠هـ/١٦٥٠م[١]. وتبلغ مساحته نحو ٧٨٧٢ متراً مربعاً، وله أربعة أبواب وفيه ١٣٧ عموداً، إلا إنه قد زال كل أثر له الآن[٢].

أما جامع القاضى المملوكى حسن السويدى فكان بخط حمام جمدار وهو فى الأسلس مدرسة[٣]. واحتدم الصراع فى العصر المملوكى حول إقامة الخطبة به أم الدرس، وتأرجح تاريخه تارة بين هذه وتلك ولكن فى القرن السابع عشر أقيمت الخطبة والدرس معاً، بل أزيد على ذلك أن أصبح جامع السويدية مقراً لمحكمة مصر القديمة فى ١١ جمادى الأول ١٠٩٢هـ/١٦٨٢م[٤].

وفى منطقة دار النحاس عثرنا على جامع المرحوم " سيدى محمد بن المقداد " والذى كان عامراً فى بداية القرن السابع عشر، يتردد عليه المصلون وكان يرعاه أحد الفراشين الذين تم تعيينهم من قبل القاضى الحنفى بمحكمة الباب العالى[٥]. أما فى النصف الثانى من القرن قد تبدل الحال، فحينما صدر البيورلدى الشريف بالكشف على الجامع وجده الصوباشى محمد – صوباشى مصر القديمة آنذاك – " **مفتوحاً بابه به بعض الأماكن الخربة وشخص بخدمته لاستقبال الزوار** "[٦].

---

(١) محكمة مصر القديمة: س١٠١، م٧١٠، ص٢٦٨

(٢) أيمن فؤاد سيد: مسودة كتاب المواعظ والإعتبار فى ذكر الخطط والآثار للمقريزى. مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامى. لندن ١٩٩٥، هامش ص٤٢٨

(٣) هذا الجامع كان فى الأصل مدرسة بمصر القديمة أنشأها بدر الدين حسن بن سويد الذى مات قبل إتمامها، وأوصى بحوالى ٤٠٠٠٠ دينار لإتمام بنائها ولكن ابنه عبد الرحمن أبطل بها الدرس وأقام الخطبة وكان التضارب فى العصر المملوكى حول كونها جامع أم مدرسة. فمثلاً أبطل القاضى الشافعى ابن حجر العسقلانى الخطبة فيها وقرر الدرس وأزيل المنبر وأبطل الجمعة بها فى ١٠ صفر ٨٤٤هـ/١٤٤١م، ولكن بعد تلك أمر السلطان جقمق بإقامة الخطبة من جديد .... إلخ للمزيد من التفاصيل انظر: د/محمد حمزة – مقال ضمن كتاب المدارس فى مصر الإسلامية: العلاقة بين النص التأسيسى والوظيفة والتخطيط للمدرسة فى العصر المملوكى، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٩، ص٢٩٦

(٤) محكمة مصر القديمة: س١٠٥، م١٠٠، ص٥٣

(٥) محكمة الباب العالى: س٨٧، م١٥٩، ص٣٧

(٦) محكمة مصر القديمة: س١٠٣، م٥٨٩، ص٢٦٦

وبجوار جامع ابن المقداد جامع آخر به ضريح الشيخ محمد الحويوى ولكنه جامع مغلق يحتاج إلى العمارة. وبدار النحاس وجدنا أيضاً جامع الحسنات مفروشاً بالحصر، عامراً فسقيته ممتلئة بالماء؛ وإن وجدت به بعض الأجزاء تحتاج للعمارة، وبه حنفية قديمة خالية من الماء[١].

وعلى شاطئ نهر النيل بمصر القديمة فى المنطقة التى تعرف الآن باسم " أثر النبى "[*] جامع الآبار الشريفة والذى كان فى الأساس رباطاً لإقامة الفقراء المتعطلين أنشأه الوزير فخر الدين الذى تولى الوزارة فى ٦٩٣هـ/١٢٩٣م وتوفى عام ٧٠٧هـ/١٣٠٧م. وعرف أيضاً برباط الآثار لأنه شيد لإيداع آثار نبوية به قد اشتراها المنشئ من بنى إبراهيم بينبع ونقلها إلى مصر. وظل المسجد خلال القرن السادس عشر عامراً يتردد عليه المصلون، ويحضر الخطيب كل جمعة لإقامة الصلاة. ففى عام ٩٧١هـ أخبر جماعة السواقى السلطانية فى منطقة الآبار النبوية " **إن الجامع كامل الفرش به حصر والمقام الذى يصلى عليه منظف بلاطه به مؤذن وبواب** "[٢]. ورغم ذلك تحتاج بعض الأجزاء كالسلم والوجه الخارجية للعمارة والترميم. وقد استمر الجامع عامراً فى القرن السابع عشر يقطن به جماعة المجاورين. وقام والى مصر إبراهيم باشا "١٠٧٢/١٠٧٤هـ – ١٦٦١/١٦٦٤م" بإجراء العمران به[٣].

وفى سنه ١٠٧٧هـ/١٦٦٦م جدد الرباط وظهرت به القبة الحجرية الموجود بها أثر القدمين وهى مزخرفة من الخارج ومكسوة من الداخل بالقيشانى الجميل.

---

[١] نفسه: م٦٨٩، ص٢٦٦

[*] أثر النبى: أصلها عزبة قديمة من ضواحى مصر القديمة، عرفت بإسمها الحالى نسبة إلى مسجد الآثار النبوية الموجودة بهذه القرية، ثم أصبحت بعد عام ١٢٢٨هـ ناحية خاصة بذاتها بعد أن ضمت إليها الأرض الموجودة بهذه القرية. انظر: محمد رمزى: القاموس الجغرافى، جـ٣، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية عام ١٩٦٠، ص٣

[٢] محكمة مصر القديمة: س٩١، م٢٠٩، ص٩٣

[٣] ابن الوكيل: تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن، دار الكتاب الجامعى، القاهرة، ١٩٩٨م، ص١٩٠

وعلى شاطئ النيل أيضاً تردد دائماً ذكر مصلاة الخواجا أحمد بن طعيمة ولكن لـم تـرد أى معلومات عنها، فتذكر فى بطون السجلات كإشارة فقط[1]. وفى نفس المنطقة جامع قد شـيد فى العصر العثمانى نعنى جامع المرحوم عابدى بيك (الشيخ رويش الآن) أمير اللـواء، الـذى تأسس عام ١٠٦٩هـ/١٦٦٠م[2]. ولما كشف عليه بأمر من الوالى إبراهيم باشـا علـى يـد الصوباشى محمد فى ٥ ذى القعدة عام ١٠٧٨هـ/١٦٦٨م وجد " **عامراً كامل النظام مفروشاً بالحصر ومعلقاً به القدور والقناديل الزجاج وفسقيته ممتلئة بالماء** "[3].

وقد ظهر على الجامع النظام العثمانى الخالص الذى اتخذ مـن طـراز المصليـات السلجوقية فى القرن الخامس الهجرى أساساً له من حيث القبة الكبيرة المبنية من الحجر يحيط بها من جميع الجهات عدا الجهة القبلية أيوانات محمولة على أكتاف تعلوها قباب ضخمة[4].

وداخل حارة النصارى المعروفة بقصر الجمع بظهر حمام جمدار وجـدت بعـض الجوامع مثل جامع المعلقة بجوار كنيسة المعلقة[*] وجامع النعمانية بجوار كنيسة أبى سـوجة. ووجود مثل هذه الجوامع فى المنطقة التى تعتبر " مستودع كنائس " جعـل تاريخـها يتسـم بالحساسية طوال القرن السابع عشر، لذلك سوف نركز على هذه العلاقة بشئ من التفصيـل فيما بعد.

ويخط السبع سقايات جامع المرحوم يونس الذى كان مكاناً للدرس والصلاة فى وقـتٍ واحد[5]. وبروضة مصر القديمة جامع المقياس الذى يعود إلى ما قبل العصر العثمانى، فـهو

---

(١) محكمة مصر القديمة: س١٠٠، م١٠٥٠، ص٤٠٢ وأيضاً نفس المحكمة: س١٠٢، م٦٦٦، ص٢٥٨

(٢) محمد مختار: التوفيقات الإلهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالتواريخ القبطية، تحقيق محمـد عمـارة، المؤسسـة العربية للدراسة والنشر [د.ت]، ص٥٦

(٣) محكمة مصر القديمة: س١٠٣، م٦٨٩، ص٢٦٦

(٤) سعاد ماهر: المرجع السابق، ص٦٨

(*) ربما تعود تسمية هذا الجامع بالمعلقة لمجاورته للكنيسة المعلقة فى المنطقة.

(٥) الباب العالى: س١٦٠، م٦٤، ص١٩

ضمن أوقاف السلطان الغورى، ويذكر ابن إياس " **إن الغورى قد اهتم به وجدد عمارتـه** "[(١)].
وفى العصر العثمانى ظل عامرا بالعبادات المختلفة تعلق به الكثـيرون مـن الأئمـة أمثـال الإمامان أحمد وعبد المنعم ولدا الشيخ عثمان الجروانى والفراشين والقائمين بأعمـال الـرش والبوابة. ومن الطريف أن نجد ثلاثة من الأخوة الأشقاء وهم الشهابى أحمـد والزينـى عبـد المنعم والمعلم سليمان يتولون أعمال الفراشة بجامع المقياس مكان والدهم الشيخ زين الديـن عبد الله[(٢)].

وقد ورد ذكر جامع المسلمية أو الدبان بأطراف حمام جمدار بظهر العنبر الشـريف فى المنطقة التى حدث فيها عمران ملحوظ ورغم ذلك كان الجامع خرابا لم تمتـد إليـه يـد العمران خلال القرن. وبكوم الجارح جامع الشيخ أبو السعود محمد المدينى الشافعى يقطن بـه العديد من فقراء المسلمين، وكان يعرف قديما باسم المرحوم يعقوب[(٣)].

وجملة القول أن جوامع مصـر القديمة خلال القرن أغلبها كان ينبض بالحياة عـامرا بالمصلين، وإن تعثر أحدهم على الفور نجد الإدارة العثمانية تسارع بتعمير الأجـزاء التـى تحتاج إلى ترميم أو حتى بناء كما رأينا فى جامع الآبار الشريفة. ولا يعنى أن الجـامع بـه بعض الأجزاء الخربة إنه مغلق فهناك العديد من الجوامع رغم ذلك مفتوحة عـامرة كجـامع ابن المقداد مثلا. وخرائب بعض الجوامع لا يعود فقط للإهمال أو تقادم الزمـن كمـا يحلـو للبعض تفسير ذلك، بل فى أحيان كثيرة يعود إلى أمور أخرى مفتعلة أو اعتداءات واضحـة، فخراب جامع النعمانية جاء على يد النصارى الذين أخذوا أعمدة وأخشاب النعمانية وعمـروا به الجانب القبلى من كنيسة أبى سرجة[(٤)].

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، ط٢، ج٥، القاهرة، ١٩٦١، ص٩٤

(٢) الباب العالى: س١٢٩، م٥١٩، ص١٣٤ وأيضا: الباب العالى: س١٢٧، م١٩٢، ص٤٣

(٣) حجة وقف المرحوم الشيخ أبو السعود الجارحى بتاريخ ١٤ رجب ٩٢٤هـ، حجج الأمراء والسلاطين رقم ٢٨٧. دار الوثائق القومية.

(٤) محكمة مصر القديمة: س١٠٢، م٩، ص٥

٢. الزوايا والأضـــــرحة:

وقد انتشرت بمصر القديمة العديد من الزوايا والأضرحة كأســـــلوب مـــن أســـاليب العمران بها. سواء تم ذلك خلال القرن أو فى قرون سابقة ولكن يحسب إنــــه بـــاقٍ وبحالـــة جيدة. وقد قمنا بعمل حصر – قدر جهدنا – لأهم الزوايا داخل مصر القديمة والتى ظـــــهرت أمامنا خلال التعرض لسجلات ومصادر القرن، وقد بلغت نحو ٢٢ زاوية فى نواحٍ متفرقـــــة من المدينة، يوضحها الجدول التالى:

الزاوية	مقرها
١. زاوية المعلقة	خط حمام جمدار " بقصر الشمع "
٢. زاوية سيدى محمد الحويوى	خط فم الخليج
٣. زاوية النعمانية	خط حمام جمدار
٤. زاوية محمد المجذوب	بمصر القديمة "لم يحدد مقرها"
٥. زاوية الدخلى (الخليلى)	بخط دار النحاس
٦. زاوية الشيخ مرعى	قرب حمام جمدار
٧. زاوية الشيخ شهاب المجذوب.	بحمام جمدار
٨. زاوية النبى (ص)	بشاطئ نيل مصر القديمة
٩. زاوية الشيخ على كشك	بحارة الحمام بمصر القديمة
١٠. زاوية على الجعجعى	بحارة ابن مرعى قرب حمام جمدار
١١. زاوية السادات الوفائية	بخط دار النحاس
١٢. زاوية أبو السعود الجارحى	بكوم الجارح
١٣. زاوية العارف بالله تعالى الشيخ معاوية	بحارة الشرفا بخط حمام جمدار
١٤. زاوية عمر بن الفارض	بالقرافة الصغرى على حدود مصر القديمة
١٥. زاوية مسلمة بن مخلد الأنصارى	بظهر حمام جمدار
١٦. زاوية ساعى البحر	بخط حمام جمدار
١٧. زاوية الشيخة هنيدة	بحارة الدخامسة بفم الخليج
١٨. زاوية الشيخ على الجمل	بخط الحجارين بدار النحاس
١٩. زاوية الحنفى	بكوم الجارح
٢٠. زاوية شاهين الخلوتى	بسفح المقطم بدار النحاس
٢١. زاوية الشيخ سعيد الكيزانى	بخط الكيزانية
٢٢. زاوية الشيخ مسعود	بحارة العياط.بخط دار النحاس

وكان التصوف يمارس داخل هذه الزوايا بإنتظام، وكذلك الدرس مثلما كـــان داخـــل زاوية السادات الوفائية وزاوية ساعى البحر عثرنا على مكتب (كُتاب) ملحقاً بها يتردد عليـــه الطلاب عام ١٠٥٤هـ/١٦٤٤م[١]. بل أن البعض قد إتخذ من الزاوية مقراً له، فالمرأة حمـده بنت أحمد الفران كانت تقطن بزاوية الدخلى فى بداية القرن[٢].

وقد أحصى المقريزى المتوفى عام ٨٤٥هـ بمدينة مصر نحو ثمانى زوايا فقـــط[٣]. أى أنه حتى منتصف القرن ٩ هـ/١٥م كان قد عُمر بمصر القديمة هذا القدر البسيط فقط من الزوايا فى حين إنه – كما هو مبين بالجدول السابق – وجد نحو ٢٢ زاوية تقريباً من خـــلال استقراء سجلات القرن، وهذا يعنى أنه خلال هذه الفترة التى تربو على القرنين ونصف قـــرن تتحسس المدينة طريقها نحو العمران.

أما المقابر والأضرحة فقد انتشرت داخل المدينة وعلى حدودها الشرقية والجنوبيـــة، بينما كانت جبانة مصر الفسطاط حتى منتصف القرن ٩هـ/١٥م تمتد فقط شرق المدينة فـــى الأحياء التى تعرف اليوم ببطن البقر والبساتين وعقبة بن عامر والتونســـى وهـــى المنطقـــة المعروفة " بالقرافة الكبرى "[٤]. وعندما قام الكامل محمد الأيوبى بدفن ابنه عـــام ٦٠٨هـــ بجوار قبر الإمام الشافعى الذى بنى فوقه القبة العظيمة وأجرى إليها الماء من بركة الحبـــش بقناطر متصلة منها. قام الناس بنقل الأبنية من القرافة الكبرى إلى ما حول الإمام الشـــافعى، وأنشئوا هناك الترب التى عرفت " بالقرافة الصغرى "[٥].

وقد انتشرت بالقرافة العديد من المساجد والمتنزهات والأحجـــار الكريمـــة. ويـــرى برمون أن بها بعض الرسومات المنقوشة ولكن معظم أحجارها قد تهدمت خلال القرن[٦].

---

[١] محكمة مصر القديمة: س١٠٠، م٢٧٤، ص١١٩

[٢] محكمة مصر القديمة: س٩٨، م٣٨٣، ص١٠٨

[٣] المقريزى: المصدر السابق، جـ٢، ص١٤٩

[٤] أيمن فؤاد سيد: التطور العمرانى للقاهرة، ص٥٦ – وقد أخذت لفظ " قرافة " نسبة إلى خطة بنى قرافة، وهـــى خطـــة قبيلة المعافر ابن يغفر من اليمن. للمزيد انظر: المقريزى: المصدر السابق، جـ٤، ص٣١٩

[٥] المقريزى: المصدر السابق، جـ٤، ص٣٢٠

[٦] Gabriel Premond:Vayage De “1643-1645” ch22. P53

وتعددت المدافن بمصر القديمة سواء كانت مدافن المسلمين أو النصـــارى يرعاهـا العديد من الحانوتية لتجهيز الأموات وحملهم فى توابيت خاصة. وقد ظهر الكثـــيرون منـــهم بخطى فم الخليج ودار النحاس[1]. وقد لاحظنا أن نصارى مصر القديمة قد اعتادوا على دفـن موتاهم فى فساقى[*] تحت تخوم الأرض الكائنة داخل الدير أو الكنيسة مثل فسقية دير مـــارى مينا بفم الخليج ملك الذمية شلباية بنت الصايغ وكذلك فسقية المعلم ميرهم النصرانى وفســقية المعلم سليمان النصرانى المجاورتان لفسقية الذمية شلباية المذكورة[2]. وعثر أيضاً على ثـلاث فساقى بكنيسة سيدة النصارى بعد الكشف عليها بموجب بيورلدى صادر مـــن الوالـــى فـى مستهل صفر ١٠٦٦هـ/١٦٥٦م لمصطفى أغا من أعيان المتفرقة[3]. وقد لاحظ ذلك أيضـــاً الشماس كامل نخلة الذى ذكر أنه قد تم دفن البابا مرقص السادس (رقم ١٠١ فى تولى كرسى البطريركية) فى يوم الجمعة ٢٠ أبريل ١٦٥٦م، وأقاموا له حفل كبير وتم دفنه فـــى مدفـن البطاركة بكنيسة القديس مرقوريوس (أبى سيفين) بمصر القديمة[4].

وأما عن أهم الأضرحة التى ترددت أمامنا، مقام ســيدى على الجمل والشيخ محمـــد الكندى بخط دار النحاس، وضريح الشيخ نور الدين على بحارة الجمالة بفم الخليج، وضريـــح سيدى على الجعجعى بحمام جمدار، وضريح الشيخة هنيدة جنوب المجراة السلطانية وضريـح سيدى أبى السعود الجارحى بكوم الجارح.... إلخ.

ونلاحظ أن هناك اهتمام من جانب إدارة مصر القديمة للحفاظ على أساسات وهيـاكل هذه الأضرحة. ففى عام ١٠٥٩هـ/١٦٤٩م طلب الأمير سليمان صوباشى مصـــر القديمـــة،

---

[1] محكمة مصر القديمة: س٩٨، م١١٠٧، ص٣١٢

[*] فساقى: جمع فسقية، وهى كلمة عامية لها عدة دلالات، منها أنها مجمع المياه، كما أنها المحل الذى يدفن بـــه الميـت، وأحياناً تطلق على الجزء الغاطس من البيت المملوكى خاصة الطبقة أو ما يلى الدهليز المؤدى للأروقة أو القاعـات. انظر: محمد محمد أمين وليلى على إبراهيم: المصطلحات المعمارية فى الوثائق المملوكيـــة (٦٤٨-٩٢٣هـــ)، دار النشر بالجامعة الأمريكية. ط١، ١٩٩٠، ص٨٥

[2] محكمة قناطر السباع: س١٣٠، م١١١، ص٥١

[3] محكمة مصر القديمة: س١٠٢، م٢١، ص١١

[4] كامل صالح نخلة: تاريخ البابوات بطاركة الكرسى الإسكندرى. الحلقة الأولى، الطبعة الأولى ١٩٥١، ص١١٠

الكشف على مقام العارف بالله تعالى الشيخ على الجمل الكاين ضريحه بالحجارين بخط دار النحاس – كما تقدم – وعندما حدث الكشف وجدت به محلات تحتاج للعمارة ولا توجد مصابيح للإنارة، وبجواره من الجهة الغربية أماكن خراب وأثر لم يعلم لها ملاك[١].

٣. الكنائس والأديرة:

نميل إلى تسمية مصر القديمة خاصة منطقة قصر الشمع " **مستودع كنائس** " إشارة إلى العديد من الكنائس التى تنتشر بها، والتى يعود أغلبها إلى ما قبل العصر العثمانى، فلا ننسى إن مصر كان لها قصب السبق فى المسيحية، فعلى أرضها نشأت الكنائس والأديرة، بل أن أول دير للمسيحية كان فى صعيد مصر قرب دندرة، وقد استمرت معظم هذه الكنائس تمارس نشاطها حتى يومنا هذا.

ومنطقة الكنائس القبطية هذه المسماة بقصر الشمع يطلق عليها فى العصور الفرعونية اسم [خرى عحا] أى ميدان الحرب حيث يوجد الحصن الرومانى بابليون. ويروى أن أغلب كنائس النصارى هذه قد بنيت فى عهد الفاطميين[٢].

واستهوت منطقة الكنائس هذه العديد من الرحالة الأجانب فيقول الرحالة نتزو إن مدينة بابليون (مصر القديمة) بها العديد من الكنائس زمن الأتراك، وهى بديعة الصنعة من الداخل، تحوى رخاما مصقولا وبها قناديل فى جهات كثيرة، واهتم الأتراك بهذه المقدسات وأولوها الخدمات الدينية[٣]. وزارها أيضا خلال القرن الرحالة (جوهان ويلد Johann Wild) والرحالة جورج ساندى George Sandys وغيرهم ممن قاموا بجولات فى المنطقة وسجلوا مشاهداتهم وأخبار رحلاتهم هذه.

---

(١) محكمة مصر القديمة: س١٠١، م٦٢٦، ص٢٣٥

(٢) مجهول: قطعة من تاريخ مصر إلى العثمانيين. تاريخ تيمور ٢٦٤١، ميكروفيلم ٢٧٩٦٢ ، وأيضا: أبو الحمد محمود فرغلى: المرجع السابق، ص٧١

وقد أجمع هؤلاء الرحالة على إحصاء كنائس مصر القديمة، وقالوا أن بها نحو ثلاث أو أربع كنائس، وهو رقم يكاد يقترب للحقيقة إلى حد ما، فهى تحوى أكثر من خمس كنائس تقريبا كبرى إضافة إلى الكنائس الصغرى التابعة لها. وعموما أى تحديد لها سوف يأخذ صفة التقديرية، لأن هؤلاء الرحالة أنفسهم لا يتفقون على رقم معين، بل أن بعضهم يذكر صراحة تهدم بعض هذه الكنائس[١].

وأشهر هذه الكنائس على الإطلاق كنيسة المعلقة (السيدة العذراء) داخل حارة النصارى، وهى من الآثار القبطية الخالدة، وتحمل رقم (٥٧٠) بين آثار المنطقة. وقد عرفت بالمعلقة لأنها مشيدة فوق الحصن الرومانى وأغلب الظن أنها بنيت فى أواخر القرن الرابع أو بداية الخامس الميلادى وبناؤها فوق أحد أبراج حصن بابليون يعتبر رمزا لانتصار المسيحية على طغيان الرومان وجبروتهم. تبلغ مساحة هذه الكنيسة حوالى ٣٢,٥ × ١٨,٥ مترا، وارتفاعها ٩,٥ مترا على صحن ينقسم إلى أربعة أقسام[٢].

وقدم لنا الرحالة نتزوشيتز وصفا تفصيليا للمعلقة عندما زارها عام ١٦٣٦م، ونزل إلى أسفل الكنيسة بعدما أوقد شمعة حتى يتفحصها جيدا فوجد خزينة عميقة مرصعة بالرخام، وموقد صغير ومطبخ، وبئر قيل أن السيدة مريم العذراء أخذت جزءا من هذا البئر لتغسل المسيح به، ووجد حفرة على هيئة فرن لعمل الخبز وطهى الطعام، وأمام هذا الفرن قطعة رخامية مربعة بيضاء اللون مكتوب بوسطها كلمة " القداس La messc "[٣]. ويوضح وصف نتزوشيتز هذا مدى الحالة المعمارية الجيدة التى عليها المعلقة، وهى الحالة التى تؤكدها أيضا وثائق القرن بعام ١٠٥٤هـ/١٦٤٤م ثم بعد ذلك بفترة كبيرة عام ١٠٧٨هـ/١٦٦٨م[٤]. والحالة المعمارية الجيدة لا تنطبق على كنيسة المعلقة وحدها بل على

---

[١] فى حين يذكر جومار أن بمصر القديمة نحو ١٢ كنيسة، وربما أنه أحصى الكنائس الصغرى أو المتهدمة. جومار: وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل. ترجمة أيمن فؤاد سيد، مكتبة الخانجى، ١٩٨٨، ص٣٣٢

[٢] أبو الحمد محمود فرغلى: المرجع السابق، ص٧٣

[٣] Neitzschitz. Op. Cit. P229

[٤] محكمة مصر القديمة: س١٠٠، م٣٥٣، ص٦٣، أيضا نفس المحكمة: س١٠٣، م٦٨٨، ص٢٦٦

كافة كنائس مصر القديمة. والجدير بالذكر إن شهرة المعلقة تعود إلى نقل الكرسى المرقسى من مدينة الإسكندرية فى القرن ١١م على يد الأنبا خرستودلوس البطريرك ٦٦، واستمر الكرسى بها مدة طويلة إلى أن تم نقله إلى كنيسة أبى سيفين (مرقوريوس) فى القرن ١٤م، وأيضا اجتمع بها بعض المجامع الإكليريكية فى القرن ١٢م[١].

أما كنيسة أبى سرجة فهى لا تقل أهمية من الوجهتين التاريخية والفنية عن المعلقة، وهى تقع وسط الحصن الرومانى تقريبا (بجوار المتحف القبطى الآن)، وهناك شبه إجماع على إنها شيدت فى المكان الذى أقامت فيه العائلة المقدسة لما هربت من وجه الملك اليهودى هيرودوس. وسميت " بأبى سرجة " لأنها أنشئت باسم (سرجيوس) و (أخيس) وهما جنديان مشهوران استشهدا بجهة الرصافة بسوريا فى أوائل القرن ٤م فى عهد الإمبراطور مكسيمانوس[٢]. ويذكر نتزوشيتز مسمى آخر لأبى سرجة وهو Pella Madonna[٣]. وهى مستطيلة الشكل حوالى ٢٨,٤٠ × ١٦,٤٠ مترا وارتفاعها حوالى ١٥ مترا وهى على عمق ثلاثة أمتار عن مستوى الشارع، وهى بذلك شاهقة الارتفاع والنصارى كانوا دائما يقومون خلال القرن بعمل تجديدات وترميمات لها على حساب الجوامع والزوايا المجاورة لها خاصة جامع النعمانية، فقد اخذوا أعمدة وأخشاب النعمانية وعمروا به الجانب القبلى من الكنيسة وتركوا الجامع خرابا[٤]. وأقروا لها ناظرا يرعى شئونها ويتولى إدارة الأوقاف المرصودة لها لضمان استمرار العبادة بها وتأدية الطقوس الكنسية، والملاحظ أنها كانت تختص بالمسيحيين القدامى أو الأقباط (Copts)[٥] كما ترى المصادر. وقد رأى تقنو أثناء زيارته لها

---

[١] أبو الحمد محمود فرغلى: المرجع السابق، ص٧٣

[٢] نفس المرجع: ص٧٦

[٣] Neitzschitz. Op. Cit. P229

[٤] محكمة مصر القديمة: س١٠٢، م١٥٧٤، ص٦٠٢

[٥] Neitzschitz. Op. Cit. P22

معبدا صغيرا ومنخفضا جدا أسفل هذه الكنيسة، قيل أن السيدة العذراء أقامت فيه وقتا طويلا ومعها المسيح عيسى(١).

وارتبط تاريخ كنيسة أبى سرجة بكنيسة أخرى هى كنيسة القديسة بربارة أو الست بربارة التى تقع بالقرب منها داخل سور حصن بابليون (قرب المتحف القبطى الآن)، والتاريخ المشترك بينهما جاء منذ البداية وعندما تأسست هذه الكنيسة فى أواخر القرن ٤ أو أوائل القرن ٥م وسميت بإسم السيدة بربارة التى ولدت فى القرن الثالث الميلادى وسط أسرة غنية وثنية، واعتنقت المسيحية على يد العلامة المصرى "أوريجانس" الأمر الذى أغضب والدها فقتلها فحملت الكنيسة اسمها تخليدا لها. ولكن حدث أن تهدمت الكنيسة فى القرن العاشر وأعاد بناءها هى وكنيسة أبى سرجة شخص يدعى يوحنا بن الايح وكان ذا حظوة لدى الخلفاء الفاطميين، ورغم ذلك لم تشفع له هذه الحظوة عندما أعاد بناء كنيسة أبى سرجة وكنيسة بربارة رغم أنه أخذ تصريح فقط ببناء كنيسة واحدة لذلك أمر الخليفة الفاطمى بهدم إحدى الكنيستين وكلف وزيرة الذى صار يتنقل من الواحدة إلى الأخرى ليختار واحدة منهما، ولم يستقر على حال فلما أعياه التعب سقط ميتا، فبلغ الخليفة ما حدث فأمر بترك الكنيستين وقال " أنا أمرت ببناء واحدة والأخرى دية له "(٢).

وجاء شكل الكنيسة على هيئة مستطيل حوالى ٢٦ × ١٤,٥ مترا وارتفاع ١٥ مترا، يفصل صحن الكنيسة عن الجناحين القبلى والبحرى وعن الجناح الغربى المقابل للهياكل ثلاثة صفوف من الأعمدة الرخامية، وبها منبر مماثل لمنبر أبى سرجة(٣). وعلى هذا تعد كنيسة الست بربارة من أجمل كنائس مصر القديمة قاطبة.

ومن الكنائس الزائعة الصيت أيضا كنيسة أبى سفين التى تحمل رقم (٤١٧) ضمن آثار المنطقة، وتقع شمال حصن بابليون، وهى تحمل اسم الشهيد القديس مرقوريوس المعروف بأبى سيفين كان ضابطا بالجيش الرومانى واعتنق المسيحية واستشهد بسبب ذلك

---

(١) M. T. E Thevenot. Op. Cit. P263

(٢) أبو الحمد محمود فرغلى: المرجع السابق، ص٧٩

(٣) نفس المرجع: ص٧٩

عام ٣٦٥م، فسميت بإسمه. وتهدمت أكثر من مرة وأعيد بناؤها زمن المعز لدين الله الفاطمى ثم أحرقت ضمن حريق الفسطاط وتم ترميمها بالطوب وشيدت بها القباب، بل شهدت تجديدات جمة خلال القرن السابع عشر شملت الوجه والداخل[١]. ولا ننسى أنها لفترات من الزمن قد تبوأت دور الزعامة على كنائس مصر المحروسة عندما انتقل إليها الكرسى المرقسى فى القرن الرابع الميلادى.

ورأينا كنائس أخرى بالمنطقة مثل كنيسة شنودة وكنيسة القلاية، وكنيسة تتعلق باليهود أو المعبد اليهودى، وقد ذكر على مبارك فى خططه " **أن لليهود نحو ١١ كنيسة، واحدة منها بقصر الشمع وهى أقدمهم** "[٢]. وكنيسة سيدة النصارى ومارى جرجس وكنيسة بابليون السروج التى تولى نظارتها الذمى بيلاطس بن عاذر بن عبد رب المسيح فى منتصف القرن السابع عشر[٣].

وكان للمدينة نصيب وافر للأديرة كما كان للكنائس، فانتشر بقصر الشمع العديد من الأديرة مثل دير مارى جرجس أو دير البنات السفلى المعروف بدير سكندره وهو للقديس سان جورج Saint: George صمم بطريقة جيدة فوق ربوة مرتفعة، وقد زاره تفنو ورصد به عدة قضبان حديدية الواحد فوق الآخر، يحوى مصباح (قنديل) كبير وعمود ضخم توجد أعلاه شعلة من النار قيل أنها من القديس سان جورج. ومن الطريف – كما يروى تفنو – إن اليونانيين القاطنين بالدير يقولون بوجود ذراع يظهر فجأة ثم يهبط، ولكننى شخصيا لم أره مطلقا أثناء زيارتى[٤]. وقد صدرت العديد من الأوقاف لصالح الدير قام بتنظيمها المعلم دريهم بن يوحنا الخياط الذى تولى نظارة وقف فقراء دير البنات فى النصف الثانى من القرن[٥]. وخصص حوشا خاصا للدير لإسكان ممن يرى فيهم أهلا له وأطلق عليه "

---

(١) محكمة مصر القديمة: س١٠١، م١٨٩، ص٧٠

(٢) على مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة، جـ١، ط١، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٤، ص٢٣٣

(٣) الباب العالى: س١٣٣، م١٠٦٠، ص٢٥٨

(٤) M. T. E. Thevenot. Op. Cit. P263

(٥) محكمة مصر القديمة: س١٠٢، م٦، ص٢

حوش دير البنات "[١]. ووجد دير للنصارى الأروام الملكية شاهق البناء، وقد أضيفت له بعض الأبنية الجديدة فى النصف الثانى من القرن[٢].

أما دير مارى مينا بفم الخليج والذى أشرنا إليه منذ قليل، دائما مفتوح الباب، يقطن به العديد من الرهبان، حالته جيدة فقد أدخلت عليه بعض الترميمات فى النصف الثانى من القرن. وتم بناء العديد من الفساقى داخل أرضيته منذ عام ١٠٥٥هـ/١٦٤٥م بموافقة المعلم بقطر بن غبريال والمعلم ميخائيل بن أيوب ناظر الدير[٣]. ودير خضر الأخضر لم يرد عنه الكثير فى وثائق القرن سوى إنه بمصر القديمة وقد خصص للنصارى الأروام أيضا يرعى شئونهم البترك يوانيليوس الذى تولى نظارة الدير فى النصف الثانى من القرن السابع عشر. ومن تعلقات الدير خربة بالقاهرة بخط بين السورين بحارة اليهود " **عديمة الفائدة مأوى للصوص والحرمية والبلطجية وتضرر منها المار والجار "**[٤]. على حد تعبير المصادر.

وهكذا توافر للمدينة العديد من المنشآت الدينية سواء أكانت إسلامية أو قبطية، من مساجد وزوايا أو كنائس وأديرة ظلت عامرة خلال القرن السابع عشر وفيما بعد تنطق بمهارة المعماريين المهرة، وخير دليل على التراث الإسلامى والقبطى على أرضها.

ثانيا: المنشآت الإجتماعية:

١. الوحدات السكنية:

هناك العديد من الدراسات ألقت الضوء على المساكن فى مصر العثمانية سواء المنازل أو الرباع والأحواش والأزقة وغيرها. مثال لذلك دراسات " أندريه ريمون " عن القاهرة العثمانية وكذلك دراسات الدكتورة " نيللى حنا " المعمارية عن القاهرة أيضا. ومن خلال كتابات هؤلاء وغيرهم وسجلات المحاكم الشرعية وجدنا أن أغلب الوحدات السكنية

---

[١] محكمة مصر القديمة: س٩٨، م٢٦٨٠، ص٧٠٤

[٢] محكمة مصر القديمة: س١٠٣، م٦٨٨، ص٢٦٦

[٣] محكمة قناطر السباع: س١٣٠، م١١١، ص٥١

[٤] محكمة الباب العالى: س١٢٧، م١٤٣٨، ص٣٣٧

تجلت فى البيوت الخاصة وبجانبها وجدت الرباع التى كانت فى الغالب يسكنها الحرفيون وتبنى فوق منشأة تجارية أو خيرية، أما الأحواش فكانت قبلة الفقراء، وسواء الرباع أو الأحواش أخذ كل منهما مسمى " المساكن المشتركة "[١].

ومنازل الفسطاط منذ البداية كانت متواضعة كدار عمرو بن العاص وابنه عبد الله، ودور حكام مصر الأوائل، ولكن بمرور الزمن أخذت طور العمارة الأنيقة وظهرت قصور الأمراء، إلا أن الكبوات التى تعرضت لها المدينة من حرائق ومجاعات وأوبئة أضرت بالمبانى والوجه المعمارية للعديد منها. وتحولت إلى خرائب وهو ما أطلقنا عليه فى البداية " خرائب الفسطاط " التى امتدت إليها يد العمران بعد ذلك لتعيدها إلى سيرتها الأولى.

ونتيجة لهذا العمران شيدت العديد من المنازل بمصر القديمة سواء منازل الأمراء (منزل الأمير عبدى بيك أمير اللوا السلطانى بمصر القديمة فى منتصف القرن السابع عشر) و (منزل السادات الوفائية كالشيخ عبد الفتاح أو الأكرم ونجليه عبد الرازق أبو العطا وشمس الدين) ومنازل الميسورين مثل (عائلة الخولى بحمام جمدار) و (عائلة البديوى بفم الخليج) ومنازل عائلة جوربجى أمثال محمد وأخية يوسف وهما من الأمراء المتحدثين على حطب المطبخ السلطانى، ناهيك عن منازل الصوباشية وقضاة المذاهب الأربع بالمدينة. وهناك منازل البسطاء من الناس وهي بيوت يغلب عليها البساطه والقدم، حتى أن الرحالة نتزو عندما رآها قال عنها " **هى عبارة عن أكواخ أو عشش، يغلب عليها البساطة. وبعضها صغير فوق ربوة** " ويفضل تسميتها بأكواخ أو عشش بابليون[٢].

ومنازل مصر القديمة عبارة عن طابق واحد أو طابقين على الأكثر تشتمل على قاعات أرضية مسقفها غشيما (بسعف النخيل أو جذوع الأشجار) ودهليز مسقف أيضا غشيما وسلم يصعد منه إلى الطابق العلوى ويواجه السلم فى هذا الطابق فسحة كشف سماوى (أى غير مسقفة)، وعلى يمين الصاعد طبقة حبيس مسقفة غشيما بها باب مربع، وهذا الوصف

---

[١] نيللى حنا: بيوت القاهرة " دراسة إجتماعية معمارية " فى القرنين ١٧، ١٨، ترجمة حليم طوسون، العربى للنشر والتوزيع، ١٩٩١، ص٥٦

[٢] Neitzschitz. Op. Cit. P219

الدقيق هو نموذج أخذناه لمنازل مصر القديمة، وهو منزل الحاج على بن عبد الخالق التراس بعنبر مصر القديمة، وهو منزل على حالة معمارية جيدة ومشيد على مساحة نحو ١٢ سهما[١]. ولا يعنى ذلك أن تخطيط منازل المدينة قد صار على هذا المنوال فقط، بل عثرنا على العشرات، بل المئات من المنازل داخل بطون السجلات بأوصاف مختلفة، فمنها ما يحتوى على أروقة أو حواصل (مخازن) خاصة لخزن الغلال وقاعات عديدة إضافة إلى المنافع والمرافق بل لاحظنا أن الأفران كانت تلحق مباشرة ببعض المنازل مثل منزل المعلم محمد بن سليمان الحطاب بحارة الجمالة بفم الخليج[٢]. وأحيانا كانت الحجرات العليا تبنى بطرق معمارية تمتد ببروز فوق الشارع سواء بالأحجار أو الأخشاب[٣].

أما عن مواد البناء التى استخدمها أهل مصر القديمة عندما شرعوا فى بناء مساكنهم، فشملت الطوب اللبن والطوب الآجر والدبش والمون، ومعظم المنازل التى عثرنا عليها فى بطون السجلات فى آخر منطقة تم تعميرها فى فترة الدراسة وهى المنطقة المسماة " بالكفر المستجد بجوار الشيخ شهاب المجذوب بأطراف حمام جمدار " جميعها استخدم أدوات البناء هذه[٤]. ويرى ألبير جبرييل وعلى بهجت فى حفريات الفسطاط: أن المنازل التى تبنى بالدبش يرمى أساسها بغير نظام على هيئة مداميك من الدبش داخل حفائر الأساس، فى حين أن الأساس المبنى بالآجر يغلب عليه أن حفره قليلة العمق ويرمى الآجر هذا على هيئة مداميك منظمة ويسقى بمونة الجير والرمل[٥]. وكان الآجر المستعمل فى الفسطاط أحمر داكن ومتجانس مستوفى الحريق شديد الصلابة.

وكانت إدارة مصر القديمة تهتم بحماية أى منشآت عمرانية بصفة عامة والمنازل بصفة خاصة، وتحرص دائما على سلامة أسسها وهيكلها حتى تضمن سلامة ساكنيها وكذلك

---

[١] محكمة مصر القديمة: س١٠٤، م٢٣١٨، ص٦٣٧

[٢] نفسه: م٧٣، ص٤٥

[3] Nelly Hanna: Construction Work in Ottoman Cairo "1517-1798" Le Caire 1984. P13

[٤] محكمة مصر القديمة: س١٠٣، م٨٢٢، ص٣٢٩

[٥] على بهجت وألبير جبرييل: المرجع السابق، ص ص٩٩، ١٠٠

المارة فى الشـــارع، وقد تجلى ذلك فى الشكوى التى رفعها الشيخ الشهابى أحمد الشهير بابن زرعة القادرى خليفة السادة القادرية بمصر القديمة عام ١٠٥٤هـــــ/١٦٤٤م إلـــى الحـــاكم الشرعى بالمدينة مضمونها " إن بجوار منزله الكاين بحارة القدسية (الخلالـــه) بخـــط حمـــام جمدار قرب الحارة المستجدة توجد تربة مهجورة هى تربة الشيخ سعد الدين وداخل أرضـــها أصل نخل طويل آيل للسقوط ومائل على منزله، وكلما يقوم الهواء يضـــرب حـــائط منزلـــه ويهدم ما بها من طوب وأحجار، وفى ذلك ضرر له وتهديد للمارة ...... "[١]. فأمر الحـــاكم الشرعى بالكشف عن ذلك وفعل ما يلزم.

وكما ذكرنا فى بداية هذا الفصل أن الإدارة كانت تملك لمن يرغب فى التعمير أمـــاكن الخراب لبناء منازل صالحة للسكنى أو غيرها. ورأينا منطقة كفر الشيخ شـــهاب المجـــذوب بظهر حمام جمدار كيف كانت أرضا بوارا ثم ظهرت فيها العديد من المنازل [منزل دويـــدار الطحان – منزل الحاج عبد الرحمن السملى وغيرهما]. ولم يقف دورها عند هذا الحـــد بـــل كانت تشجع على إزالة الأبنية القديمة وإحلال أخرى محلها، فقد كانت هنـــــاك العديـــد مـــن المنازل القديمة التى رآها الرحالة جوهان ويلد أثناء جولاته داخل المدينة فى بدايـــــة القـــرن [١٦٠٦-١٦١٠][٢]. وردد بأسى " **إن منازل المدينة قديمة جدا وعلـــى طـــراز قديـــم، وأن المبانى الجميلة أغلبها تهدمت** ". وكأن العديد من أهل مصر القديمة قد سمعوا صيحة ويلـــد هذه، فأنبرى الكثيرون يتسابقون فى تملك تلك الأبنية القديمة وإعادة بنائها من جديـــد، ومـــن هؤلاء الأمير بهرام شربجى ابن الأمير يوسف القاطن بمصر القديمة الـــذى تملـــك بحجـــة شرعية من محكمة قناطر السباع عام ١٠٤٥هـــ/١٦٣٥م أماكن قديمة البناء بـــدار النحـــاس وراح يزيل الأبنية والأتربة وينقلها بعيدا، وعمرها تعميرا جعلها صالحة للسكن والاســـتغلال على نفقته الخاصة[٣].

---

(١) محكمة مصر القديمة: س١٠٠، م٤٢٠، ص٢٠٥

(٢) Johann Wild. Op. Cit. Ch30. P167

(٣) محكمة مصر القديمة: س١٠٣، م١٠١، ص٤٢

أما الرباع فهى نموذج للسكن الجماعى مبتكر للغاية، وقد خصص لسكنى أفراد الطبقة المتوسطة (البورجوازية)، وهو من المنشآت القديمة التى ثبت وجودها فى العصر المملوكى وانتشرت فى مصر العثمانية وكان لمصر القديمة نصيب منها، وقد وجد نوعان من الرباع – كما يرى أندريه ريمون[1]. **الأول:** يتكون من طابقين أو ثلاثة فوق الدور الأرضى الذى يضم حوانيت ومخازن (حواصل)، مثل ربع بحمام جمدار تجاه جامع السويدية أعلى حانوت ترك العلاف[2]. **والثانى:** فوق وكالة ويضم أيضا طابقين أو ثلاثة، وفى الحالتين لا يوجد اختلاف فى مبادئ بناء الشقق أو وجود الطوابق والأروقة وكذلك السلالم الداخلية.

وعموما تكثر الرباع قرب الأسواق وتزدحم بالسكان. فتذكر الوثائق وجود ربع بسوق حمام جمدار فى النصف الثانى من القرن يسمى " ربع القاياتى " المكتظ بالسكان[3].

ولقد تمكنا من تحديد نحو ١٢ ربعا فى المدينة، ولكننا نعتقد بوجود رقم أعلى من ذلك لوجود حلقات مفقودة فى سجلات العصر رغم محاولتنا المضنية للتقريب. وبوجه عام هو رقم معقول بالنسبة للرقم الذى توصل إليه أندريه ريمون لرباع القاهرة المعزية (٣٦) ربعا. ويرى أن كل ربع يقطن به حوالى مائة شخص، فإن كان الأمر كذلك، فلنا أن نتصور تعدادا لسكان مصر القديمة فى ضوء ذلك بجانب الوحدات السكنية الأخرى.

فمن هذه الربوع (ربع الخروبى) بحمام جمدار – نسبة إلى بدر الدين الخروبى – وقد تم تأجيره للأمير سليمان بن مصطفى من أمراء مصر المحروسة عام ١٠١٣هـ/١٦٠٣م لمدة ثلاثة عقود (٩ سنوات) نظير مبلغ ٢٤٠ نصف فضة يدفعها كل شهر من هذه المدة، واشترط عليه رعاية الربع وعمارته أو ترميمه إذا لزم الأمر[4]. وكان بواب الربع بمثابة

---

(١) أندريه ريمون: المدن العربية الكبرى فى العصر العثمانى، ترجمة لطيف فرج، دار الفكر، القاهرة، ط١، ١٩٩١، ص٢٣٥

(٢) محكمة مصر القديمة: س١٠٣، م١، ص١

(٣) نفسه: م٦٢٤، ص٢٤٣

(٤) نشت ١٢١ لسنة ١٠١٣هـ، ص١٢٤

أمين الدرك له يزج عنه أى خطر يهدده من سطو أو سرقة مثلما فعل بواب " ربع بن الأعرج " عام ١٠١٥هـ/١٦٠٥م[١].

أما ربع الكريدى فقد أنشئ فوق مطهرة الجامع المنصورى بخط دار النحاس على مساحة ١٢ سهم. وتذكر الوثائق إنه ضمن أملاك الشيخ عبد الرازق أبو العطا بن وفا الذى قام بتأجيره عام ١٠٧١هـ/١٦٦١م ولمدة ثلاث سنوات هلالية للنورى على بن الشيخ عبد الله الجيزى[٢].

ولاحظنا أن معظم ربوع مصر القديمة قد انتشرت فى دار النحاس وحمام جمدار، ذلك لأنهما أكثر مناطقها سكانا إضافة إلى انتشار الحرف بها فلا ننسى أن الربوع أغلب سكانها حرفيون. أما أصحابها فأغلبهم من السادة والأمراء مثل ربع عبد الرازق بن وفا – كما تقدم – وربع المنصورى لسيدى أحمد الينكجرى وربع سيدى محمد المدادى الوفائى، ووجدنا ربع لأحد النصارى بالمنطقة نعنى "ربع ميرهم النصرانى قرب شونة مصر القديمة[٣]. وقد تعرضت إحدى مساكنه للسرقة عام ١٠٥٦هـ/١٦٤٦م وآلت ملكية هذا الربع بعد ذلك إلى عبد الحق السعودى. ولاحظنا أيضا أن أغلب سكان الربع من الطائفة الرومية بالمدينة أمثال الزينى عثمان الرومى ويوسف الرومى الذين لم يتورعوا عن شرب الخمر وارتكاب الزنا داخل الربع. وتذكر الوثائق بأن " **ربع ميرهم سابقا وعبد الحق السعودى الآن قرب الشونة الشريفة بمصر القديمة وكر للفاحشة يجتمع فيه الرجال مع النساء الخاطيات....** "[٤].

---

(١) تشت ١٢٤ لسنة ١٠١٥هـ، ص٥٥

(٢) محكمة مصر القديمة: س١٠٢، م٧٧٠، ص٣٠٥ ، وعن الشيخ عبد الرازق والسادات الوفائية راجع فصل التجارة من دراستنا.

(٣) محكمة مصر القديمة: س١٠٠، م٦٢٩، ص٣٠٣

(٤) محكمة مصر القديمة: س١٠١، م٢٢٦، ص٨٧، وكذلك م٢٢٧، ص٨٧ أيضا من نفس السجل. وللمزيد من التفصيل انظر: الفصل الخامس من هذه الدراسة.

أما الحوش وهو النموذج الثانى للسكن الجماعى، فقد تأكد أندريه ريمون من وجــوده بمصر، وأحواش القاهرة عبارة عن ساحات واسعة أو أماكن مسورة مليئة بالأكواخ التى يبلغ ارتفاعها أربعة أقدام يقيم فيها جمهور الفقراء مع حيواناتهم، وأغلب الأحــواش مكشــوفة[١]. وظهرت هذه النماذج السكنية داخل مصر القديمة لانتشار العديد من الفقراء بها سواء مسلمين أو نصارى. فعثرنا على حوش داخل قصر الشمع يدعى " حوش دير البنات " لإقامة فقــراء النصارى، وبنفس المنطقة العديد من الأحواش مثل " الحوش الجارى فى وقف ســيدى أبــى السعود الجارحى والإمام الشافعى "[٢]. وبدار النحاس " حوش عصفور "[٣]. وما لفت انتباهنــا عند دراسة أحواش مصر القديمة أن وجدنا أغلبها ساحات ضيقة على غير العادة، فــالبعض منها لا يتعدى ١٢ سهما وهى مكشوفة والقليل منها مسقفا، وبعضها يحوى بجانب الوحــدات السكنية حواصل (مخازن) يقوم فقراء الحوش بتخزين حبوبهم وأسبابهم داخلها. وقد بلغ ثمــن أحداهم نحو ١٤٠ نصف فضة، فى حين بلغ الإيجار لأحد هذه الأحواش نحــو ٥٠ نصــف فضة عن كل سنة من الإيجار فى النصف الأول من القرن[٤].

أما الأروقة فقد انتشرت بمصر القديمة على نطاق واسع ودائما ما يتكون مــن عــدة طاقات إضافة إلى المرافق والمنافع، وهو مكان يصلح للسكنى والإقامة الدائمة، فقد اســتأجر حجازى بن نوفل رواق بحمام جمدار من المرأة زينب ابنة المرحوم على بجميــع مكوناتــه لينتفع به فى السكنى لمدة ثلاثة عقود وستة أيام نظير ٢٥٠ قرشا عن كل شهر[٥].

٢. منشـــآت أخـــرى:

وبجانب الوحدات السكنية وجدت عدة منشآت اجتماعية بالمدينــــة منـــها الحمامـــات والمقاهى والأسبلة. والحمامات كانت ضرورة ملحة فى مصر القديمة نظرا لإرتفاع درجـــات

---

(١) أندريه ريمون: المرجع السابق، ص٢٤٠

(٢) محكمة مصر القديمة: س١٠٤، م١٠٥٥، ص٩٦٧

(٣) محكمة مصر القديمة: س١٠٢، م١٧٥٣، ص٦٦٧

(٤) محكمة مصر القديمة: س١٠١، م١٩٨، ص٧٤

(٥) محكمة مصر القديمة: س١٠٢، م٥٤٣، ص١٩٨

الحرارة بها وهو أمر قد أشار إليه الرحالة عندما زاروا المدينة، حتى قيل أن الحرارة بها فى بعض الأوقات كانت تصل إلى ٤٠°. لذلك كثرت الحمامات فى المدينة يستخدمها الجنسين على السواء. وقد ذكر أندريه ريمون أن الرحالة التركى أوليا جلبى قد وضع رقماً لتعداد حمامات القاهرة وهو (٥٥ حماما) وهو رقم يرى ريمون إنه غير صحيح خاصة وأن المؤرخ أحمد شلبى بن عبد الغنى قد ذكر أنه يوجد بالقاهرة عام ١٧٢٣م نحو ٧٣ حماماً، ويضيف ريمون حمامين آخرين ليصل عدد حمامات القاهرة نحو ٧٥ حماما منهم حمامين بمصر القديمة[١]. وتؤكد وثائق القرن السابع عشر أنه يوجد بمصر القديمة أكثر من ٨ حمامات ما بين حمامات عامة – كما ذكر أندريه ريمون – وحمامات خاصة لبعض الأشخاص، وقمنا بتحديد هذه الحمامات وأماكنها فى الجدول التالى:

الحمام	موقعه
حمام جمدار	يسمى الخط بإسمه وهو قرب جامع عمرو
حمام عبد الرازق أبو العطا	خط دار النحاس
حمام أمير الدين بن عبد الغنى الخوجى	خط جامع الحسنات
حمام السادات الوفائية	خط دار النحاس
حمام جنة	لم تحدد الوثائق موقعه بالمدينة
حمام شمس الدين محمد أبو الفضل	خط دار النحاس
حمام "عامر بن عبد الله الوفائى – زين الدين صالح الوفائى"	خط دار النحاس
حمام العوافى	بمصر القديمة
حمام السادة الأربعين	خلف دار النحاس

[١] أندريه ريمون: فصول فى التاريخ الإجتماعى للقاهرة العثمانية، مكتبة مدبولى، ١٩٧٤، ص١١٦

وتتكون أغلب حمامات مصر القديمة كالعادة من مسلخ وبيت أول وبيت حرارة ومغاطس ودشوت ومستوقد[1]. وكانت عملية بيع واستئجار هذه الحمامات تتم بشكل طبيعي داخل المدينة.

أما الأسبلة فهى من المنشآت الاجتماعية والدينية على حد سواء، اجتماعية لأنها في خدمة الجميع ويتوافر عليها العديد من سكان المدينة، ودينية لأنها مخصصة للمارة وأبناء السبيل. ووجد العديد من الأسبلة هنا قد انتشرت بخط حمام جمدار ودار النحاس وفم الخليج، فيقوم السقايين بحمل مياه النيل وصبها فى هذه الأسبلة نظير أجر معلوم، وكان سبيل الحلفاوى بحمام جمدار أشهر أسبلة مصر القديمة قاطبة[2]. والمقاهى قد انتشرت بخط جامع عمرو خاصة بعد شيوع شرب القهوة بالمدينة، وقد امتلك الجامع العديد منها في صورة أوقاف من جانب أهل البر[*].

خطط مصر القديمة:

دراسة الخطط من الدراسات التى تواجه العديد من الصعوبات خاصة بعد زمن المقريزى، فأغلب كتب الخطط فى حقيقتها لم تكن على نفس قيمة خطط المقريزى، وهى في مجملها تعتمد عليه سواء من قريب أو بعيد. ويعترف بعض الباحثين أنه لم توجد كتب اختصت بالخطط سوى ثلاث فقط اختصت بذكر الخطط فى فصول من كتبها مثلما فعل أبو المحاسن يوسف ابن تغرى بردى تلميذ المقريزى المتوفى سنة ٨٧٤هـ/١٤٧٠م حيث خصص فصلا من كتابه " النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة " للحديث عن خطط القاهرة وتأسيسها فى العصر الفاطمى. وكتاب السيوطى " حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة " فيه بعض المعلومات الطبوغرافية عن مصر القاهرة ومعالمها الأثرية. وكتاب "

---

[1] محكمة مصر القديمة: س١٠٢، م٥٥٨، ص٢٠٣، وكذلك دشت ١٧٤، ص٩٣ لسنة ١٠٦٥هـ

[2] الباب العالى: س٤٢، م١٠٤٤، ص١٧٦

[*] للمزيد عن المقاهى انظر: الفصل الرابع.

التحفة الفاخرة فى ذكر رسوم خطوط القاهرة " ألفه شخص يدعى أقبغـــا الخـاصكى، ألفـه للسلطان الأشرف قانصوة الغورى وهو محفوظ بالمكتبة الأهلية فى باريس[١].

أما مؤرخو العصر العثمانى فقد اكتفوا بإستعادة معلومات خطط المقريزى مثلما فعـل ابن أبى السرور البكرى فى " قطف الأزهار " وغيرها. لذلك حاولنا مـن جانبنـا أن نسـلط الضوء على تخطيط مصر القديمة خاصة وأن خططها قد تعرضت للتغيير أكثر مـن مـرة وهذه سنة التاريخ بالطبع، وهو الأمر الذى جعل خريطة المدينة قد طـرأت عليـها بعـض التغيرات.

وربما يسأل سائل، لماذا نعالج الآن خطط المدينة وتحديدها رغم أن هذا لابـد مـن التعرض له منذ البداية ؟ والإجابة فى بساطة شديدة هى حدوث عمران بالمدينة قد تعرضنـا له فى البداية وهو أمر قد أوجد تغييرا فى خطط المدينة وحاراتها، حيث ظهرت أماكن جديـدة حضرية بالمدينة بعدما كانت خرابا.

وقد رصدنا خطط مصر القديمة وكذا الحوارى بها وما يتبعها من ثنايا السجلات فـى الجدول الآتى:

---

[١] أيمن فؤاد سيد: مسودة كتاب المواعظ والإعتبار فى ذكر الخطط والآثار للمقريزى، ص ص٢٤، ٢٥

الخط	ما به من حارات	عطفة	درب	خوخة
حمام جمدار	المعلم حسين-المغربلين-منصوربن مرعى- ابن وفا العلاف-ابن ميلم-كشك-سويقة سنوار-أبى سعيدة المغربى-عبدى بيك-المستجدة (الجنينة سابقا)-الميامنة-الشوفا-النصارى والبترك-القدسية (الخلالة)-حارة يحيى بن سلطان بالكفر المستجد.			خوخة ابن الأعرج
دار النحاس	رزير-عمر كشك-العياط-السرلمنة-ابن قميحة-رزنة		درب الحجارين	
فم الخليج	الكيزانية-الدخامسة-البردينى-الجمالة-الجباس-الحاج طه-حارة السكر والليمون-السيدة هنيدة-حارة البردينى.	بياسينة ياسين المعلم سليمان الخولى		خوخة الهيتمى
خط بين الأفران "خط الخشابين سابقا"				
خط حمام العوافى				

خط ساعى البحر				
خط السبع سقايات			درب الكنيسة- درب النخلة	
خط كوم الجارح				خوخة الشيخ محمد الحلفاوى
خط جامع عمرو بن العاص				
خط الحوض الأعوج بفم الخليج				

الجدول السابق يوضح لنا خطط المدينة وحواريها التى حاولنا قدر ما هو متاح بين أيدينا أن نرصد ونحدد مواقعها على خريطة مصر القديمة والتى وضح عليها الخراب فى بعض المناطق قبل القرن السابع عشر لاسيما فى منطقة أطراف حمام جمدار فى شرقى المدينة والتى أطلقت عليها الوثاق اسم " منطقة الخلاء والكيمان "(*) وهى المناطق التى خصتها حفريات الفسطاط وأطلقت عليها " منطقة حلقوم الجمل " التى تتصل بكوم الشقاف (انظر خريطة رقم " ١ " ص٤٨)، وحتى باقى خطط مصر القديمة ظهرت بها بعض الوحدات السكنية والأجزاء الداخلية تعانى من الإعياء وتحتاج إلى عمليات جراحية حتى تصلح للسكنى، نخص هنا خط كوم الجارح (مسقط رأس أبى السعود الجارحى) وحارة النصارى بقصر الشمع ... إلخ.

(*) انظر ملحق رقم (١) شكل يوضح مناطق الكيمان والخلاء كما صورتها حفريات الفسطاط.

وما أن انصرم القرن السادس عشر حتى صدرت الأوامر الشريفة بضرورة تعمير أماكن الخراب بمصر القديمة، وقد تعرضنا إلى العديد منها فى بداية هذا الفصل. وشمل هذا العمران الجزء الأكبر من منطقة الخراب التى أشرنا إليها (منطقة أطراف حمام جمدار)، فظهرت فيها الوحدات السكنية المختلفة من منازل وأحواش، وسمعنا فيها عن الحارة المستجدة بل كفر بأكمله يسمى " كفر الشيخ شهاب " وعمر الجامع القديم الموجود بالمنطقة قبل عمرانها وهو " جامع المسلمية " أو " جامع الدبان " حتى يؤدى أهالى المنطقة شعائرهم الدينية. وفى محاولة من جانبها لربط المنطقة الجديدة المستجدة (منطقة الخلاء والكيمان سابقا) بسوق حمام جمدار وجامع عمرو، قامت إدارة المدينة بتعمير طريقين (دربين) طولهما يبلغ نحو (خمسة أذرع) يبدأن من موقف الحمارة وحوش عبد الرازق أبو العطا حتى يصلان إلى جامع عمرو وحمام جمدار (انظر خريطة رقم " ٢ " ٤٩).

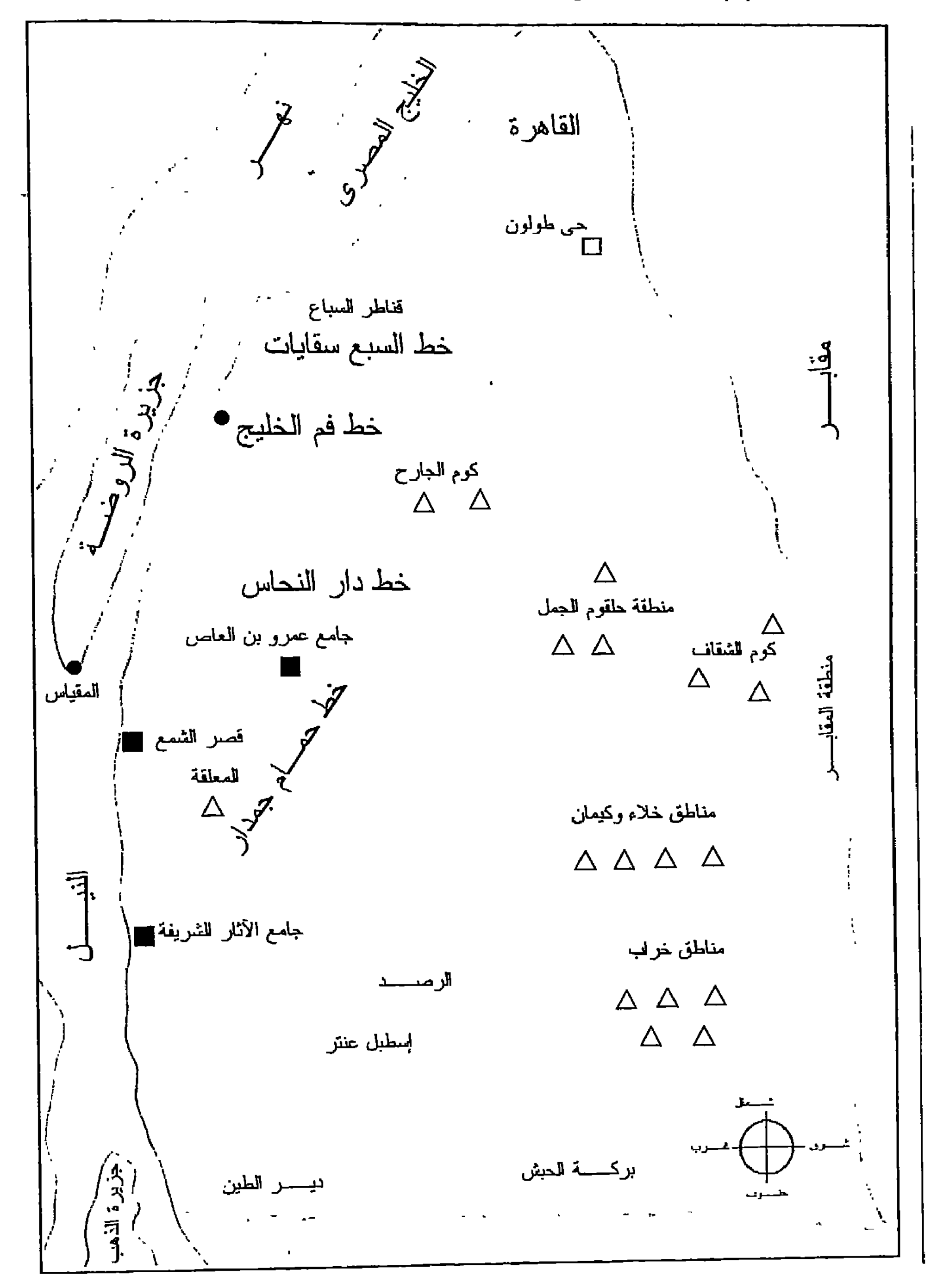
لا شك أن هذا العمران الذى حدث بالمدينة قد غير خريطة المنطقة، فقد وجدت مناطق جديدة استطعنا أن نسجلها على خريطة المدينة خاصة منطقة كفر الشيخ شهاب والتى أصبحت تابعة لخط حمام جمدار والمتاخمة له، فأصبح هذا الخط من أكبر خطط مصر القديمة مساحة وحارات (انظر الجدول السابق). ويجب أن نضع فى اعتبارنا عدة أمور عند التعرض لخطط مصر القديمة هذه، فقد استطعنا أن نحصر منها نحو تسع خطط فى ضوء ما تدلنا عليه وثائق المحاكم الشرعية وكتب الخطط، ولكن ظهر لنا أن بعضا من هذه الخطط الصغيرة يكون تابعا للخط الكبير المجاور له بحيث أنه فى مواضع كثيرة تشير الوثائق إلى هذا الأمر، فكما هو معين فى الخرائط التى بين أيدينا نجد مثلا خط بين الأفران من الخطط الصغيرة يجاور خط كبير مثل " خط دار النحاس " فهو بالطبع كما تشير الوثائق تابع له، ونفس الشئ بالنسبة لخط حمام العوافى المجاور لخط فم الخليج[1]. وكذا خط ساعى البحر المتاخم لخط حمام جمدار. أما خط السبع سقايات الواقع شمال مصر القديمة فهو يمثل حدودها مع قناطر السباع (السيدة زينب) وهو من الخطط ذات الأهمية للمدينة بما يحويه من

---

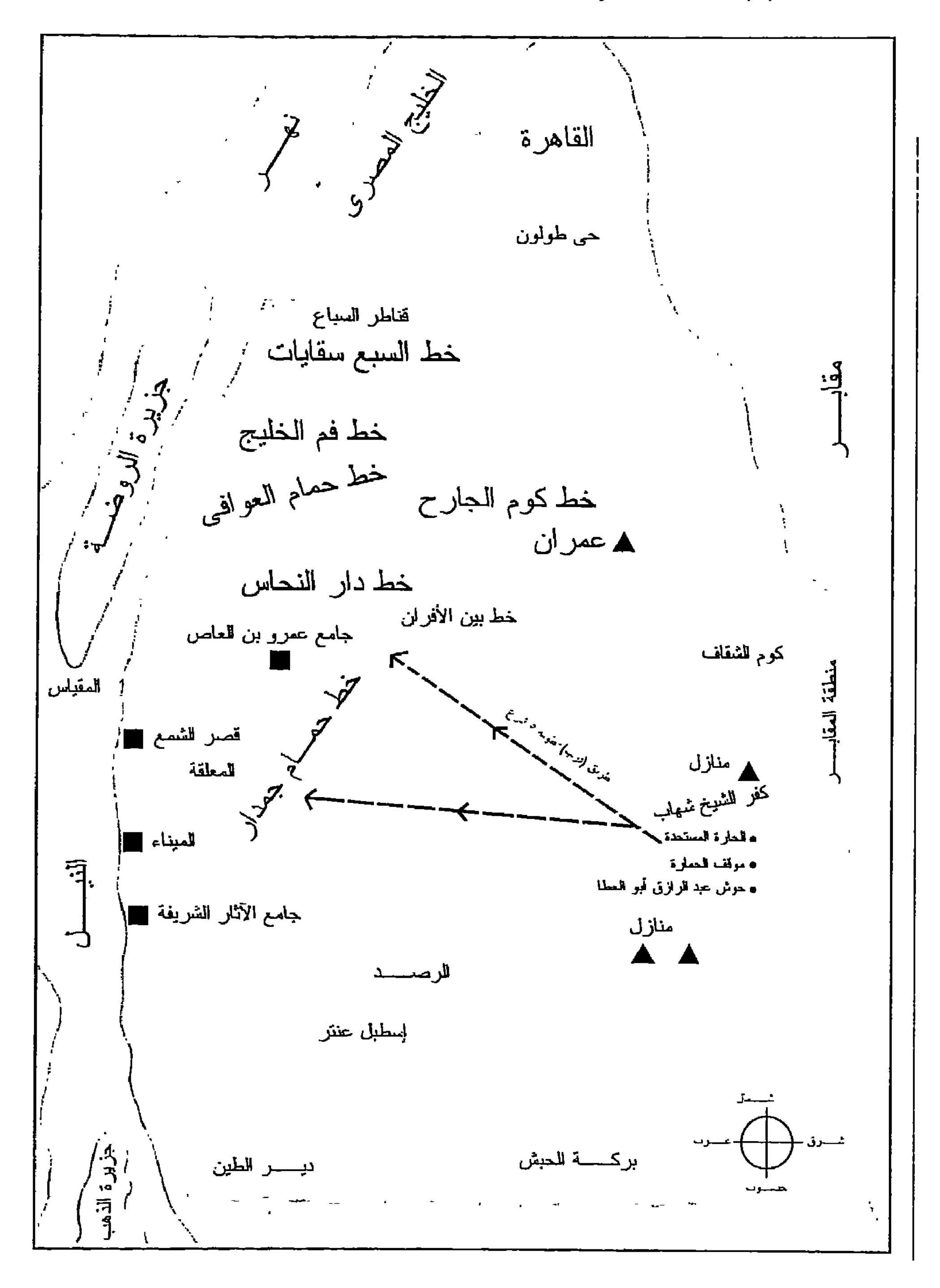
[1] وقدر ورد على سبيل الإشارة السريعة خط الخطر بفم الخليج، ولكننا لم نسمع عنه سوى مرة واحدة عام ١٠١٨هـ/١٦٠٧م وهذا دليل آخر بفم الخليج على وجود خطط صغيرة داخل الخطط الكبيرة. انظر: محكمة مصر القديمة: س٩٨، م٣٦٧، ص١٠٤

دروب ومذبح ضخم مخصص للحوم البقر والجاموس. أما منطقة جنوب مصر القديمة ونعنى منطقة الرصد (الشرف) المطل على إسطبل عنتر فهى منطقـة تكاد أيدى العمران لم تصـل إليها ولم نسمع عن خط واحد من خطط المدينة خلال القرن السابع عشر قد إمتـد حضاريـا إليها رغم أن تاريخ المدينة يذكر أن المنطقة الممتدة من جامع الآثار الشريفة – الذى يقـترب إلى حد ما من إسطبل عنتر – وحتى دير الطين كانت تمارس بها بعض الأنشطة الاقتصاديـة فى بداية القرن ولكن – فى حقيقة الأمر – على نطاق ضيق.

(١) خريطة توضح أماكن الخرائب بمصر القديمة فى ق١٧



(٢) خريطة توضح أماكن العمران بمصر القديمة خلال ق١٧



الفصل الثانى

النظـــــــام الإدارى

النظـــــام الإدارى

بعد أن دانت مصر للعثمانيين وسيطروا على مقاليد الأمور بها عقب هزيمة المماليك فى الريدانية ١٥١٧م وشنق طومان باى. بدأ العثمانيون يضعون نظاماً ثابتاً للحكم والإدارة فى مصر، فاشترك فى حكمها عدة عناصر يأتى على رأسهم الباشا (الوالى) وأحياناً تسميه المصادر (الوزير) ومعاونوه إضافة إلى هيئة أمراء المماليك من رجال العسكرية، والحامية العثمانية يشتركون فى الحكم والإدارة، وقد شملت الحامية العثمانية فى مصر عناصر مختلفة من العسكر (العثمانيين والمماليك والعرب)، وقد بلغ عدد رجالها عند مغادرة سليم الأول مصر نحو ١٢-١٤ ألف، وكانت الحامية مقسمة إلى ستة أوجاقات (فرق)[1] وهم الكوكليان والتفنكجيان والجراكسة، العزبان، الجاويشية، وقد اكتملت الفرق العسكرية التى تمثل الحامية العثمانية فى مصر بتكوين الفرقة السابعة، وهى فرقة المتفرقة من المماليك التى أضافها السلطان سليمان القانونى، فأصبحت الحامية العثمانية تضم سبعة أوجاقات[2].

هذا عن الهيكل الإدارى فى مصر العثمانية، فماذا عنه فى مدينة مصر القديمة لاسيما خلال القرن السابع عشر. تؤكد الوثائق أن المدينة بوصفها جزءاً لا يتجزأ من الدولة خلال تلك الحقبة، قد وضح عليها سمات هذا التنظيم الإدارى، وقد خضعت خضوعاً مباشراً للعاصمة بوصفها مقر الحكم ومسقط رأس الباشا، إضافة إلى التبعية الاقتصادية بوصفها هى وبولاق منفذى العاصمة على النيل، وهو ما سنلاحظه فى صفحات تالية.

---

[1] السيد رجب حراز: المدخل إلى تاريخ مصر الحديث (١٥١٧-١٨٨٢م)، دار النهضة، ١٩٧٠، ص١٠

[2] للمزيد انظر: قانون نامة مصر: أصدره السلطان سليمان القانونى، ترجمة أحمد فؤاد متولى، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٦ -ومن الدراسات الرائدة فى هذا المجال. د/ عبد الكريم رافق: بلاد الشام ومصر من الفتح العثمانى إلى حملة نابليون (١٥١٦-١٧٩٨م). دمشق، ١٩٦٨م -كذلك د/ عفاف مسعد السيد: دور الحامية العثمانية فى تاريخ مصر (١٥٦٤-١٦٠٩م) سلسلة تاريخ المصريين رقم ١٧٩ - الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩، ص١٠٣

أولاً: الجهاز الإدارى:

جاء التنظيم الإدارى فى مصر القديمة دقيقاً، ومكملاً لبعضه بحيث أننا لا نستطيع أن نفصل منصب عن آخر إلا فى أمورٍ محددة تميزه عن غيره وهذا التلاحم يؤكد على حسن سير الإدارة داخلها اللهم إلا فى بعض الفترات التى تحدث فيها فتن أو ثورات من قِبل العسكر والصناجق الأمر الذى يؤدى إلى حدوث ارتباك فى الجهاز الإدارى والأمنى. وقد جاء الهيكل الإدارى بها على النحو التالى:

أ. أمير اللوا الشريف السلطانى:

ويأتى على رأس الجهاز الإدارى فى المدينة، وقد اصطلحت وثائق المحاكم الشرعية على تسميته بإسم " أمير اللوا الشريف السلطانى وصاحب العز المنيف الخاقانى والمحافظ هو فى شهر تاريخه بمصر القديمة " وفى الثغور أخذ ألقاب أخرى مثل " القبودان " وكان مسئوليته متضامنة مع الشخصية الرئيسية الأخرى فى المدينة وهو الحاكم الشرعى (القاضى). فقد كانت الأوامر الإدارية الصادرة من الديوان العالى بالقاهرة أو من إسطنبول توجه إلى الحاكم الشرعى مخاطباً مع أمير اللوا أو غيرهم من مسئولى الجهاز الإدارى كما سنرى.

وقد تعددت مسئوليات أمير اللوا سواء كانت إدارية أو اقتصادية أو اجتماعية. فالأمير عابدى بيك – صاحب الجامع الكائن بشاطئ نيل مصر القديمة – الذى تولى منصب أمير اللوا بمصر القديمة عام ١٠٥٣هـ/١٦٤٢م كان أيضاً فى نفس الوقت محافظاً على الشونة بمصر القديمة ينظم شون الغلال بها[١]. فيبرز دور أمير اللوا فى حالات الغلاء الشديد أو حدوث الطواعين حيث كان عليه وفق ما يصله من بيورلديات وفرمانات أن يجهز

---

[١] محكمة مصر القديمة: س١٠٠، م٥٢٠، ص٢٦١ لسنة ١٠٥٣هـ

الغلال اللازمة من الشونة السلطانية بمصر القديمة وغيرها[١]. وقد رصد بعض الباحثين فعلاً أن عام ١٠٥٣هـ/١٦٤٢م ظهر طاعون عصف بالشباب والصبية فى مصر[٢]. وكان الأمير عابدى متحدثاً على أيتام مولانا الشيخ العارف بالله أبو الأكرام شيخ السجادة والكتبة الوفائية منذ عام ١٠٥٤هـ/١٦٤٣م وهم محمد أبو الفضل، عبد الرازق أبو العطا، وأم التيسير شامة وأم الهدى مؤمنة. وقام برعاية أملاكهم من مراكب نيلية وأراضٍ بجزيرة الذهب وكذلك مقاه حديثة الإنشاء بخط حمام جمدار[٣]. وقد قدر لأيتام الشيخ أبى الأكرام هذا بعد بلوغهم سن الرجال أن تكون لهم تجارات عريضة داخل محيط المدينة وخارجها.

وبجانب ذلك كان الأمير عابدى يقوم ببعض الجولات الليلية مع الصوباشى بمصر القديمة. فتذكر الوثائق إنه قام بجولة مع الصوباشى فرحات ليلة ١٣ ذى القعدة عام ١٠٥٣هـ/١٦٤٢م بالخلاء والكيمان قرب دير قصر الجمع بظهر حمام جمدار فوجدا جماعة من المسلمين والذميين حاملين السيوف والسكاكين والنبابيت وخلعوا باب الدير المذكور، وكانوا قرابة ٣٠ شخصاً، فلما قبض عليهم اعترفوا بفعل ذلك بحجة وجود وليمة بالدير[٤].

وقد جرى فى التزام الأمير عابدى أراضٍ زراعيةٍ فى مناطق متفرقة فى الفيوم (طبهتار – المناشى – دشية) فى القليوبية (منية صُدر– طوخ دلكة – منية الكرام). وامتلك أطياناً بناحية كفر فرشوت بالمنوفية، ولكن نتيجة أعماله العديدة قام بتأجيرها عام ١٠٥٩هـ/١٦٤٨م للأمير درويش جاويش بديوان مصر المحروسة لمدة سنة كاملة نظير مبلغ ثلاثين ألف نصف فضة[٥].

---

[١] عبد الحميد حامد سليمان: الموانى فى العصر العثمانى، الهيئة العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين رقم ٨٩ لسنة ١٩٩٥، ص٦٩

[٢] ناصر أحمد إبراهيم: الأزمات الإجتماعية فى مصر فى ق١٧، دار الآفاق العربية، ط١، ١٩٩٨، ص٢٥

[٣] محكمة مصر القديمة: س١٠٠، م٥٢٠، ص٢٦١ ولنفس السجل م٥٢٣، م٥٢٤، ص٢٦٣. للمزيد من التفاصيل عن أبناء أبى الأكرام. انظر الفصل الخاص بالتجارة من دراستنا هذه.

[٤] محكمة مصر القديمة: س١٠٠، م١٤٩، ص٦٠

[٥] محكمة مصر القديمة: س١٠١، م٥٧٧، ص٢١٦

وقد تزامن مع الأمير عابدى أمراء آخرون منهم الأمير حسن أمـــير اللـــوا بمصـــر القديمة عام ١٠٥٨هـ/١٦٤٧م وبجانب وظيفته بمصر القديمة كان ملتزماً على عدة نواحٍ فى الفيوم والغربية والبحيرة[١]. وهناك الأمير أزبك بيك، والأمير محمد بيك الذى ســقط جـدار ربع الغورى بشاطئ النيل قرب الشونة الشريفة على كتخذاه (تابعه) الشيخ محمد بن العـاصى شرف الدين البحترى فمات فى حينه[٢]. فالكتخذا كان يتحمل الكثير من الأعباء عــن كـاهل سيده الأمير. فيناب عنه فى عدة أمور، فيذكر أن الأمير عبد الله بيك أمير اللوا بمصر القديمة عام ١٠٨٧هـ/١٦٧٩م قد وكّل الأمير مصطفى بن الأمير عمر طايفـــة مســتحفظان فـــى حصص التزام الأمير البيك فى عدة نواحى بمحافظة الشرقية[٣].

وتذكر سجلات المحاكم الشرعية أن أمير اللوا قد توافر لديه العديد من الأرقاء للعمـل بخدمته فى الحراسة والبوابة أو الأعمال المنزلية وداخل حقول الأمير. فكان مراد بيك أمـــير لوا عام ١٠٦٦هـ/١٦٥٥م بالمدينة قد امتلك العديد من الأرقاء البيض والسود سواء روســى أو أفرنجى أو حبشى. ويحسب له أنه قام بعتق العديد منهم ابتغاء وجه الله[٤].

ب. القاضى ومعاونوه:

توافر للمدينة محكمة خاصة بها تنظر فى القضايا والمشكلات التى تعــرض أمامـــها سواء كانت هذه القضايا تدور فى فلك المدينة أو ما يتعلق بها أو حتى خارجها. ويذكر عبـــد الرحيم عبد الرحمن أن هذه المحكمة قد أنشئت فى ١٥ رجب سنة ٩٣٤هـ/١٥٢٧م، وانتـهى العمل بها فى ٢٦ شعبان ١٢٢٦هـ/١٨١١م[٥].

---

[١] نفســـــــه: م٣٧٠، ص١٣٥

[٢] نفســـــــه: م١٤٨٩، ص٥٥٦

[٣] محكمة مصر القديمة: س١٠٤، م١٥٨٣، ص١٣٧٨

[٤] محكمة مصر القديمة: س١٠٢، م٦٧، ص٢٦، وكذلك م٦٨، ص٧

[٥] عبد الرحيم عبد الرحمن: الريف المصرى فى ق١٨، مكتبة مدبولى، ط١، ١٩٨٦، ص٥٧

وقد تعرضت محكمة مصر القديمة خلال القرن السابع عشر للانتقال إلـــى منـــاطق متفرقة داخل المدينة. فكانت فى بداية القرن داخل الجامع الجديد الناصرى الذى شيده من قبل الناصر محمد بن قلاوون بفم الخليج، ثم انتقلت منه إلى الجامع المنصـــورى وســـط مصـــر القديمة وذلك فى عام ١٠٦٠هـ/١٦٥٠م وجاء النقل مرة أخرى من الجامع المنصورى هـــذا إلى مدرسة الخروبية بناء على أمر من قاضى القضاة جاء فيه " أذن ســيدنا ومولانـــا شـــيخ مشايخ الإسلام تاج روس الموالى الأعالى الفخام ..... بنقل المحكمة وسجلها مـــن الجـــامع المنصور إلى مدرسة الخروبية بمصر القديمة ...."[1].

وبدأ العمل بها فى ٨ شوال ١٠٨٨هـ/١٦٧٧م. ثم انتقلت بعـــد ذلـــك إلـــى جـــامع القاضى حسن السويد بحمام جمدار عام ١٠٩٢هـ/١٦٨١م[2]. وربما يعود هذا الانتقال إلـــى عمل ترميمات فى هذه الأماكن، خاصة وكما رأينا فى الفصل السابق مدى عملية الترميمـــات والعمران التى شهدتها المدينة خلال القرن.

وكان القاضى يجلس فى المحكمة لمباشرة مهام وظيفته، وقد خضـــع هـــذا القـــاضى مباشرة لقاضى القضاة بمصر المحروسة، فكان بمثابة نائب عنه داخل المحكمة. وقد أطلقـــت عليه الوثائق لقب (النائب) و (الحاكم الشرعى). وكان بالمحكمة أربعة نواب للمذاهب الفقهيـــة الأربعة (الحنفى – الحنبلى – الشافعى – المالكى) وإن كان السائد فيهم القاضى الحنفـــى لأن مصر أصبحت تقر هذا المذهب لها. ونادراً ما يقابلنا داخل بطون السجلات قاضى حنبلـــى أو غيره تنظر أمامه بعض القضايا. وكان من الممكن أن يزاول القاضى مـــــهام وظيفتـــه فـــى محكمتين فى وقتٍ واحد، ففى عام ١٠٧٨هـ/١٦٦٨م عين القاضى شـــمس الديـــن محمـــد البحيرى قاضياً ملكياً بمحكمة مصر القديمة مع بقائه بمحكمة جامع الصالح قاضياً أيضاً[3].

---

[1] محكمة مصر القديمة: س١٠٤، م١٩١٢، ص١٥٠٢

[2] محكمة مصر القديمة: س١٠٥، م٩٨ ، ص٥٣

[3] محكمة مصر القديمة: س١٠٣، ص٢٣٢. وعن القضاء فى العصر العثمانى عمـــوماً انظر: عبد الرازق عبد الـــرازق عيسى: القضاء فى مصر فى العصر العثمانى، سلسلة تاريخ المصريين رقم ٢٢ .

وقد لاحظ الرحالة برمون Premond أن القضاة فى مصر العثمانية كانوا يسكنون على حساب الدولة كما كان لديهم فى قضاة باريس وكانت هذه المساكن مثل مساكن ضباط الجيش الفرنسى وعساكره ويعود فيقول – إن نفراً من هؤلاء القضاة كانت مساكنهم الخاصة فى الشوارع وهذا دليل البساطة[١].

وحرص قاضى القضاة على ضرورة تحرى العدل داخل محكمة مصر القديمة وغيرها، فدائماً ما يصدر أوامره التى تحمل هذا المعنى. فهناك رسالة منه عام ١٠٩٢هـ/١٦٨٢م يحث فيها النواب والقضاة والشهود أن يسيروا بالعدل والإنصاف والصدق وترك الشبهات، ولا يتعاطون الكتابات فى المواد الخمس المستثنى بها كالكشف والتقرير والحكم على الغايب أو تفرد شاهد ويمين. والتواجر الطويلة والفسخ والقسمة والاستبدال. فكل ذلك هم ممنوعون منه إلا بإذن شريف. كما حرم عليهم أيضاً شرب الدخان داخل المحكمة، فمن فعل ذلك عوقب بالطرد[٢].

والحقيقة أن مراسلات قاضى القضاة للنواب كانت بمثابة دستور ونبراس لهداية هؤلاء القضاة تجنباً للوقوع فى الخطأ وحرصاً على تحقيق العدل بين الرعية. فمنها عدم أخذ أى نقود من المفرج عنهم، ولا يسجن أحد على قرشين، وأن يعطى الشخص الذى عليه دين مهلة للسداد وإن عاند فى الدفع يحبس بإلتماس خصمه[٣]. وأن لا يغالى المحضرون فى أخذ الدراهم فيذكر أنه فى عام ١٠٣٤هـ/١٦٢٤م اتصل لمسامع شيخ الإسلام أى قاضى القضاة إن المحضرين يفحشون فى أخذ الدراهم بتحريض من (محضرباشى) زيادة عن العادة المتبعة. فألزمهم شيخ الإسلام بعدم الزيادة عن العادة القديمة ومن يخالف ذلك يكون عقابه العزل[٤].

---

(1) Gabriel Premond. Op. Cit. p70

(٢) محكمة مصر القديمة: س١٠٥، م١٤٠، ص٥١ – انظر: ملحق رقم (٣) الخاص بمراسلة شيخ الإسلام إلى النواب والقضاة.

(٣) محكمة مصر القديمة: س١٠٤، م٨٩٨، ص٣١١

(٤) محكمة البرمشية: س٧١١، م١، ص١

وقد حث أيضاً على ضرورة الاهتمام بمصالح المرضى والأيتام والضعفاء والمساكين وعدم تعطيل مصالحهم ومواريثهم[١].

أما القضايا الخاصة بالقسمة العسكرية والقسمة العربية فقد منعت محكمة مصر القديمة وغيرها من تعاطيها بناء على عدة مراسلات سواء من شيخ الإسلام أو حتى من القسام العسكرى بمصر المحروسة وقد نهج الديوان العالى نفس هذه السياسة بصدور العديد من المراسلات منها عام ١١٠٤هـ بعدم تعاطى كتابة المواد المتعلقة بالديوان العالى ولا بالصفة المتصورة[٢].

كل ذلك تأكيد على ضرورة الوصول إلى قضاء عادل وشامل وملم بكافة جوانب المجتمع. لذلك أصبح فى يد الحاكم الشرعى مرجع أساسى يستند إليه كلما تعثرت الأمور أمامه. ويساعده فى مهمته المنوط بها هذه: **الشهود أو العدول**: فكانوا بمثابة الساعد الأيمن للقاضى، فيكتبون الحجج داخل المحكمة نظير أجر معلوم تقدره الوثائق بنحو ٤ أنصاف فى الحجة الواحدة، وقد حذر شيخ الإسلام من قيام الشهود بكتابة الحجج خارج المحاكم بغير معرفة النواب الحنفية عندما رأى الكثيرين منهم يتعاطون ذلك[٣]. ويعين السادة العدول بأمر من قاضى القضاة داخل المحكمة، وقد ورد أمامنا العديد منهم داخل محكمة مصر القديمة والذين يعود أغلبهم إلى أنساب عريقة مثل السيد أحمد أصالة الوفائى والشيخ عبد الفتاح بن الشيخ مدين السعودى وناصر الدين مصطفى بن الشيخ الإمام أحمد خضر[٤].

ومن معاونى القاضى جماعة المحضرين أو الرسل، يرأسهم محضرباشى – كما تقدم – وهم الذين يناط بهم إحضار من تتطلب إجراءات الدعوى حضورهم إلى المحكمة

---

(١) محكمة البرمشية: س٧١٠، م٨٨٩، ص٦٥٣ لسنة ١٠٣٤هـ

(٢) محكمة الزاهد: س٦٨٢، م٢٦٨، ص١٣٣

(٣) محكمة البرمشية: س٧١١، ص١ لسنة ١٠٥٤هـ

(٤) محكمة البرمشية: س٧١٤، م٦٠١، ص٢٤٦ لسنة ١٠٩٠هـ

لسماع أقوالهم، وغالباً يتم اختيار هؤلاء من بين الجند المتقاعدين[1]. كذلك كان الصوباشى كما سنرى من كبار معاونى القاضى ومنفذاً لأوامره بكل دقة وحزم.

وكانت تعرض يومياً أمام قاضى مصر القديمة العديد من القضايا والمشكلات التى يفصل فيها بمعاونة شهود مجلسه. فعلى طول القرن السابع عشر وقعت العديد من حوادث السرقة والقتل أو السطو سواء بين المسلمين أو النصارى أو بعضهم البعض، حيث كان القاضى الحنفى ينظر فى قضايا الذميين من أهل مصر القديمة التى تعرض أمامه. ففى ليلة ٢٨ ربيع الثانى ١٠١٩هـ/١٦٠٩م وقعت حادثة بحارة قصر الشمع، تعدى فيها اللصوص على أهل الحارة وسرقوها، وقد ادعى جرجس بن عبد السيد النصرانى اليعقوبى – أمام الحاكم الشرعى – على رزيق بن جرجس النصرانى أيضاً بأنه فى ذات الليلة قد فتح ثقباً موصلاً لمنزله، وأحضر جماعة اللصوص وربط لهم حبلاً حتى نزلوا إلى بيته وأخذوا " الدوشت النحاس " وثمنه ١٤٠ نصف فضة، ولما صاح فروا هاربين بما معهم. فأشهد الحاكم الشرعى جمعاً من النصارى اليعاقبة من أهل حارة قصر الشمع، فشهد كل من عبيد بن داود، حبيشى بن عبد المسيح وصليب بن غبريال وغيرهم بأن رزيق يعاشر اللصوص والمفسدين لذلك أمر الحاكم الشرعى بتعزيره التعزير الشرعى[2].

وقام القاضى الحنفى بتأديب منصور بن سلام النصرانى عندما ثبت عليه شرب الخمر عشية ليلة ١٨ رجب ١٠٢٠هـ/١٦١٠م[3]. ومن الأحداث الغريبة التى وردت أمام القاضى الحنفى أيضاً من قِبل الزينى أوده باشى طايفة عزبان المتولى السبع سقايات أن إمرأة تدعى صالحة بنت محمد المعروفة بزوجة إبراهيم الحمار القاطنة داخل حوش درب السيدة زينب أخبرت أن شخصاً يدعى سلامة الحمار أخذها من مكانها دون علم أبويها وزوجها وجيرانها وتوجه بها إلى قصر العينى ووضعها فى خزانة بداخل قاعة مكثت فيها قرابة تسعة

---

[1] محمد نور فرحات: القضاء الشرعى فى مصر فى العصر العثمانى، الهيئة المصرية العامة للكتابة، ١٩٨٨، ص٨١

[2] محكمة مصر القديمة: س٩٨، م٧٠١-٧٠٢، ص٢٠٦

[3] نفسه: م١٥٠١، ص ٤٠٦

أشهر[1]. ورغم أن أصل الوثيقة لم يكتمل لكن يبدو لنا من سير الواقعة أنها حادثة خطف ربما للانتقام أو بهدف الاعتداء على هذه المرأة.

وفى ٢٨ محرم عام ١٠٧١هـ/١٦٦١م ادعى المعلم محمد بن نور الدين المعروف بالجماميزى – أمام القاضى الحنفى – على الحاج موسى بن عيسى الفوال بأنه تعدى عليه بخط الحوض الأعوج بفم الخليج بالسباب والشتائم بدون وجه حق، فلما سئل عن ذلك أنكر، فكلف المدعى بإظهار البينة فأحضر الشهود الذين أقاموا الشهادة بأن المدعى عليه قد فعل ذلك، وبناء عليه عذره الحاكم الشرعى[2].

وأحياناً كانت تأخذ بعض القضايا طريقها إلى الصلح أمام القاضى رغم وقوع الجرم البين. فقد ادعى الذمى عبد السيد بن عبد رب المسيح على زوج ابنته زيتونة وهو الذمى يوسف بن عبد السيد النصرانى – وكان كل منهما يعمل خياطاً بخط حمام جمدار – عندما أرسل ابنته القاصر بطعام من اللبن لأختها المذكورة، وجلستا تأكلان، فجاء يوسف المذكور وتعدى على البنت القاصر وضربها بقدميه وطردها فخافت منه وارتعدت حتى بطل نصفها وعجزت عن الوقوف، ورغم ثبوت ذلك عليه إلا أن بعض الناس قد تكلموا فى الصلح ورفع الطلب، وتم ذلك أمام القاضى الحنفى، واشترط على المدعى عليه تطبيب البنت المذكورة إلى حين خلاصها من مرضها[3].

ولم يكتف القاضى بالجلوس داخل المحكمة للتقاضى، بل كان يذهب بنفسه إلى مكان وقوع الحادثة حتى تتبين له الحقائق، وإن تعذر وجوده كان يرسل من طرفه شهود مجلسه وبصحبتهم الصوباشى الذى لعب دوراً بارزاً فى تحقيق الأمن والاستقرار داخل المدينة. إذن يتضح لنا من ذلك أن عملية سير القضاء داخل مصر القديمة فترة القرن السابع عشر لم تكن

---

[1] محكمة قناطر السباع: س١٣٦، م١٩١، ص٥٠ لسنة ١٠٨٩هـ

[2] محكمة مصر القديمة: س١٠٢، م٧٨٦، ص٣١٢

[3] نفسه: م٩٢٣، ص٣٦٤

قاصرة على رجال القضاء فحسب، بل هناك ثمة تلاحم بينهم وبين رجـــال الأمـــن وســـوف يتضح ذلك أكثر وأكثر عند مناقشتنا حول مسئولى أمن المدينة.

ج. الصوباشى وأمناء الأدراك:

هناك شبه إجماع بين الباحثين على أن صفة الوالى أو الصوباشى تطلق علـــى مـــن يسند إليه رئاسة الجهاز الأمنى داخل المدينة وأطلق عليه أيضاً لقب (زعيم) أى زعيم مصـــر القديمة أو صوباشى مصر القديمة(*). وقد خضعتا مصر القديمة وبولاق أمنياً وإدارياً للقـــاهرة بوصفهما ضاحيتان من ضواحيها، وخضعتا أيضاً لإشراف رجال من أوجاقات مســـتحفظان، حيث يختار من رجال هذا الأوجاق وأغواته من يكون مسئولاً عن الإشـــراف علـــى الأمـــن ورجاله فى هاتين الضاحيتين[١]. ثم بعد ذلك وبالتحديد منذ سنة ١١٤٣هـــ/١٧٣٠م ألحقـــت مصر القديمة وبولاق إدارياً بالقاهرة، وانتقل الإشراف الأمنى فيهما إلى زعيم القاهرة.

وقد رأينا فيما سبق التحديد الجغرافى لمصر القديمة، وكيف تنتهى حدودها، وظـــهور مناطق سكنية جديدة بعدما دبت عجلة العمران فى جسدها. ولنـــا أن نذكـــر الآن أن النطـــاق الأمنى لمصر القديمة ربما يخرج إلى خارج حدودها الجغرافية هذه، والذى يمكن أن نســـميه " النطاق الأمنى " أو " الحدود الإدارية " إذا جاز لنا التعبير، وما دفعنا إلـــى الانســـياق خلـــف إيجاد هذه المسميات هو خروج مصر القديمة فعلاً خارج حدودها الجغرافية لتشـــرف أمنيـــاً على أجزاء من خط قناطر السباع (السيدة زينب)، وهو ما أشرنا إليه فى موضع سابق مـــــن

(*) صوباشى: لقب حربى قديم كان يستعمل فى البلاد المتحضرة بالحضارة التركية وأصبح من أشهر الألقـــاب الحربيـــة والشرطية فى الدولة العثمانية، على إنه إستعمل فى آسيا الصغرى فى عهد متقدم يرجع إلى أيام الســـلاجقة، وكـــان لهؤلاء الصوباشية إمتيازات تختلف بإختلاف الولايات وكان لهم إقطاعاتـــهم (تيمـــار) وللصوباشـــى نصيـــب مـــن الضرائب والغرامات التى تفرض على الأهالى. انظر: عبد الحميد يونس وآخرون: دائـــرة المعـــارف الإســـلامية، المجلد الرابع، ص ص٣٦١، ٣٦٢

(١) عبد الحميد حامد سليمان: المرجع السابق، ص ص١٢٤، ١٢٥

قول الوثائق بصريح لفظها " درب السيدة زينب بخط قناطر السباع المعدود من درك مصر القديمة ".

أما صوباشى مصر القديمة فهو رئيس جهاز الأمن بها، وكان دائم الاتصال بالحاكم الشرعى ويحضر العديد من جلساته ويعرض عليه كل صغيرة وكبيرة تحدث داخل المدينة. وعلى طول القرن السابع عشر وجدنا العديد منهم فى ضوء سجلات المحاكم الشرعية. وكان للصوباشى سجن خاص به بجانب سجن الحاكم الشرعى يودع فيه الخارجين على القانون وإن كان سجن الشرع الشريف (الحاكم الشرعى) هو الأساس المعترف به عند توقيع العقوبات. ومن الأمور التى وقعت قدوم الزينى بيالة صوباشى مصر القديمة عام ١٠٢٣هـ/١٦١٣م للقاضى الحنفى وأخبره بأن أربعة أشخاص مسجونين بسجنه بمصر القديمة قد انتهزوا فرصة طوافه وجماعة الخفر وجماعة البوابة التى بها السجن كانوا معه، وفروا هاربين، ولم يعثر عليهم[1].

وكان الأمير سليمان بن محمد جاويش الذى تولى منصب الصوباشية بمصر القديمة منذ ١٠٥٥هـ/١٦٤٥م حتى عام ١٠٧٤هـ/١٦٦٤م هو أنشط هؤلاء قاطبة إضافة إلى التزامه ببعض المناطق الزراعية فى الأطفيحية[2]. وامتلاكه العديد من المراكب النيلية.

وتعتبر الجولات الليلية التى يقوم بها الصوباشى ورجاله من المحافظين فى غاية الأهمية لحفظ الأمن ومنع وقوع العديد من الجرائم وجمع المعلومات حول بعض المخالفين مثلما فعل الأمير محمد عام ١٠٩٠هـ/١٦٨٠م فقد وصل إلى علمه أن رجلاً من الفلاحين الخيالة يدعى إبراهيم الحلوانى من أهل الفساد والخيانة وهو قاطن بخط حمام جمدار داخل حارة ابن مرعى، وكان قبل ذلك مقبوضاً عليه عند صوباشى القاهرة وبعد إطلاق سراحه

---

(١) محكمة مصر القديمة: س٩٨، م٣٢٤٦، ص٨٦٧

(٢) محكمة مصر القديمة: س١٠٠، م٤٨٧، ص٢٤٣. وقد لاحظ جب وبوون هذا وأعلنا أن صوباشى (التيمار أو الخزانة) لهم الحق فى الإتاوات المتحصلة من الغرامات المفروضة على المذنبين. جب وبوون: المجتمع الإسلامى والغرب، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى، ج١، دار المعارف، ١٩٧٠، ص٢١٨

قدم إلى مصر القديمة ولم يقض بها إلا مدة يسيرة وضاع لجارٍ له بعض البهائم ليلاً ولم يعلم السارق فهب الصوباشى المذكور على منزل إبراهيم الحلوانى الذى أشهر سكيناً بيده فى وجه الصوباشى ثم فر هارباً فتبعه الصوباشى فتسلق فى حائط مكان جارة إلى أعلاها وألقى بنفسه والسكّينة مشهورة بيده فنزل عليها وعلى مجاديل من الحجر[١]. وتشير هذه الواقعة إلى مدى حرص الصوباشى على حفظ الأمن مهما عرضه ذلك للخطر. بل وأبعد من ذلك فقد تعرض من قبل الصوباشى حسن عام ١٠٥٧هـ/١٦٤٧م للقتل المؤكد فى الواقعة التى حدثت فى ٢٠ ربيع الأول من نفس السنة، عندما أخبره جماعة من الناس بوجود عدة أنفار يتخفون فى زى جماعة الينكجرية المحافظين بمصر القديمة ويدّعون ذلك كذباً ومعهم البنادق والسيوف ونزلوا بمنطقة الخلاء والكيمان بدرك مصر القديمة وأخذوا يتعرضون للناس ويقطعون عليهم الطريق، فلما أدركهم الصوباشى المذكور وكانت معهم امرأة تستغيث دون جدوى، فهددوا الأمير حسن هذا بقتل هذه المرأة إذا اقترب منهم، بل قام أحدهم بالفعل بإطلاق النيران عليه ولكن لم يصب الأمير، واستطاع أن يقبض عليهم ويطلق سراح المرأة[٢].

ولم تقتصر مهام زعيم مصر القديمة على عملية حفظ الأمن فقط بل تعدتها إلى وظائف أخرى كان يكلف بها من قِبل الإدارة العثمانية، فقد صدر بيورلدى شريف من والى مصر عبد الرحمن باشا فى ٢٩ رجب ١٠٦٢هـ/١٦٥٢م فى خصوص الحطب المعين برسم الفرن والمطبخ بالديوان الشريف، وهو موجه لكل من حسن كتخذا أمين البحرين حالاً والأمير بهرام شربجى والأمير سليمان زعيم مصر القديمة حالاً وغيرهم. وعليهم كفاية المطبخ والفرن المشار إليهما من الحطب على طول الشهر فجاء على الأمير سليمان كفاية ثلاثة أيام فى كل شهر[٣]. وكان الأمير سليمان أيضاً – الذى ذكرنا إنه أنشط زعماء مصر القديمة – بجانب أعباء الصوباشية وكفاية المطبخ والفرن السلطانى كان أميناً على السواقى

---

[١] محكمة مصر القديمة: س١٠٤، م٢٣١٣، ص١٦٣٥

[٢] دشت ١٦٦ لسنة ١٠٥٧هـ، ص ص٩، ١٠

[٣] محكمة مصر القديمة: س١٠١، م١٢٠٥، ص٤٦٧

السلطانية يرعى شئونها المختلفة من ضمان توفير الأعلاف اللازمة لأثوار هـــذه السـواقى وسير عملية الدولبة ودوران السواقى دون عجز أو تقصير[١].

ولكن لا يعنى كل ذلك أن الصوباشى يقوم بعمله على أكمل وجه دون تقصير، فقـــد ثبت أن بعضهم غير مؤهل لهذا المنصب. فقد حضر مجموعة من أصحاب الحوانيت بــــدار النحاس إلى القاضى الحنفى وأخبروه أنه فى منتصف ليلة ٢٦ رمضان ١٠٥٨هـــــ/١٦٤٨م حضر جماعة من اللصوص إلى خط دار النحاس المذكور ومعهم الأسـلحة وتعـدوا علــى حوانيتهم وكسروا أبوابها وأخذوا ما فيها من البضائع والودائع والدراهم دون أن يمنعهم أحــد لأنه فى هذه الليلة كان الأمير محمود الصوباشى آنذاك غائباً، وأخبروا إنــــه " فــى غـالب الأوقات يترك البلدة المذكورة ويتوجه إلى منزله الكائن بمصر المحروسة وينام ويترك الدرك من غير أحد يحفظه وإنه فى الليلة المذكورة كان غايباً عن البلدة ولم يكن فيها أحـــد يحفـظ الدرك والرعايا والمسلمين..... "[٢].

وكذلك حضر للقاضى الحنفى – الحاج على البديوى القللى بخط فم الخليج[*] وأخـبره إنه فى ليلة ١٣ ذى الحجة ١٠٧٣هـــ/١٦٦٣م تعدى اللصوص على فواخيره المعدة لصناعـة القلل الكاينة بالكيزانية وكسروا ما بها من القلل المصنوعة وحصل له بذلك غايـــة الضـــرر، وأعلن أن سبب ذلك هو الأمير أحمد صوباشى مصر القديمة الآن يأخذ من أصحاب الفواخير الخفراء ولم يتقيد بحفظ دركه ولا يدفع الضرر عن الرعايا والمسلمين، ولم يخفر عليهم ليــلاً أو نهاراً[٣].

على أية حال كان لزعيم مصر القديمة مساعدون له يعاونونه فى القيام بعملية حفـــظ الأمن وإدارتها داخل المدينة. فكان هناك الخفراء والحرس والبوابين على الحارات، إضافـــة

---

[١] محكمة مصر القديمة: س١٠٣، م١٩٥، ص٨٤ لسنة ١٠٧٧هـ

[٢] محكمة مصر القديمة: س١٠١، م٣٩٢، ص١٤٥

[*] انظر: الفصل الرابع حول تجارة الشيخ على البديوى هذا

[٣] محكمة مصر القديمة: س١٠٢، م١٨٤٢، ص٦٩٦

إلى طائفة الينكجرية المحافظين الذين يصحبون الصوباشى فى جولاته الليليـــة. أمــا أمنـــاء الأدراك فهم الساعد الأيمن للصوباشى ورجاله الذين يعتمد عليهم فى ســـير حركـــة الأمـــن وضمان استقرار الأمور. وقد قسمت مصر القديمة إلى عدة أدراك مثل (درك حمام جمّدار – درك دار النحاس – درك السبع سقايات – درك الشونة الشريفة – درك فــم الخليــج – درك درب السيدة زينب) ولا يعنى أن عدم ذكر مناطق معينة بمصر القديمة ضمن نطاق الـــدرك أنها بعيدة عن يد الصوباشى واهتمامه، فمثلاً منطقة الروضة كانت محط اهتمـــام وجـــولات لرجال الأمن، وكذلك منطقة كوم الجارح والقصر العينى وغيرها من مناطق المدينة. وكـــان الحاكم الشرعى هو الذى يقوم بتعيين مقدمى الأدراك وعزلهم إذا رأى فيهم تقصير ويشـــترط فيهم تدينهم واستقامتهم ورضا الناس عنهم[١].

وكان الأفراد يأتون إلى القاضى ليعلنوا رغبتهم فى أن يكونوا مقدمـــى درك معيـــن. فإذا رأى فيهم القاضى أهلية ذلك يتم اختيارهم مع تحديد حدود دركهم، ففى ٨ شـــوال عـــام ١٠١٨هـ/١٦٠٨م سأل كل من نور الدين بن حسين وعامر بن أحمد بن عبد الله المحـــلاوى الحاكم الحنفى أن يكونا أصحاب درك الشون الشريفة وحمام جمـــدار علـــى حكـــم الحـــدود المعينين بها، واشترط عليهم القاضى تكفية الدرك من حيث حفظ الأمـــن وإغاثـــة الملـــهوف وإطفاء الحريق .... إلخ[٢]. وتذكر الوثائق وجود مقدمى أدراك بالمدينة وهـــم فـــى الأصـــل ليسوا من أهلها، فقد تولى خضر بن حامد بن سلامة من كوم البدارى بأبى تيـــج أمانـــة درك دار النحاس عام ١٠١٨هـ[٣]. وكذلك جعفر بن أبى الخير وعبد الرحمن بن نصار من أهالى ناحية دير الطين والمحترم نصار ابن محمد الفيومى، رغب كل منهم أن يكون مقدماً بـــدرك حمام جمدار من ابتداء حدوده إلى نهايتها أى من القبو المعروف بالمرحوم القـــاضى جـــابر قديماً إلى الطريق الفاصل بين الجنينة المعروفة بجنينة ياسين وبين الجميزة المحروقة التـــى هناك والتزم كل منهم بتكفية الدرك برجال يحفظونه بأسلحتهم، ومهما ضاع من دركهم فـــى

---

[١] عبد الحميد حامد سليمان: المرجع السابق، ص١٢٩

[٢] محكمة مصر القديمة: س٩٨، م٣٧٤، ص١٠٥

[٣] نفســـه: م٢٠٣، ص٥٤

زمن ولاياتهم كان عليهم القيام بنظيره من مالهم[1]. وتذكر نفس الوثيقة أن هؤلاء الأمناء قد تولوا هذا الدرك لمدة سنة كاملة تبدأ من شهر شوال ١٠٧٠هـ/١٦٦٠م وحتى شهر ربيع الأول سنة ١٠٧١هـ/١٦٦١م واشترط عليهم دفع مبلغ من المال نظير تعاطيهم أمانة الدرك المذكور فى السنة المذكورة، وقد اختلفت قيمة المبلغ المدفوع فى نصف السنة الأول عن الثانى، فقد دفعوا فى النصف الأول (من ابتداء شهر شوال حتى شهر ربيع الأول) ٨١ قرشا فى الشهر أى٨١ نصف فضة فى اليوم، أما فى النصف الثانى (من ابتداء ربيع الآخر حتى نهاية شهر رمضان) ٦١ قرشا فى الشهر أى ٦١ نصف فضة فى اليوم. ربما يعود الانخفاض فى الأسعار إلى الأزمات المالية التى حدثت فى هذه السنة. وعموما قام هؤلاء بدفع هذا المبلغ للأمير مصطفى زعيم مصر القديمة آنذاك على حكم العوايد الجارية[2]. وأحيانا يقوم مقدم الدرك بدفع مبلغ كنوع من الغرامة إذا تغيب عن دركه أو تركه قبل المدة المحددة. ففى وثيقة مؤرخة فى ٢٣ جمادى الأول ١٠٢٠هـ/١٦١٠م أشهد على نفسه أحمد بن صالح بن أحمد مقدم درك شونة الغلال بمصر القديمة إنه متى تغيب عن الدرك المذكور وتركه كان عليه القيام بدفع ٥٠ دينارا من ماله للزينى محرم صوباشى مصر القديمة وقتئذ[3].

وسجلات المحاكم الشرعية تؤكد الدور الفعال الذى قام به أمناء الإدراك فى مصر القديمة خلال القرن، فكانوا خير معين للصوباشى ولدينا العديد من الأمثلة التى تبرهن على ذلك، فعندما ادعت السيدة خطيطه بنت على بأن باب منزلها قد خلع فى نهار ٢٥ ربيع الأول ١٠٢١هـ/١٦١١م وضاع لها كساة صوف ثمنها خمسة دنانير، أخبر جار لها يدعى عبد الحق بن غراب وجد عبدا أسودا لا يعرفه يحمل المكساة الصوف بالسبع سقايات، فلما أراد أن يقبض عليه فر هاربا، فرجع و أخبر مقدم درك السبع سقايات ويدعى " المقدم قباله " الذى

---

[1] محكمة مصر القديمة: س١٠٢، م٨٣١، ص٢٨٨ لسنة ١٠٧٠هـ

[2] محكمة مصر القديمة: س١٠٢، م٨٣١، ص٢٨٨

[3] محكمة مصر القديمة: س٩٨، م١٣٥٣، ص٣٧٤

استطاع أن يقبض عليه ويحضره إلى الأمير حسن صوباشى مصر القديمة[١]. وفى منطقة فم الخليج مستودع صناعة القلل[*] حيث مسقط رأس الحاج على البديوى ومحمد النقيطى من كبار طائفة القللية فى المنطقة، رفع هؤلاء شكواهم إلى الحنفى ورجاله بالسرقات التى تحدث فى فواخيرهم الكائنة بالكيزانية فتارة يجدون تنوراً قد سرق وتارة يجدون آخر قد تحطم ولا يعرفون الفاعل، وفى ليلة ١٣ صفر ١٠٦٩هـ/١٦٥٩م لم يشعروا إلا ومقدم درك فم الخليج حضر إليهم ومعه رجل مقبوض عليه ويدعى رمضان بن رمضان من القاطنين بكوم الجراح ومعه بعض القلل، فلما استفسر منه القاضى الحنفى أخبره إنه "حضر ليلة تاريخه إلى الكيزانية وفتح فاخور الحاج على البديوى المرقوم وأخذ منها بعض من القلل وأراد التوجه فلم يشعر إلا ومقدم الدرك أوقع القبض عليه وإنه من الآن رجع عما كان فيه ولم يعد يفعل شيئاً من ذلك .... "[٢].

وإيماناً بأن لكل مهنة ضريبتها، تؤكد لنا بعض الوثائق هذا المثل الدارج، فقد دفع أحد مقدمى الدرك حياته ثمناً لتأدية الواجب المنوط به. فقد أخبر الأمير مصطفى زعيم مصر القديمة القاضى الحنفى بأن اللصوص فى خط فم الخليج قد قتلوا مقدم الدرك به ويدعى ناصر، وإنه عندما كشف عليه وبصحبته دواداره[**] الزينى دلاور تبين وجود ضربات سكين فى ضلوعه كانت سبباً فى حدوث الوفاة[٣].

---

[١] نفسه: م١٩٤٩، ص٥١٠

[*] راجع الفصل الثالث

[٢] محكمة مصر القديمة: س١٠٢، م٤٥٦، ص١٦٦

[**] الدوادار والدواندار من الكلمة العربية دواة والفارسية (دار) بمعنى الصاحب والقيم. وهى وظيفة قد أنشأها السلاجقة، وقال أحمد السعيد سليمان بوجود هذا المنصب فى الدولة العثمانية حيث كان بمثابة رئيس للكتاب وكان للنشانجى دويدار وفى الدفتردارية دويدار بالمالية. ولكنه لم يذكر وجود دويدار للصوباشى انظر: أحمد السعيد سليمان: تأصيل ما ورد فى الجبرتى من الدخيل، دار المعارف، ١٩٧٩، ص١٠٩-١١١

[٣] محكمة مصر القديمة: س١٠١، م٢٧٨، ص ص١٠٣، ١٠٤

د. المحتسب:

الحسبة من المناصب الدينية التى نشأت فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب وظلت قائمة تتناقلها الأجيال إيماناً بمدى الدور الهام الذى يلعبه المحتسب من رعاية الأسواق ومراقبة الموازين والمكاييل لمنع التزوير. وفى العصر العثمانى كان للحسبة ديوان خاص بها، وكان المحتسب بمصر القديمة يلتزم بدفع مبلغ شهرى لهذا الديوان وصل فى بعض الأوقات إلى نحو ٢٠٠ عثمانى فى الربع الأول من القرن السادس عشر قد التزم بدفعهم الحاج أبو الفتح بن كمال الدين المعروف بالحارثى المحتسب بمصر القديمة عام ٩٣١هـ/١٥٢٤م[١]. ولكن تؤكد الوثائق تضاعف هذا المبلغ بعد ذلك. ويعمل تحت يد المحتسب العديد من المباشرين والكتبة والنقباء، فقد تولى محمد بن المرحوم سليمان نقابة الحسبة بمصر القديمة منذ عام ١٠٥٤هـ/١٦٤٤م[٢].

وكان ديوان الحسبة الشريفة يصدر تسعيرة يحدد فيها أسعار البضائع والسلع المختلفة التى ترد فى الأسواق. وأحياناً كان المحتسب هو الذى يقوم بتسعير السلع والبضائع، ومن يخالف ما سعره يقع عليه التعزيز الواجب ويتم إشهار المناداة عليه[٣] على حد تعبير الوثائق.

وقد تمثلت موارد المحتسب فى الفرق بين ما يحصلونه من جهات مقاطعة الاحتساب، وكذلك من تركات الموتى (المواريث الحشرية) الذين لا وارث لهم، وكذلك يتقاضى رسوم لقاء تصحيح الموازين والمكاييل والمقاييس المتداولة فى الأسواق[٤].

وفى حقيقة الأمر أن ذكر أمين الحسبة بمصر القديمة خلال القرن السابع عشر كان قليلاً والمادة التى بين أيدينا فقيرة للغاية. ولكن هل هذه الأمور مدعاة لكى نهمل هذا الجانب

---

[١] دشت ٤، ص٤٦٣ لسنة ٩٣١هـ

[٢] محكمة مصر القديمة: س١٠٠، م٤٢٤، ص٢٠٩

[٣] محكمة الإسكندرية: س١٤٩، م١٩٩، ص٧٢ لسنة ١٠٥٣هـ

[٤] عبد الحميد حامد سليمان: المرجع السابق، ص١١٩

الهام ؟ وهل عدم ظهوره بكثرة على مسرح أحداث المدينة يعنى إنه كان مقصراً فى أداء وظيفته ؟ أم أن وظيفة الاحتساب فى حد ذاتها كانت مهملة ؟

من خلال دراسة الوثائق الخاصة بالمدينة تبين لنا أن أسواق مصر القديمة لاسيما أسواق حمام جمدار ودار النحاس وفم الخليج قد خضعت لإشراف أمناء الأدراك. صحيح إنه إشراف أمنى ولكنه أحياناً يتعدى هذه الصفة بتدخل كل من الحاكم الشرعى وكذلك الصوباشى والسادة المحافظين بمصر القديمة. حيث كان الصوباشى ينظم تجارة البطيخ والدار الخاصة بها قرب الآبار الشريفة لقاء تحصيل العوايد[1]. وكان الحاكم الشرعى يمنع الغش والاحتكار بين التجار، وكانت هذه أهم وظائف المحتسب، فقال الشيرزى وإذا رأى – يقصد المحتسب – أحداً احتكر الطعام من سائر الأقوات ألزمه بيعه إجباراً لأن الاحتكار حرام[2]. لذلك قام الحاكم الشرعى بمصر القديمة فى ضوء غياب دور المحتسب بمعاقبة تاجر بن حسن " المتسبب فى بيع العنب بمصر القديمة فى بداية القرن السابع عشر " عندما منعه من المشترين وراح يمنع الفقراء من تواصل الشراء، فضربه الحاكم على رجليه[3]. فالقاضى هنا ومعاونوه من رجال الأمن أمثال المحافظين وزعيم مصر القديمة كل هؤلاء قاموا بوظيفة المحتسب دون أن يلقبوا بها.

إذن أعمال الحسبة داخل مصر القديمة كانت تتم على قدمٍ وساق من خلال توافر هذه الكوادر التى عملت على تنظيمها بجانب نقيب حسبة المدينة الذى خضع خضوعاً مباشراً لديوان الحسبة الشريفة بمصر.

---

[1] محكمة مصر القديمة: س١٠١، م٢٧٦، ص١٠٣

[2] عبد الرحمن نصر الشيرزى: نهاية الرتبة فى طلب الحسبة. تحقيق السيد الباز العرينى، ط٢، دار الثقافة، ١٩٨١، ص١٢

[3] محكمة مصر القديمة: س٩٨، م٦٨٧، ص٢٠٠

ثانياً: الإدارة الماليــة:

عندما فتح سليم الأول مصر رتب لها إيرادات وعوائد معلومة بحيث أصبح لمصــــر إدارة مالية دقيقة اشترك فى إدارتها الديوان الدفترى وديوان الروزنامة وفريق مــــن رجــال الحامية العثمانية وجاءت هذه الإيرادات من الأراضى الزراعية والجمارك بطريق الالـــتزام خاصة ديوان جمرك (الإسكندرية – رشيد – دمياط – بولاق – مصر القديمة) وعوائد علـــى أمين البحرين وأمين الخردة[*] وأرباب المناصب وغيرها. كل هـــذه الضرائـــب تجمـــع ثـــم تصرف فى الوجوه المخصصة لها، وما يتبقى يرسل لخزينة السلطان.

إذن يعتبر الديوان الدفترى وديوان الروزنامة هما أساس الإدارة المالية لمصـــر فـــى العصر العثمانى، فكان الديوان الدفترى بمثابة ديوان المالية يرأســـه الدفـــتردار أى صـــاحب الشئون المالية وهو فى العادة من السناجق المصريين، ومهمته الإشراف المالى على شـــئون الولاية وتحصيل أموالها. أما ديوان الروزنامة كان تابعاً للديوان الدفـــترى ومهمتـــه جمـــع الأموال الأميرية وصرفها فى مصاريفها المختلفة، ويعمل فيه مجموعـــة مـــن الأفنديـــة أى الكُتاب[١].

أما فى مصر القديمة فقد كان بها – كما ذكرنا – ديوان جمرك (ديـــوان الموجبـــات) إضافة إلى ميرى الشونة الشريفة يمثلان – مع أوجه المصروفات المختلفة – حجر الزاويـــة فى مالية مصر القديمة فترة القرن السابع عشر.

(*) الخردة: مجموعة ضرائب متنوعة تفرض على " العوالم " و " أصحاب الألاعيب " – وعن الخردة وسبب ميرى أميـــن الخردة. انظر: حسين أفندى الرزنامجى: ترتيب الديار المصريـــــتز مجلـــة كليـــة الآداب، مجلـــد ٤ ، ج٢، ١٩٣٦ ،ص٥٦ – السؤال الرابع عشر .

(١) حسن عثمان: مصر فى العهد العثمانى فى المجمل فى التاريخ، ط١ ، القاهرة، ١٩٤٢، ص ص٢٦٠، ٢٦١

ه. جمرك مصر القديمة:

يعود إنشاء هذا الجمرك إلى زمن السلطان سليمان القانوني، الذى قام بإنشاء أربعة جمارك رئيسية فى مصر كما ذكرناهم فى بداية الإدارة المالية، وقد ارتبط جمرك بولاق ومصر القديمة معاً[1]. ومنذ ذلك الوقت وأصبحت العوايد أو الموجبات المفروضة على جمرك مصر القديمة لصالح خزينة مصر مرتبطة مع جمرك بولاق وقد أسمتها سجلات الروزنامة بإسم (أسكلة بولاق ومصر قديم وتوابعها).

وكان يدير هذا الجمرك أحياناً ملتزم يهودى مهمته تحصيل الرسوم على البضائع الواردة من نواحى الوجه القبلى أو البحرى أو حتى البضائع القادمة من الجزيرة العربية والهند وغيرها[*] يعاونه فى ذلك عدد من المباشرين والكتبة والعدادين والكشاف، فمثلاً قام المعلم موسى اليهودى – الملتزم بديوان مصر القديمة عام ١٠٥٦هـ/١٦٤٦م – بتحصيل نحو ستة آلاف نصف فضة متأخرة على المركب القياسة البنوانى التى بسنة وهى ضمن أملاك الأمير سليمان صوباشى مصر القديمة آنذاك[2].

وغير خافٍ أن أمير البحرين (بحر بولاق – بحر مصر القديمة) وجماعته من معرفين الميناء كان لهم الدور البارز فى تسهيل مهمة الملتزم على الجمرك وكذلك نظيره على شونة الغلال. وتذكر سجلات المحاكم الشرعية أسماء بعض العدادين والكشافة بهذا الجمرك، مثل الحاج جاد الله بن منصور الشهير بظلام ويرجح أنه تولى هذه الوظيفة من عام

---

(1) إستيف: وصف مصر، ج٥، ط١، مكتبة الخانجي ١٩٧٩، ص١٢٣

(*) حيث كانت هناك علاقات تجارية للمدينة مع هذه البلدان. وللمزيد انظر: الفصل الرابع.

(2) محكمة مصر القديمة: س١٠٠، م٦١٧، ص ص٢٩٩، ٣٠٠ – ويؤكد فولنى بالفعل أن الجمارك قد تولى أمرها اليهود وفقا لعادة قديمة، ولكن على بيك الكبير خلعهم منها عام ١١٨٣هـ/١٧٦٩م وآل أمر الجمرك إلى مسيحى سوريا. انظر: فولنى: ثلاث أعوام فى مصر وبر الشام. ترجمة إدوارد البستانى، منشورات دار المكشوف، ط٢، بيروت ١٩٤٩، ص١٤٥

١٠٨٩هـ/١٦٧٨م حتى عام ١٠٩٤هـ/١٦٨٢م[١]. وكان المحترم إبراهيم بن سلطان الزيات بحمام جمدار من أشهر كشافى هذا الجمرك عام ١٠٨٧هـ/١٦٧٦م [٢].

وكان على ملتزم الجمرك أداء ما هو مفروض من ضرائب على ديوان جمرك مصر القديمة وعلى الوارد من بضائع وحبوب قادمة من الوجه القبلى أو غيره، وإذا ثبت وقوع أى تعسف أو جور تجاه بعض التجار اتخذ الصوباشى والمحافظ وكذلك الحاكم الشرعى ما يجب عمله فى مثل هذه الحالات[٣]. وفى ذى القعدة ١٠٩٩هـ/١٦٨٧م ورد بيورلدى شريف فى خصوص " **جميع ما ورد من الوجه القبلى من الصوف لجمرك ديوان مصر القديمة يسددوا ما على ذلك حكم القوانين السالفة فى ذلك من غير معارضة فى ذلك ....** "[٤].

ولطائفة العسكرية بمصر المحمية مميزات عديدة لدى الجمارك حيث لا تفرض رسوم على بضائعهم عند مرورها بالجمرك فى مصر القديمة وغيره بناء على البيورلدى الصادر عام ١٠٩٢هـ/١٦٨١م من قبل الباشا جاء فيه " لنايب بولاق ومصر القديمة وجامع الحاكم بمصر المحروسة فى خصوص المنع لم تتعرض لطايفة العسكرية بمصر المحمية وعوائد الجمرك السلطانى بالمحلات المذكورة أن لا أحد يتعرض لمن يحضر شيئاً من الذخيرة لمنزله من الوجه القبلى أو الوجه البحرى من السمن والعسل والفراخ والغنم وغير ذلك مما يتعلق بذخيرة البيت ....."[٥].

---

[١] محكمة مصر القديمة: س١٠٤، م٢١٠٤، ص١٥٦٥ وكذلك س١٠٥، م٦٣٧، ص٢٠٨

[٢] نفسه: م١٧٣٦، ص١٤٤٣

[٣] محكمة مصر القديمة: س١٠٣، م٩٩٢، ص٦١٥

[٤] محكمة مصر القديمة: س١٠٥، م٣٠٧٨، ص٣٤٥ ، وقد تحدث Conbe أيضاً عن جمرك البهار الذى يقع على الطريق الصحراوى بين القاهرة والسويس ويرى أن جمرك مصر القديمة على ساحل أثر النبى تابعاً لجمرك البهار هذا.

Etienne Conbe: L'Egypt Ottomane De La Conquete For Selim (1517) A L' Arriree De Ponaparte (1798) p88

[٥] محكمة مصر القديمة: س١٠٤، م٢٤٣١، ص١٦٧٨

وكان جمرك البهار الواقع على الطريق الصحراوى بين القاهرة والسويس من أعظم الجمارك التى تستقبل بضائع الجزيرة العربية لنقلها الى جمارك مصر المختلفة فى الموانى النيلية وغيرها، هذه الموانى التى تقوم بدورها بنقل هذه البضائع الى جهات مصر سواء الوجه القبلى أو البحرى بناء على الأوامر الشريفة، فمن هذه بيورلدى شريف صادر فى ٩ صفر ١٠٩٢هـ/ ١٦٨١م من الباشا على يد تابعه فخر الأغوات درش أغا جاء فيه " خطاباً لنايب مصر القديمة وسردار والسفجيه وأمين الجمرك أن فى هذه السنة لها ورد من الحاج الشريف من أحمال متعلقة بجمرك البهار من قماش وبن وبهار وغير ذلك إذ لا أحد يختلف من التوجه بذلك إلى جهة الوجه القبلى أو غيره مما لم يكن بيده إذن وكل من عاند أو خالف فى ذلك فلا يلومون إلا أنفسهم..... [١].

وقد فرضت الرسوم والضرائب على واردات البن لحساب الباشا، وقد أشرف عليها ديوان البهار المذكور[٢].

و. الإيرادات والمصروفات

أ. الإيـــرادات:

تمثلت إيرادات مصر القديمة فى واجب الغلال المفروض على بعض المناطق فى الوجهين القبلى والبحرى لصالح شونة الغلال بمصر القديمة، وقد رأينا العديد من المراكب سواء أكانت مراكب سلطانية أو مراكب تجار قد كتبت عليها " رسالة " بضرورة إحضار الغلال لجهة الشونة نظير عوايد محددة[٣]. لذلك كانت إيرادات شونة الغلال بالطبع إيرادات عينية.

---

[١] محكمة مصر القديمة: س١٠٥، م٧٠، ص٢٦

[٢] عبد الحميد حامد سليمان: الرسوم الجمركية على البن فى مصر فى القرنين ١٧، ١٨ الميلاديين، بحث مقدم فى المؤتمر الدولى المنعقد فى الفترة من ٨-١١ أكتوبر ١٩٩٧، مونبلييه – فرنسا، ص٤

[٣] انظر: الفصل الرابع عن الجزء الخاص بالشونة.

أما عن أهم إيرادات مصر القديمة فقد تمثلت فى الموجب المتحصـــل من الجمـــارك ونشير لها بـــ " قلم شهر ". فقد كان لأسكلة مصر القديمة إيرادات ضخمة قد تم تسجيلها فـــى دفاتر الروزنامة، والتى يرى بعض المؤرخين أن أولى السنوات التى سجلت إيـــرادات هـــذه الجمارك هى سنة ١٠٨٨هـــ/١٦٧٧م، ولكن بعد مجهودٍ مضنٍ وسط سجلات الروزنامة هـــذه التى تفتقد إلى الفهرسة الجيدة عثرنا على سجلات ودفاتر أسكلة يعـــود تأريخـــها إلـــى عـــام ١٠٣٣هـــ/١٦٢٢م وليس بعد ذلك[1].

فتوضح لنا هذه الدفاتر المال المتحصل لدى جمرك مصر القديمة مع جمرك بـــولاق وتوابعهما نظراً لخضوع هذين الجمركين لملتزمٍ واحد تبعاً للتنظيم الإدارى والمالى المعمـــول به آنذاك، وأغلب ملتزمى هذا الجمرك من اليهود وشاركهم فى بعض السنوات عناصر أخرى من الأوجاقات العثمانية. وقد اخترنا نماذج لبعض السنوات التى ســـجلت فيـــها متحصـــلات الجمرك، فمنها:

---

[1] وقد قمنا بنشر بعض أصول هذا الدفتر فى ملحق رقم (١)، ص١٩٠

السـنة	المال المفروض فيها
١٠٣٣ هـ	٢٢٥٠٠٠ بارة
١٠٣٤	٢١٣٠٠٠ بارة = وردت فى عدة أقساط
١٠٣٤	١٧٣٧٠٠٠ – وردت فى عدة أقساط منـها عوايد جمرك سكر
١٠٣٥ – ١٠٣٦	٨٢١٣٣٠ بارة
١٠٣٧	٢٠٠٠٠٠ بارة
١٠٣٨	٢٠٠٠٠٠
١٠٣٩	٤٨٤٤٠٧ بارة
١٠٤٠	٢٠٠٠٠٠ بارة
١٠٤١	١١٠٠٠٠ بارة
١٠٤٢	٢٦٧٥٧٩٦ بارة
١٠٤٣ – ١٠٤٤	٨٢٢٤٠٢ بارة [1]

ونلاحظ على الجدول السابق الذى يعتبر كنموذج أنه فى بداية السنوات كـان إلـتزم الجمرك موكلاً لشخص يهودى ثم بعد ذلك تولى شخص آخر منذ عام ١٠٣٩ هـ وهو قاسم أغا. وأيضاً وجدنا بعض السنوات قد ارتفع الموجب بها وجاء ذلك مرهوناً بحركـة التجـارة وكميات الوارد إليها، وسنوات أخرى ظهرت ضعيفة بالمقارنة بغيرها. ولم يستطع الجمـرك تسديد ما هو مقرر عليه فى السنة مرة واحدة لجهة الخزينة المصرية، حيث كان يسدد علـى عدة أقساط فى فترات متساوية متفق عليها بين ملتزم الجمرك بمصر القديمة وأمين الخزينـة المصرية. بل إن بعض السنوات لم يرسل فيها جمرك مصر القديمة أمـوالاً للخزينـة مثـل

[1] دفتر مال الأسكلات ومقاطعات. بنفس المحروسة – قلم شهر ١٠٣٦هـ ، عين ٥٣، مخزن تركـى ١، رقـم الحفـظ النوعى ١، مسلسل عمومى ٤١٣٩

أعوام " ١٠٤٥ / ١٠٤٦ / ١٠٨٤ هـ " رغم أن هذه السنوات قد استبعدت من وقوع أى أزمات أو طواعين بها[١].

وإذا أخذنا عدة سنوات على سبيل المثال فى النصف الثانى من القرن ١٧ لنوضح منحنى قيمة إيرادات جمرك مصر القديمة.

السنة بالهجرى	السنة بالميلادى	الإيرادات
١٠٨٨	١٦٧٧	٣٦٦٧ بارة[٢]
١٠٨٩	١٦٧٨	٣٦٦٧ بارة[٣]
١٠٩٤	١٦٨٣	٥٦٧٣٦٠ بارة
١١٠٣	١٦٩١	٥٦٧٢٦٠ بارة
١١٠٥	١٦٩٣	٥٦٧٢٦٠ بارة[٤]
١١٠٩	١٦٩٧	٤٣٦٦٧ بارة[٥]

نلاحظ هنا تفاوتاً بين بعض السنوات كما فى عام ١٠٨٨هـ وعام ١٠٨٩هـ الذى سجل كل عام فيهما ٣٦٦٧ بارة، فى حين سجل عام ١١٠٥هـ نحو ٥٦٧٢٦٠ بارة وهو رقم مرتفع بالمقارنة بسابقيه. وفى نفس الوقت تساوى هذا العام فى إيراداته مع عام ١١٠٣هـ الذى سجل هو الآخر نحو ٥٦٧٢٦٠ بارة.

---

[١] راجع: ناصر أحمد إبراهيم: المرجع السابق، ص٤ وما بعدها

[٢] دفتر أصول مال جمارك ومقاطعات ومال أسكلة ومقاطعات قلم شهر در واجب ١٠٨٨هـ، مخزن تركى ١، رقم الحفظ النوعى ٢، مسلسل عمومى ٤١٤٠

[٣] دفتر أصول مال أسكلة ومقاطعات قلم شهر در واجب ١٠٨٩هـ، مخزن تركى ١، رقم الحفظ النوعى ٣، مسلسل عمومى ٤١٤١

[٤] دفتر أصول مال أسكلة ومقاطعات، عين ٥٣، مخزن تركى ١، رقم الحفظ ٧، عمومى ٤١٤٥

[٥] دفتر إيرادات الجمارك (مقاطعة أسكلة بولاق ومصر القديمة) لسنة ١١٠٩هـ ، عين ٥٣، مخزن تركى ١، رقم الحفظ النوعى ١١، مسلسل عمومى ٤١٤٩

أما إذا حاولنا أن نعقد مقارنة بين إيرادات الجمرك فى النصف الأول من القرن مع النصف الثانى من خلال كلا الجدولين السابقين نلاحظ أنه لم تكن هناك قاعدة ثابتة، فهناك سنوات فى النصف الأول مثلاً (عام ١٠٣٣هـ) قد سجلت نحو ٢٢٥٠٠٠ بارة وهى نسبة مرتفعة عجزت بعض سنوات النصف الثانى أن تسجلها والعكس صحيح تماماً والأمثلة على ذلك كثيرة.

ب. المصروفات:

تعددت أوجه المصروفات والتى نشير لها بـ " قلم المحاسبة ". وهى المرتبات (السالينات) التى تخرج لموظفى المدينة داخل الجمرك ذاته أو موظفى الشونة الشريفة والسواقى السلطانية والعلماء والمشايخ .... إلخ، وأيضاً هناك عادات مثل طبخ اللحم الضانى والمطبخ العامر ولدينا الأمثلة العديدة على ذلك:

- تنظيف المقياس الشريف بمصر القديمة ١٠٠٠ بارة.
- عادات مرتب زاوية الشيخ شهاب الدين المجذوب ١٠٠ بارة.
- براى علف أثوار سواقى ١٠٠٠٠ بارة.
- مرتب مقرئين بالمقياس الشريف ليلة وفاء النيل ٣٥٠ بارة.
- مرتب تصوف براى علما عظام ومشايخ كرام ١٣٥٦٠٠ بارة.
- مرتب كسوة أيتام ٢٥٠ بارة[١]

وكذلك لدينا العديد من الأمثلة التى تحدد الإيرادات والمصروفات بالجمرك ثم بعد ذلك جمعها فى السنة المالية كما يحددها ملتزم الجمرك بدفاتر يده.

فقد أورد محمد جوربجى ملتزم أسكلة بولاق ومصر القديمة وخضرا وتوابعهم عام ١٠٩٤هـ/١٦٨٣م مال المقاطعة من إيرادات ومصروفات لهذه السنة، مع إسقاط مرتبات

---

[١] دفتر مال وارد إلى الخزينة العامرة من أقلام سنة ١١١١هـ، عين ٢٩ ،مخزن تركى ١، رقم الحفظ ٩ ، مسلسل ٢١١١

علماء عظام ومشايخ كرام، ولحم ضانى ومطبخ عامرة، وكذلك جلود خام وكاد سالم، مع ميرى وإنفاق جمرك سكر ميرى صالح. فجاءت القائمة كالآتى:

٥٦٧٣٦٠ قلم شهر

١٣٨٥٤٩

٦٩٥٨٠٩ بارة[1]

وفى نفس السنة أيضا وردت محاسبة (مصروفات) تم إسقاط مرتبات العلماء والمشايخ من القائمة التى احتوتها، فجاءت بالشكل التالى:

٣٥٠٣٨٠

٠٠٦١٠٦

٢٤٤٢٧٤ نقدية

كيس	كسور[2]
٩	١٩٢٧٤

واخترنا نموذجا آخر وهو عام ١١٠٥هـ/١٦٩٣م، وهو المحاسبة التى وردت بدفتر أحمد كتخذا ملتزم أسكلة بولاق ومصر القديمة وخضرا ودباغ خانة وتوابعها، وأورد فيها إسقاط ومرتبات العلماء واللحوم كالعادة، وبدأت هذه المحاسبة فى ٤ محرم ١١٠٥هـ وجاءت كالآتى:

٥٨١٤٤٠

١٤١٨٠

٥٦٧٢٦٠ نقدية

---

(1) دفتر مقاطعة احتساب باب الأوجاقات بإسكندرية وبولاق وتوابعها، عين ١٧، مخزن تركى ١، رقم الحفظ النوعى ١٠، مسلسل عمومى ٥٢٥٣

(2) دفتر مقاطعة احتساب باب الأوجاقات بإسكندرية وبولاق وتوابعها، عين ١٧، مخزن تركى ١، رقم الحفظ النوعى ١٠، مسلسل عمومى ٥٢٥٣

كيس	كسور
٢٢	١٧٢٦٠

وفى نفس السنة جاءت محاسبة خاصة باللحم الضانى بهدف إجراء عملية الطـــهى، فكانت:

١٣٠٠٠٠

٠٠٣١٧٠

١٢٦٨٣٠ نقدية

كيس	كسور[1]
٥	١٨٣٠

على أية حال تعتبر هذه النماذج التى اعتمدنا عليها لتوضيح مالية المدينة (الإيـرادات – المصروفات) مع الفائض منها والذى يذهب إلى خزينة الدولة، هى فـــى حقيقتـــها أرقـــام توضح واقع أحوال المدينة المالية خلال القرن السابع عشر، ليس هذا فحسب بل أيضا ماليـــة مصر بأسرها، والتى أظهرت لنا فى بعض المواضع وجود عدة سنوات قد حدث بـــها خلـــل أصاب المالية بأزمات أعجزتها عن الوفاء بالتزاماتها. الأمر الذى يحتاج إلى إصلاح مـــالى جذرى لا يتأتى إلا من خلال شعور الباشا بذلك وعليه إحداث إصلاح فورى حتـــى تتجنـــب مصر حدوث أزمة اقتصادية، وعلى سبيل المثال ما قام به إسماعيل باشا عندما رأى عجـــز المالية المصرية وحدوث أزمة اقتصادية طاحنة بها، فقـــام بـــإحداث إصـــلاح مـــالى عـــام ١١٠٧هـ/١٦٩٤م[2]

---

[1] دفتر أصول مال أسكلة ومقاطعات، عين ٥٣، مخزن تركى ١، رقم الحفظ ٧، مسلسل عمومى ٤١٤٥

[2] لقد عثر عبد الحميد حامد سليمان على دفتر فريد من نوعه يوضح الإصلاح المالى الذى قام به إسماعيل باشـــا عـــام ١١٠٧هـ/١٦٩٤م. وهو دفتر إجمالى وترتيب زيادة مضاف للميرى من غير مضافات إنكسار الخزينـــة العـــامرة لأجل مساعدة انكسار ولاية محروسة مصر فى زمن حضرة إسماعيل باشا محافظ ولاية مصر ســـنة ١١٠٧هـــ، ويقع هذا السجل فى عين ٢٤، مخزن تركى ١، رقم الحفظ ٥٠، المسلسل النوعى ٥٠

الفصـــل الثالث

الزراعــــة والصنـــــاعة

الزراعة والصناعة

أولاً: الزراعة:

مصر بلد زراعى منذ فجر التاريخ، وهذه حقيقة قد تبلورت فى فكر ووجدان المصريين منذ عهد الفراعنة وإلى وقت قريب وقد تجسدت هذه الحقيقة أيضاً حول نهر النيل شريان الحياة فى مصر وأساس الزراعة بها حتى عبده المصريون القدماء بإعتباره إلهاً للخير فأطلقوا عليه اسم " الإله حابى Hapi ". ولأهمية هذا النهر العظيم نسجت حوله الأقاويل وذكرته العديد من الحضارات فيذكر فى قاموس الجغرافيا عند اليونان والرومان أن كلمة (نيلوس Nilus) من أصل عبرى وربما إنتقلت إلى الإغريق عن طريق الفينيقيين كما أن العبرانيين أطلقوا على النيل اسم (نهال مصرايم Nahal Misraim) أى نيل مصر[١].

وظل النيل هكذا محط إهتمام المصريين وحكامهم عبر فترات التاريخ المختلفة لما سبروا أهميته، فأقاموا عليه المقاييس لمعرفة أوقات الفيضان والتحاريف. ولوحظ أن ماء النيل لا تتعفن أبداً، ولا تظهر عليه أية علامة من علامات التخمر، ويمكن التأكد من هذه الحقيقة من خلال البحيرات العديدة المنتشرة حول القاهرة الكبرى وتتغذى على مياهه[٢].

وما أن وطأت أقدام العثمانيين أرض مصر حتى شرع سليم الأول فى جمع بعض المعلومات عن أحوال مصر الزراعية، وأمر بمسح أراضى بعض المديريات مثل الشرقية والغربية. فكانت الزراعة موضع اهتمام العثمانيين ومصدراً أساسياً للخزينة المصرية ولغلال السلطنة الشريفة – كما سنرى فى الفصل التالى – فانتشرت زراعة القمح والشعير والفول وأحياناً الذرة إضافة إلى زراعة الخضر والفاكهة مثل الكمثرى والبطيخ والمشمش

---

[١] أبو اليسر فرج: النيل فى المصادر الإغريقية. مؤسسة عين للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية، ط١، ١٩٩٥، ص ص ٥٦، ٥٧

[٢] جون انتيس: مذكرات رحالة عن المصريين فى الربع الأخير من القرن ١٨ (١٧٧٠-١٧٨٢)، ترجمة سيد الناصرى، ص٦٨

والخيارشنبر والسنامكى (السنا المكى) والفاصوليا واللوبيا التى انتشرت فى عدة مناطق وعنها يقول Antonius Gonzales الذى زار مصر فى الفترة (١٦٦٥-١٦٦٦م) أن القنصلية الهولندية بالقاهرة أعطته خطاباً من مدرس فى جامعة ليد L'universite de Leyde يطلب منه إرسال معلومات كافية عن محصول اللوبيا المصرية. وبالفعل توصل إلى معلومات تفيد انتشار اللوبيا فى عدة أماكن فى مصر حيث أن مكان وطقس مصر مناسب لزراعة اللوبيا التى تأخذ أشكالاً كبيرة وصغيرة من اللوبيا الرومانية Les Haricots Romains على حد قوله[١].

أما فى مدينة مصر القديمة فقد انتشرت الزراعة فى عدة مناطق منها بفضل اهتمام الإدارة العثمانية ووفرة وسائل الرى بها – ولكن لنا أن نتساءل ما هى نظم الزراعة والرى بها ؟ وما علاقاتها مع أشكال الحيازة ونظام الإلتزام ؟

نظم الرى والزراعة:

لقد انتشرت الزراعة فى عدة مناطق متفرقة بمصر القديمة ولقيت نجاحاً بفضل خبرة جماعة الغيطانية(*) الذين ظهروا فى عدة مناطق منها ولاسيما خط السبع سقايات يتزعمهم شيخ، تسميه الوثائق " شيخ طائفة الغيطانية " والتى قد يتولاها شخصان فى آن واحد فقد تولى الشيخ عبد الله بن مبارك عرف بابن زوين والشيخ مهنا بن على مشيخة الغيطانية بالسبع سقايات عام ١٠٦٨هـ/١٦٥٧م[٢].

---

(١) Antonius Gonzales: Voyage en Egypte "1665-1666" traduit du neerlandais presente et ammote par Charles Libois p442

(*) الغيطانية: هم أهل الخبرة العارفون بالأشجار وقيمها والغيطان والأصول وعيوبها انظر: محكمة قناطر السباع: س١٣٤، م٥٢٥، ص١٦٨

(٢) محكمة قناطر السباع: س١٣٤، م٥٢٥، ص١٨٦

ففى دار النحاس وحمام جمدار وجدت البساتين والجناين مثل جنينة عابدى بيك داخل حارة بن سعيدة، وأرض الحسنية بنفس الخوخة المتحلل أرضها بأنشاب البلح وغيره[١]. على أن أهم قطعة أرض بهذه المنطقة أرض العالمة المعروفة " بغيط الأمير المرحوم أحمد الصايغ قديماً " وللأسف لم تحدد الوثائق مساحتها ولكن لا ينفى ذلك أهميتها خلال القرن وكانت تعج بأنشاب البلح والنارينج والليمون والمشمش والجميز يروى ذلك كله ساقيتان إحداهما خشب والثانية ثابتة على فوهة متصلة بالنيل. كانت أرض العالمة هذه فى بداية القرن ملك الحاج محمد بن زين العابدين الذى قام بتأجيرها عام ١٠١٧هـ/١٦٠٨م لكل من موسى بن أحمد وحجازى بن بدر الدين لمدة ثلاث سنوات بأجرة عن كل سنة تمضى من الذهب ١٠٠ دينار[٢]. ولكنها بعد ذلك قد آلت ملكيتها إلى الشيخ شمس الدين محمد أبو الفضل سليل السادات الوفائية الذى أدخل عليها بعض التعديلات والأنواع العديدة فأصبحت تضم بجانب الأنواع القديمة الخوخ والبرقوق والعنب والتين والزيتون والتوت والنبق والخيارشنبر والكباد النفاش والأضالية والليمون الحلو والحامض وأصول البلح الحيانى والأمهات والمجهل والبلدى وكل ذلك محاط بسياج (سور) إضافة إلى عدة سواقى خشب صالحة للإدارة[٣].

وقام الشيخ شمس الدين بتأجيرها فى ربيع الأول ١٠٧٨هـ/١٦٧٦م لمحمد ابن نور الدين الجماميزى الغيطانى وشريكه أحمد بن أبو الخير المعروف بإبن بربيط الغيطانى أيضاً القاطن كل منهما بدار النحاس إيجاراً لمدة عِقد (ثلاث سنوات) نظير مبلغ ثلاثين ألف نصف فضة يقومان بها على ثلاثة أقساط، فى السنة الأولى ٨٠٠٠ والثانية ١٠٠٠٠ والثالثة ١٢٠٠٠ وقد تضمن عقد المساقاة والمغارسة بينهما عدة أمور **أولها**: إن المستأجرين المذكورين عليهما سقى ذلك وتنظيفه من الحشائش وتلقيح الأصول وإصلاح سواقى المياه إن حدث بها أى عطب. **وثانيها**: أن تقسم ثمار الأرض على ألف جزء وجزءٍ واحد لمؤجريهما الأستاذ شمس الدين وباقى ذلك للمستأجرين. **وثالثها**: إن عليهما إدارة السواقى وأجرة

---

[١] محكمة مصر القديمة: س٩٨، م٨٠٤، ص٢٣٣

[٢] محكمة مصر القديمة: نفس السجل، م٤٨٨، ص ص١٤١، ١٤٢

[٣] محكمة مصر القديمة: س١٠٣، م٥٠٤، ص٢٠٠

نجاريها وعلف أثوارها وأجرة الخدمة بالأرض. **ورابعها:** إن ما يغرساه من تراقيد الغيط المذكورة يكون لا حق لهما فيه ولكن للمستأجر وإذا أنفقا فى عمارة الأرض فى مدة الإيجارة المذكورة عشرة أنصاف أو أقل تكون عليهما ولكن ما زاد عن العشرة أنصاف على مؤجريهما[1]. وقد أسهب على الأجهورى (٩٦٧-١٠٦٩هـ/١٥٥٨-١٦٥٨م) فى وصف قانون المغارسة التى اعتبرها " عقد على تعمير أرض بشجر بقدر معلوم ...... " وإن اختلف هذا القانون بعض الشئ مع عقد المغارسة الذى أوردناه بين الشيخ شمس الدين والمستأجرين المذكورين. فعلى الأجهورى قد أجاز للغارس الحق فيما تم غرسه ولكن بعد ثبوت هذا الغرس وبلوغه الحد المشترط، ولا يكون إلا فى مدة طويلة[2]. وهو ما يتنافى مع عقد المغارسة الذى أوردته الوثيقة فى حين يتفق معها الشرنبلاى فى تحديد المدة سنة أو سنتين[3].

وفى هذه المنطقة أيضا نعنى منطقتى دار النحاس وحمام جمدار أراضى زراعية أخرى. فتذكر الوثائق حصة قدرها ستة أسهم من أصل ٢٤ سهما شائع ذلك فى جنينة تحوى أنشاب البلح الأمهات والبلدى والجميز والأثل والنبق والرومان ملك المعلم حجازى بن محمد المعروف بإبن شوشة القاطن قرب هذه الجنينة[4]. وهناك جنينة أخرى بظهر دار النحاس قرب حارة الحمام تبلغ مساحتها نحو ٨ أسهم تحوى بير ماء على فوهته ساقية خشب، بها ما يقرب من ٣٦ أصل بلح بلدى و ٣ نخلات من النشو الصغير، وشجرتين من الكرم النشو أيضا وأصل جوز، وأصل سرو، هذه الجنينة ملك الشيخ عبد الرازق أبو العطا بن وفا[5].

---

[1] نفسه: م٥٠٤، ص٢٠٠

[2] على الأجهورى: رسالة فى المغارسة. مخطوط بدار الكتب، فقة مالك ٣٦ ميكروفيلم ١٦٧٢٣-٤٢١١٠ ورقة ١ - ولنفس المؤلف عن المغارسة أيضا: أسئلة وردت من المغرب وأجوبتها. مخطوط بدار الكتب، فقة مالك ٣٩ ميكروفيلم ٤٢٠٢٤

[3] حسن بن عمار بن على الوفائى الشرنبلاى: غنية ذوى الأحكام فى بغية درر الأحكام ج١. مخطوط بدار الكتب ٨١١، ٨١٢ فقة حنفى طلعت ميكروفيلم ٩٢٦٦-٩٢٦٧، ص٤٠٣

[4] محكمة مصر القديمة: س١٠٠، م١٦٧، ص٦٩ لسنة ١٠٥٣هـ

[5] محكمة مصر القديمة: س١٠١، م١٠٦٦، ص ص ٤٠٤، ٤٠٥

ويبدو أن هذه المنطقة مستودع زراعة النخيل بالمدينة حتى قرب جامع عمرو والذى أحيط بأصول البلح الحيانى والبلدى أيضاً. وقد اعتادوا تقدير البلح بالعرجون[١].

وقد اعتاد سكان مصر القديمة على غرس الأشجار داخل المنازل أو فى حديقة المنزل، ولدينا العديد من الأمثلة، فهناك منزل بأطراف حمام جمدار من ظهر الأماكن الجارية فى جهة وقف المرحوم عبدى بيك قرب خوخة المرحوم أبو سعيدة المغربى، وقد ضم هذا المنزل قاعتين أرضيتين يعلوهما طبقتين وفسحة كشف سماوى مغروس بها أصل عنب وثلاث أشجار رمان وأصل توت وأصل سدر ونخلتين[٢].

أما بحارة شنودة بمصر القديمة فقد عثرنا على أرض جناين من خلال وثيقة مؤرخة فى ربيع الثانى ١٠٥٩هـ/١٦٤٩م عندما استأجر مراد بن أحمد الغيطانى من المعلم أبشاى بن (غير مذكور) النصرانى اليعقوبى بالوكالة الشرعية عن المعلم مرقص النصرانى الناظر على وقف كنيسة أبى منقوريوس بالحارة المذكورة فأجر من التوكيل المذكور بياض أرض الجنينة التى تحوى أنشاب البلح الحيانى والأمهات البلدى والجارى ذلك فى الوقف المذكور أى أنها أراضى وقف. وكانت مدة الإيجارة أربع سنوات بأجرة عن كل سنة ١٤ قرشاً، واشترط فى عقد " المساقاة " أن يقوم المستأجر بسقى أصول البلح وتنظيفها وتلقيحها وإصلاح الجنينة، ويتم تقسيم الثمار بينهما على ألف جزء من ذلك جزء واحد للمؤجر والباقى للمستأجر[٣]. أى إنه تضمن نفس شروط عقد المساقاة الذى أوردناه منذ قليل. ولقد كان لهذه الكنيسة أوقاف جناين أخرى بنفس الحارة تؤكد ذلك وثيقة أخرى بتاريخ ١٠٢٢هـ/١٦١٣م تحدد محتويات بياض أرض الجنينة من بلح أمهات وبلدى وبير الماء المركبة عليه الساقية الخشب[٤].

---

(١) محكمة مصر القديمة س٩٩، م٣٤، ص٩ لسنة ١٠٢٥هـ – العرجون: هو من النخيل كالعنقود من العنب والجمع (عراجين). انظر: المعجم الوجيز، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ١٩٩٤، حرف العين، ص٤١٢

(٢) محكمة مصر القديمة: س١٠٥، م٦٣٧، ص٢٠٨ لسنة ١٠٩٤هـ

(٣) محكمة مصر القديمة: س١٠١، م٤٨٧، ص١٨٥

(٤) محكمة مصر القديمة: س٩٩، م٤٩٨، ص٦٥٢

وفى خط السبع سقايات امتلك السيد الشريف ناصف بن السيد أحمد بن حسن الحسينى المتفرقة والده والتوفكجى هو ناظر السيدة زينب جنينتين متقابلتين إحداهما تسمى " بالبغالة " والأخرى تسمى " بأم قانم " داخل حكر الصبان بالخط المذكور. وفى يوم ١٧ جمادى الأول ١٠٦٨هـ/١٦٥٧م جاء إلى الحاكم الحنفى بمحكمة قناطر السباع واشتكى من رجل يسمى سالم الغيطانى واضعاً يده على الجنينتين من مدة أربع سنوات تقدمت على تاريخه، وإنهما صارا خراباً لعدم تقيده وتعاطيه الخدمة بهما. فأرسل الحنفى معه بعض شهود مجلسه من مشايخ الغيطانية بالديار المصرية، والغيطانية القاطنين بخط السبع سقايات وهم الحاج عبد الفتاح بن مبارك عرف بابن زوين والحاج مهنا بن على – سبق التعرف بهما – شيخا طائفة الغيطانية بالخط المذكور والمعلم عبد الوهاب بن عبد اللطيف الغيطانى بجزيرة الفيل وتوجهوا إلى حيث الجنينتين فوجدوهما خراباً. فوجدوا بجنينة أم قانم الدعائم المخصصة " لتكعيب العنب " قد تهدمت وطرح العنب على الأرض، كل ذلك حدث فى مدة سالم المذكور وكانتا الجنينتان قبله عامرتين بالأشجار والبناء والمياه[١]. وقد عثرنا على وثيقة مؤرخة فى الشهر التالى أى فى ٢ جمادى الآخر ١٠٦٨هـ تثبت أن الجنينتين (أم قانم والبغالة) قد رفعت يد سالم الغيطانى عنهما وصارا تحت إشراف الشريف ناصف وشخص يسمى أبا النصر بن سليمان الغيطانى اللذين شرعا فى إعادة تعميرهما مرة أخرى[٢].

وبالسبع سقايات أيضاً مساحات كبيرة من بياض أرضٍ تحت تصرف الأمير أحمد أغا بن عبد الله من أعيان طائفة التفكيجان بمصر المحروسة وهو الناظر الشرعى على وقف معتقه قانصوه باشا، ووجدت بهذه الأرض نحو ٧٤٠ أصل نارنج أو كباد، ومن المشمش ٦٥، ومن الجوز ٢٦، ومن الرومان ١٠٠، ومن النبق ٥، ومن الليمون ٢٠٤، ومن التوت ٢٠ ومن النخيل ٣٢ ومن التين ٣ ومن الجميز ٢، ومن الأتل ٤٩، ومن السنط أصل واحد[٣].

---

(١) محكمة قناطر السباع: س١٣٤، م٥٢٤، ص١٨٦

(٢) نفسه: م٥٤٤، ص١٩٦

(٣) نفسه: س١٣٥، م٢٦، ص٨ لسنة ١٠٨١هـ

أما فى الروضة وفم الخليج فقد انتشرت البساتين والحدائق بشكل ملحوظ وهذا أمــــر طبيعى للاقتراب من النيل الأمر الذى يسهل عملية الرى. ففى الروضة هنـــاك قطعـــة أرض قرب المقياس أسمتها الوثائق " بغيط السلطان قديماً " وهى تدخل ضمـــــن أمـــلاك الســـادات الوفائية وتقدر مساحتها بنحو ١٢ سهماً من ٢٤ سهماً وقد توارثها أبناء بنى الوفا طوال القرن جيلاً بعد جيل، وكانوا غالباً ما يؤجرونها لمن يرعاهـــا نظـــير مبلـــغ معلـــوم. ففـــى عـــام ١٠٢٢هـــ/١٦١٣م قام الشيخ الإمام عبد الفتاح أبو الأكرام بن وفا ببيـــع أصـــول متعلقـــات الليمون بها لشخص يسمى أحمد بن موسى البهوتى بثمن قدره ٤٨ ديناراً شريفة(١). أما فـــى عام ١٠٥٨هـــ/١٦٤٨م أجر الإمام يحيى أبو اللطف بن وفا من هذه الأرض نحو ستة أســـهم فقط منها وكانت تحوى أصول بلح وليمون وكباد ومشمش وكمثرى وغيرها وذلك لمدة عقـد نظير ٩٠٠ نصف فضة عن كل سنة(٢). أما زين الدين محمود أبو السرور الوفائى فقد أجـــر الـــ ١٢سهماً كلها بما عليها من الفاكهة المختلفة والسواقى الخشب لمدة عقد كامل يبـــدأ مـــن سنة ١٠٦٣هـــ/١٦٥٢م نظير ٥٠٠٠ نصف عن كل سنة(٣).

وقد عثرنا على عقد مغارسة لهذه الأرض من خلال وثيقة مؤرخة فى يـــوم الإثنيـــن مستهل ربيع الثانى ١٠٧٠هـــ/١٦٦٩م بين زين الدين محمود المذكور المـــالك لـــها وبيـــن المستأجر وهو المحترم محمد بن زين المعروف بالحلفاوى الغيطانى بروضة مصر القديمـــة. وقد نص العقد على أن جميع ما يغرسه المستأجر المذكور من الأشجار يكون لـــه النصـــف فيها(٤). بذلك يكون عقد المغارسة هذا قد توافق مع ما ذكره على الأجهورى من قبل، وتتـــلفى مع عقد مغارسة آخر قد تم على أرضٍ بمصر القديمة نعنى أرض العالمة المعروفـــة بغيـــط الأمير أحمد الصايغ قديماً.

---

(١) محكمة مصر القديمة: س٩٨، م٢٦٩٧، ص٧٠٩

(٢) نفســـــــــــه: س١٠١، م٢٩٦، ص١٠٩

(٣) نفســـــــــــه: م١٣٦١، ص٥١٦

(٤) نفســـــــــــه: س١٠٢، م٦٥٤، ص٢٥٤

إضافة إلى ما تقدم رأينا أرضاً أخرى بالروضة ولكنها أرض بياض أيضاً سميت " أرض غيط الماوردى " ولكن ما لفت أنظارنا هو العثور على أرض طين سواد بها عندما إستأجر زين الدين عثمان الجروانى عام ١٠١٥هـ/١٦٠٦م من الجمالى يوسف الفاسى قطعة الأرض الطين السواد بروضة مصر القديمة المجاورة للشيخ راشد لينتفع بها المستأجر المذكور فى الزرع والزراعة لمدة ثلاث سنوات نظير ٣٦٠ نصف فضة[١]. ووجدنا أيضاً قطعة أرض أخرى بالروضة ضمن أوقاف السلطان قايتباى[٢].

وإذا انتقلنا تجاه الروضة بمحاذاة النيل صوب الجنوب نجد منطقة الآبار الشريفة، وصوب الشمال الشرقى قليلاً منها نجد فم الخليج، وكلا المنطقتان تحويان بساتين. فالآثار نتيجة الاتجاه الجغرافى نحو النيل أصبحت موارد المياه ميسورة إضافة إلى كونها مع منطقة حمام جمدار يمثلان قبلة التجار والبحارة[٣]. فانتشرت بها أصول البلح والنارنج والليمون .... إلخ، وتعتبر جنينة ياسين قديماً وملك الأمير ذو الفقار بن عبد الله الخشاب – من أمراء المتفرقة ويقطن بخط الرميلة – الآن أهم حدائق المنطقة إضافة إلى أرض " أولاد معيلقة " التى إشتراها الأمير ذو الفقار المذكور عام ١٠٦٩هـ/١٦٥٨م من الأمير سليمان أمين السواقى السلطانية وزعيم مصر القديمة[٤]. أما فم الخليج فمن أهم المناطق الزراعية فى المدينة على الإطلاق، وقد لقيت هذه المنطقة إهتماماً كبيراً من جانب الإدارة العثمانية، حيث كان الباشا يحضر عملية كسر الخليج عقب فيضان النيل وما يتبعها من إحتفالات وزينات . وقد عُين " متحدثاً " عليه يشرف على عملية جرف الخليج هذه وكذلك تنظيفه من الحشائش وما يعوق جريانه ففى يوم ١٩ جمادى الثانى ١٠٥٩هـ/١٦٤٩م بناء على معرفة الأمير سليمان كاشف ولاية الأطفيحية سابقاً والمتحدث على فم الخليج

---

[١] محكمة قناطر السباع: س١٢٦، م٤٣، ص١٠

[٢] محكمة مصر القديمة: س٩٨، م٢٧٧٣، ص٧٣٤ لسنة ١٠٢٢هـ

[٣] انظر: الفصل الرابع

[٤] محكمة مصر القديمة: س١٠٢، م٤٩٨، ص١٨٠

بمصر القديمة قد تقرر جرف الخليج من بداية فمه عند مجرى النيل حتى نهاية قنطرة الجسـو المعروفة بقناطر السباع تجاه مقام العارف بالله شمس الدين محمد أبو النحال[١].

وعملية جرف الخليج هذه عادة قديمة تتم نظير أجر معلوم للمتحدث والعمال الذيـــن يعملون تحت يده. فمحمد بن قرا حسن الجبجى كان متحدثـــاً علـــى جـــرف الخليـــج عـــام ١٠٠٣هـــ/١٥٩٤م ومعه كل من الخولى عمر بن شحاذة ابن خميـــس مـــن ناحيـــة شـــيحة والخولى إسماعيل بن إسماعيل كل منهما بالجرافة المذكورة، وقد شهدوا جميعاً إنهما قبضـــا واستوفيا لهما ولبقية صبيان الجرافة ولمن يستعينا بهم فى جرافة الخليج النـــاصرى وحفـــره وتنظيفه على العادة القديمة أجرة ذلك. وكان يعمل معهم نحو ثلاثين نفراً أجرة كل شـــخص منهم نحو ثلاثة أنصاف[٢].

كذلك انصب اهتمام الإدارة على السواقى السلطانية المركبة على فوهة الخليج لرفـــع المياه اللازمة للرى والشرب. فقد كان لها متحدثاً يرعى شئونها ومدولبين وســـواقين وشـــاد إضافة إلى الأثوار (ثيران) التى تدور هذه السواقى والتى كانت تخرج لها عليفة خاصة مـــن شونة الغلال قدرتها الخزينة المصرية آنذاك نحو ١٠٠٠٠ بارة عام ١١١١هـــ/١٦٩٩م[٣]. لذلك كان طبيعياً أن تنتشر الحدائق والبساتين على شواطئ الخليج الناصرى، وكانت المنـــاظر بديعة جذبت العديد من السكان والنبلاء للسكنى بها[٤].

---

(١) محكمة مصر القديمة: س١٠١، م٥٣٥، ص١٩٩ - وقد قدم البكرى وصفاً دقيقاً لعملية كسر الخليج الناصر وما يعقبـها من إحتفالات. للمزيد انظر: محمد بن أبى السرور البكرى: النزهة الزهية فى ذكر ولاة مصر والقـــاهرة المعزيـــة، تحقيق عبد الرازق عيسى، العربى للنشر والطبع، ط١، ١٩٩٨، ص٢٥٢

(٢) محكمة الباب العالى: س٦٣، م٢١٥، ص٤٥

(٣) دفتر مال وارد إلى الخزينة العامرة عام ١١١١هـ، رقم ٦ مسلسل ٢١١١ عين ٢٩ مخزن تركى ١

(٤) P. Holt: Poltical and Social Change in Modern Egypt. London. 1958 – Quartiers et Nouvements Populaires au Caire ou XVIII Siecle. Andre. Roymond p104

وقد زار العديد من الرحالة خلال القرن منطقة فم الخليج هذه وأبدوا إعجابهم بها وبمناظرها وحدائقها وحفلاتها، فمن هؤلاء " روشت – بلان – ميرسون – فانزليب " وغيرهم كثيرون[١].

نستنتج مما سبق أن مصر القديمة لم تكن منطقة ريفية قلبا وقالبا، بل كانت منطقة حضرية تضم بعض البساتين والحدائق التى تعج بألوان الفاكهة المختلفة اعتمدت على وسائل رى بدائية إلى حد ما تتناسب مع متطلبات ذلك العصر نعنى " السواقى " التى إما تأخذ من النيل مباشرة وإما من الآبار المحفورة بخصوص ذلك، وعموما هى عملية ديناميكية تستهدف قبل كل شئ إلى توفير المياه اللازمة سواء للرى أو للشرب.

أشكال الحيازة والإلتزام:

الحق أن فكرة تملك الأراضى الزراعية فى مصر فكرة غاية فى التعقيد منذ البدايات الأولى. فقد إنكب نفر من الباحثين فى محاولات جادة لوضع أسس ومعايير يمكن عن طريقها التعرف على أشكال حيازة الأرض الزراعية وملكيتها فى مصر. فى البداية كانت فكرة ألوهية الملك أو الفرعون تسيطر على الأجواء لذلك تملك الفرعون بإعتباره إلها كافة الأراضى الزراعية فى البلاد، أما الأفراد فقد حرموا من حق الملكية وإن كان بعضهم قد منح بعضها بناء على صفات معينة، ولكنها منحة ملكية موقوتة أى حق إنتفاع مؤقت على هذه الأراضى، أما ملكية الرقبة فإنها تظل دائما فى يد الفرعون[٢]. ولكن بدأت الصورة تتغير بمرور الزمن فظهر النظام الإقطاعى ثم تطور فى مصر الإسلامية وظهر ما يسمى " بالإقطاع الحربى " زمن الأيوبيين، أما فى عصر المماليك الجراكسة فقد اضطرت الدولة إلى بيع أملاك بيت المال سواء عقارات أو أراضى زراعية نتيجة العجز المالى الذى أصابها،

---

[١] عن الخليج المصرى وأحواله خلال القرن انظر: كلا من:

Henry Blun. P38-
A. Morison: Voyage en Egypte “1697” Aete – inprime en 1975 Francais. P118-
P. Vansleb: DVN Voyage Fait en Egypte en (1672-1673) p121
A. Rocchetta: Voyage de 1593.p40 وأيضا

[٢] محمد السقا: تاريخ الشرائع القديمة فى الشرق والغرب، دار النهضة العربية، ١٩٩٥، ص ص٩٤، ٩٥

وغير خافٍ أن بيع الأراضى إلى الأفراد أحدث تغيراً كبيراً فى شكل الحيازة[١]. وقد استمر هذا التغيير فى العصر العثمانى فظهرت حيازة الأفراد إضافة إلى أراضى الأوقاف بجانب أراضى الدولة.

وفى مصر القديمة اتضحت معالم الملكية الزراعية خلال العصر العثمانى، فظهر ذلك من العرض السابق عند الحديث عن أراضى البساتين والحدائق بها. فرأينا العديد من هذه الأراضى التى إنتشرت داخل المدينة قد آلت ملكيتها إلى أفراد عاديين مثل أرض العالمة وأم قانم والبغالة وأرض الماوردى بالروضة وغيرها. وتؤكد الوثائق أن محمد بن الحاج أحمد ابن موسى المعروف بالهتونى الغيطانى قد امتلك نحو ٩ قراريط بجوار جامع المعزية وكوم بن غراب بحمام جمدار عام ١٠٦٠هـ/١٦٥٠م[٢]. وأيضاً أكدت أن يوسف جاويش قد حاز نحو نصف فدان من الطين السواد قرب قصر العينى بمصر القديمة، وقام بتأجيره عام ١٠٥٧هـ/١٦٤٧م للشيخ محمود شيخ طائفة الأعجام بتكية قصر العينى لمدة ثلاث عقود عنهم تسع سنوات بأجرة عن كل سنة ١٠٠ نصف فضة[٣]. هذه الأمثلة على سبيل الذكر لا حصر لها تؤكد أن ملكية الرقبة (الأفراد) للأرض الزراعية كانت موجودة وبشكل ملحوظ داخل المدينة لاسيما فى القرن السابع عشر وإن كانت ملكيات لمساحات قليلة وهذا يعود كما قلنا إلى طبيعة مصر القديمة من حيث كونها مدينة حضارية أكثر منها ريفية. أما أراضى الأوقاف فقد ظهرت بصورة ملحوظة فى الروضة والسبع سقايات، وهى فى مجملها أراضٍ معفاة من الضرائب لكونها تنفق ريعها على أوجه البر أو المؤسسات الدينية والتعليمية المختلفة، وقد ظهر منها العديد خارج النطاق الجغرافى لمصر القديمة، ولكن خصص ريعها على بعض المصالح بها. فتذكر وثيقة (دشت مؤرخة فى ١٦ ربيع الأول

---

[١] عماد بدر الدين أبو غازى: تطور الحيازة الزراعية زمن المماليك الجراكسة، عين للدراسات والبحوث، ط١، ١٩٩٦، ص١٠٤

[٢] محكمة مصر القديمة: س١٠١، م٧٦٠، ص٢٨٧

[٣] نفسه: م٧٨، ص٣٢

١٠٠٩هـ/١٦٠٠م) أن نحو خمسة أفدنة طيناً سواد بأراضى ناحية ناى بالقليوبيـة[*] كـانت ضمن أوقاف جامع عمرو بن العاص[1].

ويؤكد عبد الرحيم عبد الرحمن أن العثمانيين أداروا الأراضى المصرية منذ دخولـهم مصر وحتى منتصف القرن السابع عشر عن طريق نظام المقاطعات أو مـا كـان يسـمى بالأمانات. هذا النظام يرى أن كل قرية أو عدة قرى متقاربة تكون مقاطعة أو أمانة أى تكون وحدة إدارية ومالية فى نفس الوقت، وعلى كل مقاطعة أو أمانة عامل مسـئول عـن المـال الميرى المقرر على مقاطعته. ولكن لما فشل نظام الأمانات نتيجة تعسف الأمناء مع الفلاحين ظهر نظام مطور لنظام المقاطعات أو الأمانات أطلق عليه نظام الالتزام كان قد طبق من قبل فى بعض بلدان الدولة العثمانية لاسيما فى الأناضول والرومللى وشمال العراق[2].

نستخلص مما ذكره عبد الرحيم عبد الرحمن وغيره أن نظام الالتزام قد ظـهر فـى المناطق القروية، وهذا يعنى استحالة وجوده فى مصر القديمة، وهو أمر تأكدنا منه بـالفعل من خلال فحص السجلات والوثائق المتعلقة بالمدينة. ولكن لا يعنى ذلك إنها لم تمت بصلـة من قريب أو بعيد للالتزام. فقد كان العديد من الصوباشية وأمراء الألوية بها بجانب مهامـهم الأمنية والإدارية كانوا ملتزمين على أماكن ريفية سواء فى الوجه القبلى أو البحرى، ولدينـا العديد من الأمثلة علـى ذلـك، فـالأمير ذو الفقـار أمـير اللـوا بمصـر القديمـة عـام ١٠٥٩هـ/١٦٤٩م كان ملتزماً أيضاً على ناحيتى الحمام وشبروتى بالغربية[3]. كذلك إلـتزم الأمير عبدى بيك – أمير اللوا بمصر القديمة عام ١٠٥٣هـ وما قبلها – على نواحى طبهتار

---

[*] ناى: هى من القرى القديمة وتتبع مركز قليوب، وتعرف الآن بإسم نوى قرب شبين القناطر. انظر: محمـد رمـزى: القاموس الجغرافى، ج١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤، ص٥٩

[1] دشت ١١٦، ص٤٣٢ لسنة ١٠٠٩هـ

[2] عبد الرحيم عبد الرحمن: الريف المصرى فى ق١٨، مكتبة مدبولى، ط٢، ١٩٨٦، ص٨٩- وعن فشل نظام الأمانـات وظهور نظام الإلتزام انظر أيضاً: عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفـترى عليـها، ج١، مكتبـة الأنجلو. القاهرة، ١٩٧٨، ص١٤٥ حتى ص١٦٩

[3] محكمة مصر القديمة: س١٠١، م٦٢٧، ص٢٣٦

والمناشى ونصف ناحية دشية بإقليم الفيوم[١]. ثم دخل فى التزامه أيضاً بنفس الإقليم عام ١٠٦٧هـ/١٦٥٧م بجانب هذه النواحى ناحية سمباط وجردوا وأهريت[٢]. وأيضاً التزم الأمير سليمان ابن محمد جاويش صوباشى مصر القديمة فى فترة (١٠٥٥-١٠٧٤هـ) على بعض المناطق الزراعية بولاية الأطفيحية[٣]. وقد استمر الأمير سليمان هذا ينتفع بناحية المسانيد بالأطفيحية حتى عام ١٠٦٦هـ/١٦٥٦م حيث أسقط حق انتفاعه بهذه الناحية للأمير حسين بن عبد الله من أعيان الجاويشية نظير مبلغ ١٢٥٠٠ نصف فضة دفعها الأمير حسين لجهة الديوان العالى فتسلمها المعلم شموال اليهودى صراف أمين الجاويشية بالديوان ليحاسب بذلك الأمير سليمان المذكور مما عليه من الأموال الديوانية[٤].

---

[١] محكمة مصر القديمة: س١٠٠، م١٤٧، ص٥٩

[٢] محكمة مصر القديمة: س١٠٢، م١٩٧، ص٦٥

[٣] محكمة مصر القديمة: س١٠٠، م٤٨٧، ص٢٤٣

[٤] محكمة الباب العالى: س٣٣، م٤٠٣، ص١٠٦

ثانيا: الصناعة:

علق الكثير من الباحثين حول ما قام به سليم الأول العثمانى بعد إتمامه فتح مصر وعزم على الخروج منها فاصطحب معه أعدادا كثيرة من الصناع وأرباب الحرف المختلفة إلى القسطنطينية. وأن مثل هذا التصرف الذى أقدم عليه سليم كان هو السبب الأساسى – كما يرى جمال الدين الشيال وغيره – وراء انحطاط الحياة الاقتصادية فى مصر فى العصر العثمانى[١]. ولكن لا ينفى ذلك وجود العديد من الصناعات وطوائف الحرف قد استمرت بشكل واضح فى مصر خلال تلك الحقبة.

صناعة الفخار:

من الصناعات القديمة بالمدينة، فقد انتشرت بها منذ عهد الطولونيين فى القرن (٣هـ/٩م) عندما كانت تسمى بالفسطاط ويذكر أن المدينة ظلت محتفظة بتقاليد هذه الصناعة حتى نهاية العصر المملوكى ق١٠هـ/١٦م[٢]. وتؤكد الوثائق استمرار صناعة الفخار بها حتى القرن ١١هـ/١٧م. فقد انتشرت جماعة القللية بها لاسيما فى منطقة فم الخليج، وانتظموا تحت لواء شيخ الطائفة، فتولى المعلم محمد بن على البوشى مشيخة طائفة القللية بمصر القديمة عام ١٠٧٧هـ/١٦٦٧م[٣] فى حين تولاها المعلم محمد بن منصور بفم الخليج عام ١٠٨٦هـ/١٦٧٥م[٤].

ومنطقة فم الخليج كانت بمثابة مستودع صناعة القلل والأوانى الفخارية خلال القرن السابع عشر، حيث انتشرت بها العديد من الفواخير مثل فاخورة المعلم على البديوى والمعلم

---

[١] Gamal El- din El-Shayyal: Some Aspects of Intellectual And Social Life in Eighteenth-century Egypt. P115

مقال ضمن كتاب P. Holt

[٢] عاصم محمد رزق عبد الرحمن: مراكز الصناعة فى مصر الإسلامية (من الفتح العربى حتى مجئ الحملة الفرنسية)، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٩، ص٢٠

[٣] محكمة مصر القديمة: س١٠٣، م٢٨٨، ص١٢٠

[٤] محكمة مصر القديمة: س١٠٤، م١٤٨٦، ص١٣٤٢

محمد النقيطى والمعلم شكر الزبدانى، وتركزت معظمها فى حـارتى الكيزانيـة والدخامسـة اللتين اشتد التنافس بينهما حول صناعة القلل، فكانت لكل منهما ما يميزها عن الأخرى بحيث يمكننا التمييز بينهما كالقول بأن هذا " شغل الكيزانية وهذا " شغل الدخامسة ". وهذا بـالطبع على عكس الحال فى القرن ١٦ من حيث انتشار الفواخير خارج نطاق فم الخليج فعلى سـبيل المثال لا الحصر وجدنا فى عام ٩٧٩هـ/١٥٧١م فاخور بكوم الجراح – مسقط رأس سـيدى أبو السعود الجارحى – تحوى عددا من المخازن وتنتسب إلى شخص يسمى عبد القادر بـن موسى[١].

وكانت طائفة القللية بمصر القديمة تتعاقد مع بعض الأفراد لحمـل الطيـن الـلازم لصناعة القلل على ظهور الدواب، فقد استمر جاد الله ابن جويدة بن على الصعيدى الطيـان حمل الطين اللازم لطائفة القللية بمصر القديمة وغيرها لأكثر من خمس سنوات بـدأت منـذ سنة ١٠٨٧هـ واستمرت لما بعد عام ١٠٩٢هـ[٢]. وأيضا وجد الشماسـرة فـى الأطيـان بمصر القديمة مثل عبد الجواد بن حسونة الشمسارنى طين البوادق، ومحمد ابن عبد الجـواد فى طين الويكن[٣].

صناعة الزيوت والشموع:

تؤكد المصادر التاريخية على وجود صناعة استخراج الزيوت بالمنطقة منـذ القـدم. حيث انتشرت المعاصر فى الفسطاط بعد إتمام تخطيطها هذا ما يؤكده السيوطى وابن ظـهيرة وغيرهم[٤].

وفى مصر القديمة وجدت العديد من المعاصر أيضا خصصت لعصر الزيت الحـار والحلو بمنطقتى حمام جمدار ودار النحاس. فكانت معصرة الزيت الكائنة بحمام جمدار أكـبر هذه المعاصر بالمدينة بما تضمه من حواصل (مخازن). إضافة إلى معصرة السادات الوفائية

---

[١] محكمة مصر القديمة: س٩٣، م١٧٣٩، ص٣٢٨

[٢] محكمة مصر القديمة: س١٠٤، م١٧٢٦، ص١٤٤٠ وكذلك س١٠٥، م٩٤، ص٣٥

[٣] محكمة مصر القديمة: س١٠٣، م٦٣١، ص٢٤٥ لسنة ١٠٧٨هـ وكذلك نفس السجل، م٦٥١، ص٢٥١

[٤] عاصم محمد رزق: المرجع السابق، ص٢٦

بدار النحاس[١]. وكانت هذه المعاصر تعتمد على بذور الكتان والسمسم لعمل الزيت وغالبا كانت المعصرة تتكون من أربع عيدان وعشرة أحجار لعصر الزيت وطاحونين معدين لطحن البذر إضافة إلى الحواصل اللازمة لتخزين مستلزمات المعصرة وأيضا بعض الزرائب المخصصة لدواب المعصرة[٢]. هذه الدواب التى تنقل كميات البذور وغيرها.

وقد تعلق بكل معصرة العديد من العمال منهم الزياتين والمعصرانية والمدولبين، وكانت خدمة الدولبة أهمهم على الإطلاق، عمل بها خاصة فى معصرة الزيت بحمام جمدار شخصيات لعبت دورا فى المدينة مثل المعلم حسين بن على الخولى[*] صحيح أنه فى بعض الفترات قد أناب عنه بعض الأشخاص، ولكن هذا لا ينفى مدى أهمية تلك الوظيفة. وظهر العديد من الزياتين بمصر القديمة على طول القرن السابع عشر وكان طبيعيا أن ينتشروا فى حمام جمدار ودار النحاس وبعضهم فى فم الخليج. فعمل الحاج مطر بن يوسف اللبان زياتا بحمام جمدار فى النصف الثانى من القرن والمعلم أحمد بن خطاب الأحمدى زياتا أيضا ولكن فى دار النحاس، ومن الزياتين فى فم الخليج إبراهيم بن الحاج على القصاص[٣].

أما صناعة الشموع فهى من العلامات البارزة بالمدينة منذ القدم حيث وجود قصر بها يسمى " قصر الشمع " جاء اسمه إشارة إلى استخدام الشموع به بشكل منتظم منذ زمن بعيد كما ذكر المقريزى وغيره. فالشمع كان من الضروريات للإنارة بجانب القناديل، وكما رأينا فى موضع سابق أن العديد من الرحالة الذين زاروا المدينة وتفحصوا أبنيتها كانوا يعتمدون بشكل أساسى على الشموع. وقد حرص سكان مصر القديمة على ضرورة تواجد هذه الصناعة بينهم، لذلك قاموا ببناء العديد من الأماكن المخصصة لعمل الشمع لاسيما الشمع السكندرى[٤].

---

[١] محكمة مصر القديمة: س١٠٠، م٢١٦، ص٨٨

[٢] محكمة مصر القديمة: س١٠٤، م٧٢، ص٤٥

[*] انظر: الفصل الرابع

[٣] محكمة مصر القديمة: س١٠٤، م٢٣١، ص٩٨

[٤] نفسه: م١٨٢٠، ص١٤٧٣

صناعة ملح البارود:

تركزت صناعة ملح البارود فى روضة مصر القديمة لوجود معمل البـــارود بـــها، وتعتمد هذه الصناعة على ملح النطرون الذى يرد من الطرانة غرب رشيد حيث تتجمع ميــاه الرشح فى منخفض وادى النطرون ينتج عنها مادة ملحية حجرية هى ملح النطرون، إضافــة إلى الأملاح التى ترد من إسنا وضواحى الإسكندرية والسويس[١].

وكان يعمل بمعمل البارود هذا رجال من طائفة (الجبخانجية البارودية) يشرف عليـهم (الجبجى باشا)[*] ومنهم المعلم على بن شعبان ابن عمر النحاس المدولب بالمعمل، والزينـــى سليمان بن عبد الله الشاد بهذا المعمل وسيد بن منصور المتحدث على جهة البارود بالروضــة منذ عام ١٠١٨هـ/١٦٠٨م وكان يشرف على مركب البارود المتعلق بالسلطنة الشريفة فـــى نهر النيل، وتذكر الوثائق أنه فى هذا العام أى ١٠١٨هـ أقر الشاب ســـمرون بن باســـوس الرايس ببحر النيل بمركب البارود المذكورة أن عليه إحضار بعـــض المتعلقـــات الخاصـــة بالمركب حتى تنتظم عملية نقل البارود للمعمل، وإذا حدث تقصير منه عليه أن يدفع نحو ١٠ شريفى[٢].

وكان الأمير إبراهيم أغا قد تولى وظيفة (الجبجية) عام ١٠٢٣هـ/١٦١٣م بمعمـــل بارود روضة مصر القديمة[٣] وكان يشرف على تجهيز البارود المطلوب لاستخدام وتمويـــن الجيوش العثمانية.

والجدير بالذكر أن جب وبوون يذكران أن السلطان مراد الثـــانى (١٤٢١-١٤٥١م) قد استعمل بالفعل المدافع التى ظهرت من قبل فى غرب أوربا لما يقرب من مائة عام سابقة،

---

(١) عبد الحميد حامد سليمان: تاريخ الموانئ المصرية فى العصر العثمانى، ص٣٤٥

(*) جبخانة: موضع حفظ الأسلحة النارية – الجبجى: هو العسكرى الذى كان قديما يلبس الدروع. انظـــر: محمـــد علـــى الأنسى: الدرارى اللامعات فى منتخبات اللغات، بيروت، ١٩٠٠، ص١٨٧، وكذلك أحمد السعيد ســـليمان: المرجـــع السابق، ص٦٥

(٢) محكمة مصر القديمة: س٩٨، م٢٥٧، ص٧١

(٣) محكمة مصر القديمة: س٩٨، م٣٣٢٢، ص٨٩٢

وقد أنشأ مصانع أهلية لصهر المعادن وغيرها[1]. وكان يشرف على هذه المصانع أو المعامل رجال من الجبخانية أى صانعو الأسلحة الذين يقومون تحت إشراف (الجبجى باشى) بتجهيز البارود اللازم للدولة.

النجارة وصناعة المراكب:

تعد أعمال النجارة من الأساسيات فى كل زمان ومكان، لذلك كثر النجارون بالمدينة خلال القرن وكان لهم شيخ يرعى شئونهم ويباشر صناعتهم، فتذكر الوثائق اسم الحاج على بن محيى الدين شيخ طائفة النجارين بمصر القديمة عام ١٠٧١هـ/١٦٦١م[2]. ودائما ما تصدر الأوامر للنجارين بضرورة مراعاة الدقة والمهارة فى صناعتهم فيروى أن المعلم قاسم بن حسين المغربى النجار بمصر القديمة قد كلفه الأستاذ الأعظم شمس الدين محمد أبو الفضل عام ١٠٨٠هـ/١٦٧٠م بعمل بعض المشغولات الخشبية بمنزله، فعلى الفور قام المعلم قاسم وطائفته من النجارين الذين يعملون تحت يده بتنفيذ ذلك، ولكنه لم يحسن عمله وصنعته، فشكاه الأستاذ شمس الدين للقاضى المالكى بمحكمة مصر القديمة الذى توجه شهود مجلسه ومعهم أيضا بعض من طائفة النجارين بالمدينة وهم محمد بن سليمان النجار والذمى بولس بن ميخائيل النجار والذمى يعقوب بن غالى النجار. فأخبروا جميعا أنهم كشفوا على شغل النجار المذكور " فوجدوا صنعته ناقصة لم يقطع فرطها ولم يحسن ضبطها ". لذلك ألزم قاسم النجار برد المبالغ التى حصل عليها فى صورة أقساط مراعاة لحالته، وقدرت بنحو ١٦٩٣ نصف فضة[3]. فالدقة والمهارة فى الصناعة كانت أساسا يتم مراعاته من قبل إدارة المدينة لذلك رأينا ما يمكن أن نسميه " بالتخصص " داخل طائفة النجارين بمصر القديمة خلال القرن. فهناك نجارون للأثاث والأوانى والمشغولات الخشبية كما هو الحال لدى قاسم المغربى وطائفته. ونجارون فى الطواحين التى انتشرت بالمدينة، فالمعلم حجازى بن

---

[1] جب وبوون: المرجع السابق، ص٩٧

[2] محكمة مصر القديمة: س١٠٢، م٩٣٣، ص٣٦٨

[3] محكمة مصر القديمة: س١٠٤، م٦٢، ص٢٢

منصور النخال كان نجارا فى طواحين مصر القديمة عام ١٠٢٦هـ/١٦١٦م[١]، وجماعة النجارين فى المراكب كما سنرى.

وقد تعددت المصادر التى تجلب منها الأخشاب، فأحيانا تنقل عبر النيل على ظهور المراكب من الوجه القبلى وأغلب الأخشاب التى ترد منه من أخشاب السنط المعدة لعمل المراكب[٢]. وأحيانا أخرى كانت تأتى من بولاق قادمة من ميناء رشيد على مراكب الرويسا بهذه المدينة. ففى عام ١٠٥١هـ/١٦٤١م حمل الرايس عمران بن يوسف الرشيدى الرايس ببحر النيل المبارك للحاج مصطفى ابن عبد الرحمن الخشاب ببولاق كميات كبيرة من الأخشاب على ظهر مركبه من ثغر رشيد إلى ساحل بولاق[٣]. هذه الأخشاب التى كانت تأتى من جنوب أوربا خاصة فرنسا[٤]. ودائما ما كانت تصدر البيورلدات الشريفة بضرورة حمل الأخشاب خاصة أخشاب الصنوبر والخرس من الشام والديار الرومية[٥]. ولكن الأمر الذى لفت أنظارنا هو قيام مصر العثمانية بتصدير الأخشاب لبلاد الشام – كما ذكرت محافظ الدشت لعام ١٠٠٨هـ/١٥٩٨م – فقد قام الخواجا فرج بن الزينى حسن بن فرج الحمصى عرف بإبن عكاراى من جماعة الينكجرية ببلاد الشام بشراء خشب محارة من بايعه محمد بن قرد، وتقدر الكمية بنحو ١٢ حمل وحملين زامله على ظهور الجمال، كل ذلك بمبلغ قدره ١٠٤ دينار شريفى وتحركت هذه القافلة من مصر الى الشام فى ١٠ رمضان ١٠٠٨هـ[٦].

أما صناعة المراكب بمصر القديمة فقد تأثرت بعض الشئ مما فعله سليم الأول من قيامه بنقل أمهر الصناع فى بناء السفن من مصر لصناعة الأساطيل والسفن فى الدولة العثمانية الأمر الذى جعل دور الصناعة المصرية تغلق أبوابها فى بعض الفترات[٧]. ولكن لا

---

[١] محكمة مصر القديمة: س٩٩، م٢٢٦، ص٧٠

[٢] محكمة مصر القديمة: س٨٤، م٣٢٧، ص١٧٥ لسنة ٩٣٤هـ

[٣] محكمة بولاق: س٤٢، م٧٦٦، ص٥٥

[٤] نيفين مصطفى حسن: رشيد فى العصر العثمانى، دار الثقافة، ١٩٩٩، ص٨٥

[٥] محكمة الإسكندرية: س١٤٩، م٤٠، ص١٥ لسنة ١٠٥٢هـ

[٦] دشت ١١٥ لعام ١٠٠٨هـ، ص٣١

[٧] نبيل عبد الحى رضوان: تطور الأسطول العثمانى، مجلة المؤرخ المصرى العدد ٢٠ – يوليو ١٩٩٨، ص٢٣٧

يعنى ذلك نهاية المطاف، فقد كان لمصر القديمة رأى آخر خاصة أن ما قام به سليم
تم فى بداية ق ١٦، ولما أقبل ق ١٧ تغيرت بعض الأمور. فقـد انتشـرت عمليـ
المراكب وظهرت "**جماعة النجارين فى المراكب بمصر القديمة**" – كما تسميهم الـ
ونخص منهم المعلم سرور بن ابراهيم النجار الذى تعاطى نجارة المراكب وتعميرهـ
يعمل تحت يده العديد من النجارين الذين يسند إليهم من الباطن تعمير بعض المراكب
عام ١٠٩١هـ/١٦٨١م قام المعلم سرور هذا وجماعته النجارون من الباطن بعمارة
وقارب للمحترم حجازى بن المرحوم حجازى عرف بالعيساوى الرايس ببحر النيل
نظير أجر معلوم[1].لذلك كثرت المراكب بمصر القديمة وتعددت أنواعـها مثـل ا
والشختور والزنكى وغيره من المراكب التى عددناها فى موضع آخر من هذه الدرا

وهى فى مجملها مراكب متفاوتة فى الطول ولكنها متقاربة فى الحمولـة.
صناعتها تدل على وجود نجارين وصناع مهرة أتقنوا صناعتها علهم يعيدوا لنا أمجـ
المدينة التى خصها الإخشيديون منذ زمن لتكون دارا لصناعة السفن عندمـا كـانت
بالفسطاط.

الحياكـة والصباغة:

أما عن صناعة الملابس ودق القماش فكانت لها نصيب وافـر بالمدينـة
النصارى أكثر من غيرهم مثل يوسف بن عبد السيد اليعقوبى الخياط بحمام جمدار ؟
ثمانية عشر سنة (١٠٧١-١٠٩٨هـ)[2]. وغيره من الذميين بحارة قصر الشمع وبـ
عمرو بن العاص عثرنا على وثيقة زواج لشخص يعمل بالحياكة أيضا هو المحترم

---

[1] محكمة مصر القديمة: س١٠٥، م٢٦، ص٩ – ومن الجدير بالذكر هو أن جماعة الجلافطة قد إنتشروا أيضـ القديمة خلال القرن خاصة فى منطقة دار النحاس والجلافطة – كما يحدد وظيفتهم بالضبط عبـد الحميـ مهمتهم سد المركب بالألواح الخشبية وإحكامها ثم تأمينها من تسرب المياه وذلك بأن يدفع بالكتـان فـ والفراغات التى بين الألواح ثم يطلى المركب بعد ذلك بالقار. عبد الحميد حامد سليمان: الملاحة النيلية فـ العثمانية، الهيئة العامة للكتاب، ٢٠٠٠، ص٢١

[2] محكمة مصر القديمة: س١٠٢، م٩٢٣، ص٣٦٤ ، وكذلك س١٠٤، م٢١٥٤، ص١٥٨١

بن عبد الله الذى أصدق مخطوبته وتدعى عرب بنت صالح من ناحية ديو بالمنصورة، نحـو ٣٠ قرشا عبرة كل قرش ٣٠ نصف فضة أى جملة الصداق نحو ٩٠٠ نصف فضـة وهـو مبلغ ليس قليل[١]. وفى حارة قصر الشمع أيضا كانت تتم عملية غزل الصوف الأبيض، بـل إنه أحيانا يتم جلب الصوف المغزول ففى عام ١٠٨٥هـ/١٦٧٥م اشترى كـل مـن الذمـى سليمان بن عبد رب المسيح والذمى إبراهيم بن عبد السيد بحارة قصر الجمع من الحاج أبـو النصر ابن سالم الصواف القاطن بخط طولون، صوف أبيض مغزول بمبلغ قدره ستة قـروش وثلثاى قرش وثلاثة أنصاف فضة[٢].

وأدخلت عملية الصباغة على الملابس المصنوعة سواء من القطن أو الحرير. ولـم تمدنا الوثائق بالمعلومات الكافية عن عملية الصباغة فى مصر القديمة خلال القـرن، حيث تكتفى فقط بالإشارة إلى وجود بعض المصابغ سواء فى دار النحاس أو فى حمام جمـدار[٣]. ولكن لا يعنى صمت الوثائق عنها نفى وجودها. فمن خلال فحص المصنوعات والمشـغولات داخل المنازل تبين لنا وجود بعضها ذات ألوان وأصباغ زاهية. إضافـة إلـى أنـه يحـوى مصنوعات من القطن والحرير سواء كانت محلية أو من خارج البلاد. يؤكد ذلك العديد مـن النماذج التى بين أيدينا، ولكن اكتفينا فقط بعرض نموذجين الأول: منزل مولانا الشيخ شـهاب الدين بن أحمد الشهير بإبن أبى الرداد بحمام جمدار رصدنا متعلقاته فى ٢٨ جمـادى الأول ١٠٥٨هـ/١٦٤٨م يوضحها الجدول التالى[٤]:

---

[١] محكمة مصر القديمة: س١٠٤، م٤٥٢، ص١٦٦ لسنة ١٠٨٢هـ

[٢] محكمة مصر القديمة: س١٠٤، م١١٦٧، ص١٠١١

[٣] محكمة مصر القديمة: س١٠٤، م١٩٠٦، ص١٥٠٠

[٤] قسمة عسكرية: س٥٥، م٣٥٨، ص٢٦٣

السلعة	قيمتها بالبارة
طواق قطن	٥
قميص حرير قديم	٤
مرتبة قطن طويل	٣
ألبسة حرير قديم	٣
لباس رومى أبيض	٢
مقعد حرير طويل	٢
قفطان حرير ملون	٢
لحاف بغدادى ويمنى	غير مذكور
ملاية بيضاء قديمة	٢
قميص رومى أبيض	٢

يوضح لنا الجدول السابق أنواع الأردية السائدة فى مصر القديمة والخامات التى اعتمدت عليها صناعتها وقيمتها مقدرة بالبارة، وأيضا المجلوب من الخارج خاصة المصنوعات الرومية واليمنية والبغدادية.

أما النموذج الثانى: توضحه وثيقة مؤرخة فى ٢٠ شوال ١٠٦٩هـ/١٦٥٩م وهى متعلقات لعائلة بنى الرداد أيضا[١]. يوضحها الجدول الآتى:

---

[١] محكمة مصر القديمة: س١٠٢، م٥٨٣، ص٢١٧

السلعة	قيمتها بالقروش
بساطين صوف ملون	١٤
كليم مخطط	١
جوز مراتب طوال	٢
سبع مخاد	٤
مفرش	٤
أربع مراتب (٢ مربع + ٢ طوال)	٣
أربع طراريح	٨
ثمان مخاد قطن	٣
لحاف	٤

الصناعات الغذائية:

هناك العديد من الصناعات الغذائية قد وجدناها بالمدينة خلال القرن مثل صناعة الخبز وعمل الزبادى واللحوم ودق البن. فصناعة الخبز وما يلحق بها من طحن الغلال اللازمة قد إنتشرت فى أنحاء متفرقة تتم من خلال الطواحين. وقد انتظم الخبازون والطحانون فى طوائف خاصة بهم. فطائفة الطحانين قد تركزت فى حمام جمدار وقصر الجمع يتقيد أفرادها بعادات وتقاليد جرى العرف عليها من حيث اختصاص كل فرد أو طحان بمنطقة معينة يجمع الغلال اللازمة له ولا يتعدى على أى منطقة أخرى تابعة لأحد من بنى جلدته. وتسجل الوثائق شبه تعهد بين طائفة الطحانين بالخط المذكور (خط حمام جمدار وقصر الجمع) فى شعبان ١٠٦٦هـ/١٦٥٦م حتى لا يحدث الإختلال والتعدى، فجاء نص التعهد كالآتى: " ..... أنهم من تاريخه - أى ١٥ شعبان ١٠٦٦هـ - لا يتعدى أحد منهم على حصة

رفيقه الآخر ولا يدور على الأبواب ولا يحمل أطحنة ويتوجه بها إلى دولابه وأن كلا منهم يتقيد فى طاحونه ينتظر نصيبه الذى يأتى له وكل من ظهر عليه بعد ذلك أنه تعدى على خط غيره ونقل الأطحنة إلى دولابه ولم يعمل بالقانون الجارى به العادة بينهم فى ذلك كان على المتعدى منهم ما يراه ولى الأمر فى ذلك بالوجه الشرعى حيث توافقوا وتراضوا على ذلك كله يوم تاريخه ...."[1].

وبعد إتمام عملية الطحن يوزع الدقيق بالتساوى على الخبازين فى أفرانهم حيث يقوم الطحانون بحمله إليهم بناء على أوامر عليا على العادة المتبعة منذ القرن السادس عشر، ففى صفر ٩٧٤هـ/١٥٦٦م أصدر قاضى القضاة محمد شاة إلى السادة النواب بمصر القديمة بولاق أمرا يقول فيه " إن كل من كان فى محله جماعة من الخبازين بمحلهم يكتب راتبهم من الدقيق والخبز ويلزمهم بعمل الخبز ويعرض الخبز بالعدد فإن احتج الخباز عدم وصول الدقيق إليه من الطحان على العادة فيحضر الطحان إليه ويلزمه بحمل راتب الدقيق إلى الخبازين على عادته حتى يكون الخبز موجودا فى كل وقت لا ينقطع.. فإن حصل خلل فى ذلك فيكون اللوم عليهم لا يقبل فى ذلك عذرا أو حجة ..... "[2].

لذلك احتل الخبز أهمية كبرى بمصر القديمة وحظى بإشراف منظم خضعت له طائفة الخبازين تحت إمرة شيخ الطائفة ونقيبها الذى كان يراقب بنفسه وزن رغيف الخبز والذى لا بد أن لا ينقص عن نصف رطل وهو الوزن القانونى له آنذاك. فقد ثارت ثائرته المحترم سلامة بن محمد الجيزى نقيب الخبازين بمصر القديمة عام ١٠٦٠هـ/١٦٥٠م عندما رأى شخصا يدعى أحمد بن نور الدين من طائفة الخبازين

---

[1] نفسه: م١٢٦، ص٤٤

[2] محكمة مصر القديمة: س٩٢، م١٦١٩، ص٢٨٨

بالمدينة كان يحمل خبزا ناقصا عن الوزن القانونى حيث أحضر رغيفا واحدا مما معه فوجده أربعة أواق فلامه على ذلك وقبض عليه وسلمه للقاضى الحنفى بالمدينة(١).

أما اللحوم بجميع أنواعها سواء بقرى أو جاموسى وما يلحق بها من الألبـــان والجبن وعمل الزبادى فكان طبيعيا أن تتوافر بالمدينة لوجود المذبح السلطانى الضخم بخط دار النحاس، وقد حصر فانزليب Vanslb محلات الجزارة – يقصد المذابـــح – فى القاهرة فكانت – على حد قوله – ٩ محلات ذكر منهم مذبح مصر القديمة هـذا(٢). ورغم وجود المذابح والسلخانات التى انتشرت فى العاصمة وغيرهـــا إلا أن جومـــار Jomard يرى أن الشعب المصرى قليل الإقبال على تناول اللحوم وإذا فكر فى تناول بعضها غالبا ما تكون لحوم الجمال أو الجاموس(٣). حيث كان كبار النبلاء يســتأثرون بوجبات اللحوم خاصة لحوم الأبقار الأمر الذى جعل فانزليب يطلق علـــى محــلات الجزارة التى عددها بالقاهرة مسمى " محلات جزارة النبلاء أو الكبـار Boucheries du Grand seigneur "(٤).

وهناك مذبح آخر بمصر القديمة لم يذكره فـــانزليب نعنـــى مذبــح البقــرى والجاموسى بخط السبع سقايات تجاه جامع الشيخ عز الدين الدمياطى. وقد لاحظنـــا أن مذبح دار النحاس أو حتى مذبح السبع سقايات كانا قـــد اختصـــا بلحـــوم البقــرى أو الجاموسى وتعلق به الكثير من الأعيان والمعلمين. فكان الحاج مراد بن المعلم خــــير الدين من أعيان المعلمين بمذبح السبع سقايات عام ١٠٥١هـــ/١٦٤١م(٥).

---

(١) محكمة مصر القديمة: س١٠١، م٧٤٤، ص٢٨٠

(٢) P. Vanslb: Voyage en Egypte en (1672-1673). P125

(٣) جومار: المصدر السابق، ص٢٥٤

(٤) P. Vanslb: Op. Cit. p125

(٥) دشت ١٥٩ لسنة ١٠٥١هـــ، ص٧٧

والجدير بالذكر أن مذبح السبع سقايات هذا ضمن أوقاف المرحوم رستم باشا، وكان الأمير محمد أفندى كاتب طائفة العزب قد تولى نظارة هذا الوقف عام ١٠٩١هـ/١٦٨٠م وظل يباشر المذبح ويجمع العوايد المقررة على القصابين الذين يتعاطون ذبح البقر والجاموس لصالح الوقف المذكور، وقد قدرت الوثائق هذه العوايد بنحو ١٥ نصف فضة فى الشهر[١]. وقد صدر بيورلدى شريف عام ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م من قبل الوزير عبد الرحمن باشا بخصوص هذا المذبح جاء فيه " **ضرورة منع جانب الحسبة بمصر المحروسة من التعرض لمذبح السبع سقايات بغرم أو ضرر** "[٢].

وقد انتشرت جماعة القصابين والقبانية فى لحوم البقرى والجاموسى بمصر القديمة واتسعت دائرة تعاملاتهم فقد كان الحاج عثمان ابن على البساتينى القصاب بمذبح مصر القديمة يبيع اللحوم خارج نطاق دائرته فى درب الجماميز وغيره، وكذلك إعتاد الحاج على بن عبد الخالق المناواتى القصاب فى البقرى والجاموسى أيضا بخط حمام جمدار أن يحضر ما يحتاج إليه من اللحوم بالجيزة وغيرها بعد إتمام الكشف عليها، فقد أحضر منها فى يوم ١٨ جمادى الأول ١٠٨١هـ/١٦٧٠م نصف ثور وجنب وظهر بقرة ولكن بعد الكشف عليه ثبت أن جزءا منه " بايت وبه زيادة عظم وشغت وعروق " على حد تعبير الوثائق. وقد منع وزن اللحم بهذه الزيادات[٣].

وكان يشرف على عملية وزن اللحوم داخل المذابح جماعة القبانية نسبة إلى القبان الحديد الذى يستخدم فى عملية الوزن هذه، وغالبا ما يتكون القبان من قبايب من الحديد ذات سلاسل وعقرب وقرص ورمانه من النحاس وسبيتات من الخشب[٤].

---

[١] محكمة قناطر السباع: س١٣٦، م١٢٨٣، ص٣٤٤ لسنة ١٠٩١هـ

[٢] نفسه: م١٢٨٣، ص٣٤٤

[٣] محكمة مصر القديمة: س١٠٤، م١٥٧، ص٧٣

[٤] محكمة مصر القديمة: س١٠٢، م١٤٨٣، ص٥٧١

ودائما ما يحرص على وجوده بدقة داخل مذابح مصر القديمة لمنع الغش أو التزوير عند تقدير لحوم البقرى أو الجاموسى، وأحيانا كان القبان الحديد يستخدم بجانب ذلك فى وزن الحطب والفحم بمصر القديمة. وقد قدرت اللحوم بالرطل وحددت تسعيرة لكل وزن حتى يكون هناك شبه إجماع على سعر معين لضمان سير الحركة التجارية والمعاملات النقدية بين الأفراد داخل المدينة. وهو ما يوضحه الجدول الآتى:

السلعة	القيمة
لحم ضانى بعظمه (رطل وربع)	نصف فضة
لحم بقرى (رطل ونصف وربع)	نصف فضة
لحم جاموسى (رطل ونصف وربع)	نصف فضة
كوارع ضانى مسقى بالدهن	ثمانية أنصاف
لحم رأس بقرى (رطلين)	نصف فضة
كباب ضانى (رطل)	نصف عثمانى
جبن جالوم (رطل)	نصف فضة
جبن بلدى (رطل)	نصف فضة
سمن بقرى (رطل)	نصف فضة
سمن جاموسى (رطل)	نصف فضة
١٥٠ قنطار ثمن بقرى أو جاموسى	١٢٠٠ نصف جد ونحاس أحمر[1]

يوضح الجدول السابق أسعار لحوم البقرى والجاموسى وما يلحق بهما، هذه الأسعار التى كانت ترد على لسان نقيب الحسبة فى مصر القديمة وأغلبها يعود إلى القرن السادس عشر وهو الأمر الذى وجدنا صعوبة فى العثور عليه خلال القرن السابع عشر، وربما – كما

---

[1] كل قنطار من ذلك ١١٠ أرطال. وقد إعتمدنا فى وضع هذا الجدول على تسعيرة من أبواب الحسبة على لسان نقيبها بمصر القديمة لأعوام (٩٧٨-٩٩٣هـ) ثم لم يطرأ عليها تغيير كبير خلال القرن السابع عشر بناء على تسعيرة إعتمدنا عليها فى محفظة دشت ١٢٤ لسنة ١٠١٥هـ ص٣٥ وغيرها.

أوردنا فيما سبق – أن محتسب مصر القديمة قد شاركه آخرون فى مهام وظيفته. وعموما لـم يطرأ تغيرا كبيرا على أسعار اللحوم آنذاك اللهم إلا فى أوقات القلاقل أو الشدائد.

وقد حاولنا رصد بعض أسعار المواد الغذائية الأخرى خلال القرن كأســـعار الخــبز والعجوة والفاكهة. وجاءت كالتالى:

الســــلعة	القيمة
رغيف خبز (نصف رطل)	نصف فضة
قنطار عجوة	١٥ قرشا
ثلاثة أرطال عنب	نصف فضة
رطل تفاح	نصف فضة
ثلاثة أرطال تمر بلدى	ثلاثة أنصاف

أما صناعة دق البن فقد ظهرت أيضا فى مصر القديمة نتيجة إدخاله فى مصر منذ القرن ١٦، وقد أقبل عليه المصريون بشراهة فيروى جومار أنهم يتناولون منه ما بين ثمانية وعشرة أقداح فى اليوم[١]. فعملية صناعته تتم أولا بتحميص الحب على صوان من الحديد، ثم تتم عملية سحق أو دق حبوب البن عن طريق مدق البن الذى يتكون من حجرين صوان مع قطعتين من الخشب وثلاثة أعمدة من الحديد وميزان ورطلين من النحاس لتقدير كمية البن التى تكون بالفرق. وظهر خلال القرن السابع عشر بالمدينة العديد من الصناع ودقاقى البن مثل المعلم حسن بن سلطان دقاق البن عام ١٠٦٠هـ وكان يسكن فى فم الخليج[٢]. وعيد بن عمر وعامر الفيومى والمحترم أحمد بن محمد الذى ظهر فى النصف الثانى من القرن السابع عشر[٣]. قاموا هؤلاء جميعا بإمداد المقاهى التى انتشرت بالمدينة فى جمام جمدار وجامع عمرو ودار النحاس وغيرها من مناطق المدينة المختلفة بما تحتاج إليه من البن المطحون الصالح للاستخدام.

---

[١] جومار: المصدر السابق، ص٢٥٦

[٢] محكمة مصر القديمة: س١٠١، م٧١٨، ص٢٧١

[٣] محكمة مصر القديمة: س١٠٥، م٣٨١، ص١٢٩

الفصـــل الرابـــع

مصر القديمة كمركز تجـــارى

مصر القديمة كمركز تجارى

أدل الكثير من الباحثين ودارسى المدن بدلوهم حول تحديد ماهية المدن التجارية وتطورها. فيرى الجغرافى الكبير جمال حمدان أن تطور المدن التجارية إنما يمر بثلاثة مراحل [الأسواق المحلية –التجارة المحلية–التجارة العالمية][1]. أى أن وجود الأسواق ونمو التبادل التجارى سواء على النطاق المحلى أو العالمى شرط أساسى كى تدخل أى مدينة ضمن نطاق "المدن التجارية". ويتفق لوسيان فيفر مع هذا الرأى، ويؤكد أن التبادل التجارى من أكبر عوامل نمو المدينة[٢].

والآن: هل تتوافر بمصر القديمة هذه العوامل أو حتى بعضها حتى تأخذ صفة المدن التجارية العريقة؟

الحق أن مدينة مصر القديمة تمتلك من الوسائل ما يجعلنا نطلق عليها مدينة تجارية لا يمكن الاستهانة بها، ويتضح ذلك من خلال الصفحات التالية:

التجارة الداخلية:

أ. المنشآت التجارية ودورها:

انتشرت فى مصر القديمة العديد من المنشآت التجارية التى كانت تتم فيها عملية المبادلات والبيع والشراء ومنها...

الأسواق: وهى من المنشآت الاقتصادية الهامة التى تمارس فيها مختلف العمليات التجارية بصورة كبيرة، وهى دائماً غير مسقوفة، ويذكر أندريه ريمون أن هناك ثمة تقليدية

---

[1] جمال حمدان: جغرافية المدن. عالم الكتب –ط٢، ١٩٧٢ ص٤٧

[٢] لوسيان فيفر: الأرض والتطور البشرى، ترجمة د/محمد السيد غلاب، دار المطبوعات الجديدة، القاهرة ط٢، ١٩٧٣ ص٤٢٩

تميز أسواق المدن الإسلامية هى التخصص المهنى الشديد[1]. فكما نرى فى القاهرة سوق العطارين وسوق الفحامين وسوق الوراقين يتم فيه تداول سلعة أو مهنة واحدة دون غيرها. وهو ما يمكن أن نسميه "ظاهرة التخصص فى الأسواق" أو "الأسواق المتخصصة". ولكن أسواق مصر القديمة تخرج عن هذه القاعدة التى وضعها ريمون، فسوق دار النحاس (أو ديو النحاس)[*] وهو من أكبر أسواق مدينة مصر القديمة يكتظ بالسلع والبضائع المختلفة، حيث تباع فيه الحيوانات بمختلف أنواعها من جاموس وأبقار وجمال إضافة إلى العجوة والحمص والعنب .... إلخ[2].

وسوق حمام جمدار قرب جامع عمرو لا يقل كفاءة ولا حجماً من سوق دار النحاس وتتشابه السلع والبضائع داخلهما حتى وكأننا نشعر بوجود تنافس بينهما. أما سوق فم الخليج فهو يأتى فى المرتبة الثانية لسوقا دار النحاس وحمام جمدار من حيث أنواع السلع والبضائع الرائجة داخله فنجد من خلال استقراء الوثائق نحو أكثر من ٨٠% من هذه البضائع تقريباً تقتصر على الأوانى والمشغولات الفخارية، ويعود ذلك إلى انتشار الفواخير وصناعة القلل بفم الخليج.

وقد خضعت الأسواق لإشراف المحتسب، حتى إذا ثقلت الأعباء عليه، تولى إدارة السوق رجل آخر تحت إشراف المحتسب أطلق عليه "شيخ السوق" الذى اشترط فيه الحسب والنسب والخبرة بأمور البيع والشراء والمقاييس والمكاييل، وقد رأينا فى أحيان كثيرة بيورلدات تصدر خصيصاً لتعيين شيخ السوق هذا[3]. ووجد بداخل السوق العديد من الكيالين والوزانين والقبانية والدلالين.

---

(1) أندريه ريمون: المدن العربية الكبرى، ص١٨٠

(*) ربما تعود التسمية إلى إحتكار هذه المنطقة لصناعة ضرب النحاس وتبييضه حتى وقت قريب، ونؤكد على ذكر "دير أو دار" وذلك حتى لا يحدث الخلط بين سوق دار النحاس بمصر القديمة وبين سوق النحاس بخط بين القصرين. انظر دشت ١٤١ لسنة ١٠٣٠هـ ص٣١٣

(2) محكمة مصر القديمة: س٩٨، م٢٠٧٩ ص٥٤٥ – وكذلك دشت ١٢٤ لسنة ١٠١٥هـ ص٢٦٠

(3) دشت ١٤١ لسنة ١٠٣٠هـ ص٣٨

وبفضل هذا التنظيم والإشراف الجيد نشطت حركة البيع والشراء داخل أسواق مصر القديمة خلال القرن السابع عشر. فنجد المحترم محفوظ بن الحاج محمد يشترى ما مقداره نحو إثنى عشرة قرشاً فضية جبن جالوم أخضر مقطوع الدمعة من الحاج محمد بن المرحوم الحاج منصور الزيات بسوق دار النحاس[١]. وفى عام ١٠٢٠هـ/١٦١٠م تم بيع نحو ١١ رأساً من الجاموس والبقر بثمن قدره ٨٦ ديناراً من الذهب الشريفى وكان عبرة كل دينار آنذاك ٥٠ نصف فضة[٢].

وبجانب الأسواق وجدت الوكالات التجارية التى كانت تسمى قديماً فندق ثم قيسارية ثم خان وأخيراً وكالة، وقد انتشرت هذه الوكالات بصورة ملحوظة داخل المدينة ومنها: وكالة البردينى بشاطئ بحر النيل بجوار تكية الينكجرية بخط فم الخليج، وهى تنسب إلى السيد الشريف محمد البردينى وكانت تسمى أيضاً " وكالة البرابرة "[*] وقد وجدت حارة بأكملها تحمل نفس المسمى وهى حارة البردينى بخط فم الخليج، وتعد من الوكالات الكبرى إذ تضم العديد من الحواصل " المخازن " والطبقات والأروقة والمنافع والمرافق[٣].

إضافة إلى أنها تمتلك أراضى تجاورها مما جعلها عظيمة الاتساع، وفى أحيان كثيرة كانت تباع أجزاء من هذه الأراضى مثلما حدث عام ١٠٧٠هـ/١٦٦٠م عندما بيع نحو ١٢ سهماً من أرض داخلة فى حكر الوكالة نظير مبلغ ٣٠ قرشاً من الفضة[٤].

---

(١) دشت ١٥٩ لسنة ١٠٥١هـ ص١٦٧

(٢) محكمة مصر القديمة: س٩٨، م١٢٧٢، ص٣٥٣

(*) لا نجد تفسيراً واضحاً لوصفها بوكالة البرابرة، ولكننا نعتقد أن البعض قد نعتها بذلك ربما لتردد التجار غير المصريين عليها لتخزين غلالهم فى حواصلها. وعموماً هى كانت للشريف البردينى الذى أوقف العديد من أملاكه بمصر القديمة مثل الربع الذى أوقفه قرب حمام العوافى. انظر محكمة مصر القديمة: س١٠٥، م١٣١٩، ص٤٣٢

(٣) دشت ١٤٩ لسنة ١٠٤١هـ ص٣٠٥

(٤) محكمة مصر القديمة: س١٠٢، م٦٧٢، ص٢٦١.

وقد رصدت العديد من الأوقاف لصالح الوكالة لرعايتها وإصلاحها كتلك التجديدات التى أدخلت عليها فى منتصف القرن السابع عشر تقريباً وبالتحديد فى ذى القعدة ١٠٥٣هـ/١٦٤٣م[١].

ووكالة الزيت التى تنسب إلى السلطان المملوكى برقوق[*] وكان يباع منها القمح والشعير والفول، وقد درج بعض الأمراء والوزراء على تخزين حبوبهم داخلها على أن يقوم البازجى بتسجيل نوع وكمية الحبوب المخزنة داخل الوكالة. وكانت عليفة أثوار السواقى السلطانية تخرج من وكالة الزيت عن طريق طايفة الكيالين الذين يقومون بتقدير الأوزان اللازمة داخل الوكالة وبمعرفة بوابها[٢].

أما وكالة العسل التى بدار النحاس هى من أوقاف البيمارستان المنصورى، وقد حدد مرسوم شريف ورد فى ٤ صفر ٩٧٤هـ نوعية التخزين بالوكالة فذكر " **إنه لا يخزن العسل والسكر والتمر والعنب وغيره إلا بوكالة العسل التى وسط سوق دار النحاس....** "[٣]. لذلك جاءت التسمية بوكالة العسل إشارة إلى تخزين كميات كبيرة من العسل داخلها. ولكن تبدل الحال نوعاً ما فى القرن السابع عشر حيث أصبح القمح من الحبوب التى احتلت الصدارة داخل الوكالة، حيث كان الأهالى يقومون بتخزين كميات

كبيرة من القمح داخل حواصلها، وفى بعض الأوقات كان يسمح لهم بالسكن مع حبوبهم المخزنة داخل هذه الحواصل خاصة إذا كانوا من أماكن بعيدة[٤]. وأحياناً كانت تحدث

---

(١) محكمة مصر القديمة: س١٠٠، م١٦٥، ص٦٨

(*) هو السلطان الظاهر أبو سعيد برقوق بن أنص، كان من بلاد الجركس وبيع ببلاد القرم فجلبه الخواجا فخر الدين عثمان بن مسافر إلى القاهرة، فاشتراه منه الأمير الكبير يلبغا الخاصكى وأعتقه وجعله من جملة مماليكه الأجلاب، ثم بعد فترة من الزمن إستطاع بذكائه أن يتولى حكم مصر فى الفترة من " ٧٨٤هـ حتى ٨٠١هـ " أى حكم مصر نحو ٢١ عاماً وعشرة أشهر. وبه بدأ حكم المماليك الجراكسة، للمزيد انظر: المقريزى: المصدر السابق. ص ص ٣٩١، ٣٩٢

(٢) دشت ١٦٦ لسنة ١٠٥٧هـ، ص٣ وأيضاً محكمة مصر القديمة س١٠١، م١٤١، ص٥٤

(٣) محكمة مصر القديمة: س٩٢، م١٦١٩هـ، ص٢٨٩

(٤) محكمة مصر القديمة: س١٠٣، م٤٣٣، ص١٠٧٥

سـرقات داخل الوكالة بين هؤلاء الأهالى القاطنين داخلها. ففى عـام ١٠٧٣هـ/١٦٦٣م قامت المرأة خضرة بنت المرحوم حجـازى من أهالى ناحية كفر الشموت(*) بالوجه البحـرى بسرقة حاصل شـحاذة بن حجازى من أهالى ناحية كفر الدارين بالوجه البحرى أيضا. فقـد كانت " **كل ليلة تفتح حاصلا من حواصل الوكالة من الجهة الشرقية التى تجـاور حاصلـها وتسرق منه قمحا وتطحنه وتصنع منه خبزا وتبيع ذلك.....** "[1].

وبدار النحاس أيضا وجدت وكالة التمر قرب الحدادين، وقد كانت عامرة فى بدايـة القرن تحوى حوانيت وحواصل بالدور الأرضى أما أعلاها فطباق كبير[2]. ولكـن أصبحـت خرابا فى النصف الثانى من القرن خاصة منذ عام ١٠٧٦هـ/١٦٦٦م فقد وصفتها المصـادر بصريح لفظها بذلك. فتقول " **الخربة المعروفة بوكالة التمر قديما الجارية فى وقف المرحـوم مجد اليوسفى الكاينة قريبا من الحدادين بخط دار النحاس بمصر القديمة** "[3].

وفى منطقة فم الخليج وكالتا النيدة والسادات الوفائية وبحمـام جمـدار العديـد مـن الوكالات أيضا بجانب وكالة الزيت مثل وكالة أم لطفى ووكالة الأمير محرم، وبكفر الشـيخ شهاب المستجد العمارة بظهر حمام جمدار – كما ذكرنا فى موضع سابق – شهد أيضا عـدة وكالات نذكر منهم وكالة اشتملت على ١٦ حاصلا بجانب حانوت خارجها[4].

وبجانب الأسواق والوكالات انتشرت الحوانيت فى أنحاء متفرقة بمصر القديمة سواء فى دار النحاس أو حمام جمدار أو حتى فى فم الخليج، والحانوت غالبا كان صغـير الحجـم مربع الشكل يبلغ ارتفاعه سـتة أو سبعة أقدام وضلعه يبلغ نحو ثلاثة أو أربعة أقدام، ويلحـق

(*) الشموت: هى من القرى القديمة، اسمها الأصلى ششموت ثم إلى الشموت من أعمال الشرقية كما قال بن نمـاتى فـى قوانينه. وذكر جوتييه فى قاموسه قرية باسم Bou Chmaouit وقال إنه اسم ناحية مجاورة لعين شمس ويرى رمـزى إن هذا هو الاسم القديم لقرية الشموت هذه، وهى عموما تابعة لمركز طوخ ولما أنشئ مركز بنها عام ١٩١٣ ألحقت به لقربها منه. محمد رمزى: المرجع السابق جـ١ ص١٩

[1] محكمة مصر القديمة: س١٠٣، م٤٣٣، ص١٠٧٥

[2] دشت ١١٩ لسنة ١٠١٢هـ، ص٤٤

[3] محكمة مصر القديمة: س١٠٣، م١٢٠، ص٥٣

[4] محكمة مصر القديمة: س١٠٤، م١، ص١

به مخزن وترتفع أرضيته عن مستوى الشارع بمقدار قدمين أو ثلاثة وبخارج وجهته " مصطبة " من الطوب أو الحجر ومقعد يجلس عليه صاحب الحانوت ليستقبل الزبائن[١]. وكانت هذه المقاعد تتسبب فى ضيق الشوارع مما يدفع السلطات إلى إزالتها.

وقد كان بعض هذه الحوانيت مستقلا بذاته يحوى العديد من البضائع ويستخدمه صاحبه كسكن خاص به بجانب صفته التجارية مثل " الحانوت المعروف بسكن المعلم على نحلة بخط حمام جمدار "[٢]. أو قد يوجد البعض منه داخل وكالة تجارية كما ذكرنا منذ قليل، وأحيانا نجد حانوتا أسفل بعض الرباع مثل حانوت ترك العلاف الذى يقع تحت ربع بحمام جمدار تجاه جامع السويدية[٣].

ب. المعاملات التجارية والنقدية:

١. حركة البيع والشراء:

وكان طبيعيا أن تنمو حركة البيع والشراء طالما توافرت مقار الأنشطة التجارية من أسواق وحوانيت ووكايل. فقد كثرت المعاملات بين الأفراد. وسجلات المحاكم الشرعية الخاصة بمصر القديمة لا تخلو صفحاتها من ذكر حجة بيع أو شراء. فقد شملت المعاملات بيع وشراء واستئجار البضائع والسلع المختلفة، وكذلك العقارات والأراضى الزراعية، بل والخرائب والأرض البياض.

فتذكر الوثائق إن سلامة بن عبد الله قام فى عام ١٠١٩هـ/١٦٠٩م بشراء مقطع قماش وقمح من رجل يدعى عبد العاطى بن منصور نظير مبلغ ستة دنانير ذهبية وعشرة أنصاف فضية[٤]. وأيضا بيع نحو ٢٠٠ حبل كتان بنحو ٢٠ دينارا ذهبا، وكان اللحم البقرى والجاموسى يباع بسوق حمام جمدار، خاصة وأن مصر القديمة تمتلك مذبحا ضخما ولا يتم

---

[١] أندريه ريمون: المدن العربية الكبرى، ص١٧٩

[٢] محكمة مصر القديمة: س١٠٤، م١٩٠٦، ص١٥٧

[٣] محكمة مصر القديمة: س١٠٣، م١، ص١

[٤] محكمة مصر القديمة: س٩٨، م٨٤٢، ص٢٤٢

تعاطى هذه اللحـوم قبل الكشـف عليها واستبعاد " **الفاسد أو البايت منـها** " وذلـك تجنبـا للضرر أو الخسارة[1].

وتجارة الحبوب من أهم التجارات داخل مصر القديمة وذلك لأنها تمتلك ميناء نشـطا ترد إليه الحبوب من نواح متفرقة وله ديوان [موجب] خاص بـه وكذلـك شـونة خاصـة لتخزين الغلال، وسوف نخصص جزءا للحديث عنها.

أما تجارة البطيخ فقد ذاع صـيتها بالمدينة حتى خصص لها مكـان قـرب الآبـار الشريفة أطلق عليه " دار البطيخ " حيث كان البطيخ يرد إليها من الوجه القبلى. وعلى معلمين البطيخ " موجب " أو " عوايد " نظير تعاطيهم الاتجار فيه. ويدفـع للصوباشـى أو الأمـير المحافظ المسئول عن ذلك بمصر القديمة. فقد دفع الحاج محمد بن المرحـوم علـى الزيـات بحمام جمدار ٤٠ قرشا للصوباشى مصطفى نتيجة " **تعاطيه البطيخ الوارد من الوجه القبلـى إلى الدار الكاينة بالقرب من الآبار الشريفة بمصر القديمة عام ١٠٥٨هـ/١٦٤٨م** "[2].

وفى نفس سنة الوثيقة السابقة دفع كل من المعلم حسن بن محمد القطـرى والمعلـم حجازى بن محمد القاطنين بحمام جمدار أيضا نحو ٣٦ قرشا فضية للأمير رجـب شـربجى المحافظ بمصر القديمة. ولكن لا يعنى ذلك أن العوايد المفروضة على تجارة البطيـخ تؤخـذ نقدا فقط بل كانت فى أحيان كثيرة تحصل عينا بجانب القدر النقدى المدفوع فقد قـام الأمـير خضر " كاشف مدينة الجيزية سابقا والمتحدث على ناحية جزيرة الذهـب وجزيـرة النشـوة الشرقية تجاه ناحية دير الطين من ضواحى مصر والآثار الشريفة بمصر القديمة " بتحصيـل نحو ٧٥ قرشا و ٦٠٠ بطيخة من البطيخ الأخضر على مرات متفرقة من حجازى بن أبـى شوشة وزين بن محمد القطرى وهما من كبار تجار البطيـخ بـالدار. وحكـم عليـهما أن يحضرا له البطيخ إلى منزله بمصر المحروسة، وحمل ذلك خارج المبلغ المذكور[3].

---

[1] نفسـه: م٨٤٢، ص٢٤٢

[2] محكمة مصر القديمة: س١٠١، م٢٧٦، ص١٠٣

[3] نفسـه: م١٦٣٢، ص٦٠٥

وقد ارتبط بتجارة البطيخ عدة وظائف منها " المنادى بدار البطيخ "، فتذكر الوثـــائق رجلا يدعى سليمان بن المعلم رجب بن أحمد الشهير بإبن معيزة المنادى بدار البطيخ بمصــر القديمة عام ١٠٦٩هـ/١٦٥٩م وهو القاطن فى بولاق المحروسة[١]. أما المعلم حجازى بـــن محمد الشهير بأبى شوشة – سبق التعرف به – كان " رصاصا فى البطيخ بمصر القديمة عام ١٠٦١هـ/١٦٥١م "[٢].

وقد شملت حركة البيع والشراء أيضـا المنـازل والحوانيـت والحواصـل والقلـل والعطارة وغيرها، ولدينا العديد من النماذج، فقد سـجل بيع منزل بخط الخطر يعرف " ببيت الفجيل " بفم الخليج يشمل قاعتين أرضيتين خراب وحاصل وقاعة خراب أخـرى، وطبقتيـن خراب أيضا كل ذلك نظير مبلغ ٤٠ نصف فضة عام ١٠١٨هـ[٣].

فى حين بيع منزل آخر بفم الخليج أيضا بالحدرة يكاد يشابه بيت الفجيل فى مكوناتـه بمبلغ ١٩ قرشا فضة كل قرش بثلاثين نصف فضة عام ١٠٥٤هـ، ونلاحظ هنا أن منحنـى الأسعار قد ارتفع بالطبع بين عامى ١٠١٨هـ، وحتى عام ١٠٥٤هـ[٤].

أما الحواصل فقد انتشرت بكثرة وذلك نتيجة طبيعية لمدينة تحتل فيها تجارة الحبـوب مكان الصـدارة وسط تجارتها الرائجة. وسجلنا الكثير من عقود بيع وشراء الحواصل، ففـى عام ١٠٦٧هـ بيع حاصلين داخل وكالة البرديني بـ ١٥ قرشا[٥].

وتعتبر منطقة فم الخليج مستودع صناعة القلل والأوانى الفخاريـة خاصـة حارتـا الدخامسة والكيزانية اللتان كانتا تتنافسان حول إبراز الدقة والمهارة فى شغل القلل[*]، وكمـا تقدم فقد أغرقت هذه البضائع سوق فم الخليج الذى كثرت فيه بيع وشـراء القلـل. فاشـترى

---

[١] محكمة مصر القديمة: س١٠٢، م٥٦٨، ص٢٠٨

[٢] محكمة بولاق: س٤٨، م٢٠٤، ص٩٠

[٣] محكمة مصر القديمة: س٩٨، م٣٦٧، ص١٠٤

[٤] محكمة مصر القديمة: س١٠٠، م٣٧٧، ص١٧٧

[٥] محكمة مصر القديمة: س١٠٣، م١٢٦، ص٥٦

[*] للمزيد انظر الفصل السابق الخاص بالصناعة والزراعة، ونود أن نشير إلى أنه منذ وقت قريب كانت منطقة فم الخليج تعتمد على هذا اللون من الصناعة.

محمد بن حسين الكلاف بفم الخليج من المعلم أحمد بن محمد القللى نحو ٣٥٠٠ قلة شغل الكيزانية والتى تعادل كل قلة منها نحو قلتين – على حد تعبير الوثائق – وهذا الكم من القلل قدر بنحو ٢٨ قرشا[١].

ووجدنا العطارة بحمام جمدار، وكان لها حانوت كبير، وكذلك الفاكهة بجميع أنواعها – فلا يغيب عن أذهاننا أن منطقة مصر القديمة أرض بساتين وفواكة – وفي بعض الأحيان كان التجار يحتكرون بعض السلع ويتسببون فى الضرر، مثلما قام تاجر بن حسن " المتسبب فى بيع العنب بمصر القديمة " بمنعه من المشترين وراح يمنع الفقراء من تواصل الشراء ويؤذى الناس بالسباب، وبمقتضى ذلك أدبه الحاكم الشرعى وضربه على رجليه[٢].

وقد سجلت المحاكم الشرعية العديد من حالات التصادق بين التجار، فتصادق الشريف أحمد بن الشريف محمد بن عمر الدين المدادى الحسنى مع المعلم أحمد بن محمد بن المرحوم يوسف الفرارجي المعصرانى على ما كان بينهما من الديون والمعاملات. وكذلك تصادق الزينى إبراهيم بن على من طايفة عزبان بمصر المحروسة مع المحترم أحمد بن محمد الدقاق فى البن بمصر القديمة، واتفقا على أن الذى يستحقه الزينى إبراهيم من أحمد الدقاق ثمن العمودين الحديد المعدين لدق البن نحو ٨ قروش. وقد دفع منهم قرشين عبرة كل قرش ثلاثون نصف فضة، وباقى المبلغ وهو ٦ قروش مؤجلة له على أن يدفع كل شهر قرشا واحدا، ولكن عندما يمضى الشهر وعشرة أيام فى الشهر الذى يليه ولم يوفى له القسط الشهرى " **كان لا حق له فى التأجيل الشرعى ويدفع المبلغ المرقوم على حكم الحلول الشرعى** "[٣].

---

[١] نشت ١٥٩ لسنة ١٠٥١هـ، ص١١٤

[٢] محكمة مصر القديمة: س٩٨، م٦٨٧، ص٢٠٠

[٣] محكمة مصر القديمة: س١٠٥، م٣٨١، ص١٢٩

٢. عقـــود الإيجـــار:

كثرت حالات الإيجار فى مصر القديمة خلال القرن، وتضمنت ما تضمنتـه حركـة البيع والشراء النشطة. وتم العثور على العديد من عقود الإيجار التى تضمنت مدة لا تزيد عن ثلاث سـنوات وهذه المدة تسـميها الوثائق " عقدا "، وهناك عقود إيجار لمدة سنة أو أقل من سنة أما العقود الطويلة فهى نادرة، لدرجة أن المدينة تكاد لا تعرف نظام عقود الإيجار هـذه إلا فى الأراضى الزراعية.

وفى عام ١٠٣٤هـ تم تأجير معصرة بحمام جمدار تعمل فى عصر الزيت الحـار وتضم ثلاثة عيدان وطاحونين وصوارى وزنانير وحجر وزريبتين وبيرين من الماء الصـالح للشرب والعديد من الزيتين إيجاره لمدة ثلاث سنوات وثلاثة أشهر نظير أجرة ١٠٠٠ نصـف فضة تدفع كل سنة وشهر يليها على ثلاث أقساط متساوية[١].

وهناك معاصر أخرى شملت عقود إيجارها أقل من سـنة وهـى المعصـرة التـى استأجرها القمص عبد المسيح بن يوحنا من بيت المجير من المعلم محمد الفرارجى لمـدة ٩ أشهر متوالية بمبلغ قدره ٣٠ دينارا من الذهب الشريفى[٢].

وعثرنا على حالات تأجير وكالات بأكملها. فوكالة الزيت التى بحمام جمدار الجاريـة فى وقف السلطان برقوق كانت تحت نظارة الأمير عثمان من أعيان طايفة الجراكسة بمصـر، وقد وكل عنها نيابة عن الزينى مراد بن محمد الذى قام بتأجيرها للمحترم رمضان بن جـابر من أعيان ناحية أبو جراج بإقليم البهنساوية، ولكنه قاطن بجوار هذه الوكالة. وتضمـن عقـد الإيجار مدة سنة كاملة هلالية مقابل مبلغ ٤ قروش عن كل شهر من شهور سنة الإيجـار[٣]. ونلاحظ هنا فى عقد إيجار هذه الوكالة ظاهرة استشرت فى عقود الإيجـار بالمدينـة خـلال

---

[١] نشت ١٤٣ لسنة ١٠٣٤هـ، ص١٨

[٢] محكمة مصر القديمة: س٩٨، م١٨، ص٧

[٣] محكمة مصر القديمة: س١٠١، م٤٧٩، ص١٨٢ – يقول الشرنبلاى أن ابن حنيفة النعمان قد أجاز بصحة بيع الوكيـل لأن البيع " مبادلة المال بالمال مطلقا من غير تقييد بنقد أو نسبة ..... " ويجوز عزل الوكيل إذا ثبت عليـه الفسـق انظر: الشرنبلاى: ص ص٣٩٠، ٣٩٣

الحقبة موضع الدراسة، وهى عملية التوكيل الشرعى لشخص آخر تكون له حرية التصـــرف فى العقار سواء بالبيع أو الشراء أو الاستئجار.

أما الوكالة المعدودة فى وقف المرحوم منصــور بن عبــد الله المــهندى المجــاورة لطايفة الينكجرية بفم الخليج والتى تضم حواصل بالخارج وثلاث طباق مطلة علـــى النيـل، وثمان قاعات أرضيات وحوش وفسحة بجانب المرافق والمنافع والتوابــع. وقــد اســتأجرها الشيخ زين الدين فايد الجناحى عام ١٠٥٦هـ/١٦٤٦م لمدة سنة كاملة هلالية نظير ١٩ قرشـا عن كل شهر[١].

وشـــملت عقود الإيجــار أيضــا المقــاهى والحوانيت والأفــران والطواحــين والأروقة والفواخير والحمامات. فأجر الأمير حسن جاويش الناظر الشرعى على وقف جـامع عمرو بن العاص (المقهى) الكاينة بخط حمام جمدار للمحترم محمــد بــن جمعــة العمــرى القهوجى بنفس الخط لمدة سنة كاملة بمبلغ ٤٨٠ نصف فضة[٢]. وفــى ١٠٢٠هـــ/١٦١٠م استأجر المعلم خفاجى بن على الدخميسى (من حارة الدخامســة بفم الخليج) الطاحون الفـــرد الفارســى بخط الحجــارين بدار النحاس بعدتها الكامــلة التى تضم " قاعدة وحجر وهرميس وعجلة وعمود وفاس وقادوس " لمدة ثلاث سنوات بأجره عن كل سنة ٧٢٠ نصــف فضــة، ويعنى هذا أن كل يوم نصفين وعن كل شهر ٦٠ نصفا واتفق الطرفان فى نصوص العقـد أن يقوم المستأجر المذكور (المعلم خفاجى) بدفع الأجرة عن كل شهر أى ٦٠ نصف فضة[٣].

وذهبت حالات الإيجار أبعد من ذلك لدرجة أنها شملت زقاق بأكمله، فقد أجر الحــاج على بن إبراهيم النجار فى الصناديق لحجازى بن رمضان الزقاق الموجود بــدرب ملوخيــة ليســتخدمه كسكن له لمدة سنة تبدأ من عام ١٠٣٧هـ/١٦٢٧م نظير مبلغ ٤ أنصـــاف مــن الفضة عن كل شهر[٤].

---

[١] محكمة مصر القديمة: س١٠١، م٤٧٩، ص١٨٢

[٢] محكمة مصر القديمة: س١٠٠، م٦٤٥، ص٣٠٩

[٣] دشت ١٤٤ لسنوات "١٠٣٤-١٠٣٦هـ" ، ص١١٢

[٤] نفســــــــه: ص١١٢

وهكذا رأينا كيف نشطت المعاملات التجارية من بيوع وشراء أو استئجار داخل المدينة خلال القرن وذلك بفضل تعدد الأسواق والحوانيت والوكالات. فلا نكون قد بعدنا إذا قلنا إن مصر القديمة حوت ما يقرب من ١٥٠ حانوتا ووكالة، وما يزال بعضها قائما إلى الآن يشهد لكل من يتجول فى ربوعها على مدى ما بلغته هذه المدينة – وريثة الفسطاط – من شهرة تاريخية عظيمة.

ووجدنا أيضا أن هذه المعاملات قد نشطت أكثر فى النصف الثانى من القرن عنه فى النصف الأول، يعود ذلك إلى أمور شتى من انخفاض مياه النيل وانتشار الأوبئة والطواعين.

٣. القروض والرهونات والإيداعات:

انتشرت القروض والرهونات بصورة ملحوظة هنا، وشملت جناحى مجتمع المدينة من المسلمين والنصارى، وأبلغ دليل لنا هنا الذمى ميخائيل بن عبد السيد النصرانى القبطى الذى اقترض نحو ٤٠ قرشا من عامر بن الحاج منصور الشهير بابن مرعى التراس بشونة مصر القديمة[١].

وربما لا يدفع المقترض ما عليه، فيلجأ الحاكم الشرعى إلى معاقبته، ففى حالة القرض الذى بين أيدينا، رفض الذمى ميخائيل دفع ما عليه فتم اعتقاله بناء على اختيار المدعى[٢].

أما الرهونات، فقد كانت هناك بعض الحالات حيث يقوم شخص ما بأخذ مبلغ من المال من شخص آخر نظير أن يرهن الأول عقارا أو أى شئ ذا قيمة للشخص الآخر حتى يضمن حقه، فإذا استطاع الراهن بعد المدة المتفق عليها فى العقد من إعادة النقود عندئذ تفك الرهنية، وإلا فالعكس صحيح تماما. فقد قام أحد السادة الكتاب بالخزينة العامرة ويدعى العريفى شمس الدين محمد بفك الرهنية عن المكان الكائن بحارة الجمالة بفم الخليج بعد أن تسلم من الحاج جميل بن عامر مبلغ ١٠ قروش ثم عاد المكان المرهون إلى الحاج جميل

---

(١) محكمة مصر القديمة: س١٠٥، م١٥٠، ص٥٤

(٢) نفسه: م١٥٠، ص٥٤

المذكور[١]. والجدير بالذكر أن الرهونات كان يتعهد بها كاتب تسمية الوثائق " الكاتب على الرهونات " سواء داخل المدينة أو على الساحل، فقد كان الشيخ شمس الدين محمد القلعى " كاتبا على الرهونات بساحل مصر القديمة " عام ١٠٥٣هـ.

أما الإيداعات فقد وجدت لها مكانا بين تعاملات الأفراد حيث أودع أحمد بن عبد القادر مبلغ ديناران وستة عشر قرشا وثمانية وثمانون نصفا من الفضة لدى الشيخ الصالح أحمد بن الشيخ محمد القطرى وتم ذلك فى جمادى الثانى ١٠١٨هـ بشهادة عابدين الجاويش بالخدمة العالية والملتزم ببيت المال، وقاسم جاويش بخدمة مصالح بيت المال[٢]. وفى نفس العام سجلت لنا وثائق العصر استرداد بعض الإيداعات " فقد أقر الشيخ شهاب الدين أحمد القطرى أنه قبض وتسلم ووصل إليه من المعلم حجازى بن موسى بمصر القديمة جميع المبلغ الذى كان وديعة له عند المعلم حجازى المذكور وهى مبلغ وقدره دينارين ذهب وعشرة من القروش وتسعة عشر قرشا من الفضة العددية الأحمدية..... "[٣].

٤. نظم التعامل النقدى:

تؤكد أوراق البردى وقطع الأوستراكا[*] على أن المعاملات التى كانت سائدة فى مصر قبل الفتح العربى تعتمد على العملة الذهبية المعروفة بالدينار أو بمعنى أكثر دقة كانت مصر تتبع قاعدة الذهب[٤]. ويتفق المقريزى مع هذا الرأى بقوله " أن خراج مصر من قديم الدهر وحديثه إنما هو الذهب ".

وقد انتشرت دور ضرب النقود فى مصر خاصة فى القاهرة والإسكندرية والفسطاط وغيرها معتمدة فى البداية على خامى الذهب والفضة، ويرى صامويل برنار " إن المصدر

---

[١] دشت ١٤٤ لسنة ١٠٣٤هـ، ١٠٣٥هـ، ص٨٧

[٢] محكمة مصر القديمة: س٩٨، م١٥٢، ص٤٢

[٣] نفسه: م١٥٥، ص٤٢

[*] الأوستراكا: قطع من الفخار والأحجار استخدمتها بعض الشعوب القديمة فى الكتابة، وعرف منها علماء الآثار الكثير من الحقائق التاريخية.

[٤] سيدة إسماعيل الكاشف: دراسات فى النقود الإسلامية. مقال فى المجلة التاريخية. المجلد ٤ لعام ١٩٦٥، ص٨٧

الرئيسى الذى يزود دور صك النقود بخامى الذهب والفضة منذ زمن لا تعيه الذاكرة إنما هـم اليهود "[١].

ثم بدأ تزييف العملة منذ عهد على باشا الصوفى (٩٧١/٩٧٣هـ-١٥٦٤/١٥٦٦م) حيث خلط العملة بالنحاس زيادة عن القانون[٢].

وعموما قد تداولت فى مصر العثمانية النقود الذهبية التى أطلق عليها " الشـريفى " وهو اشتقاق من نقود سلاطين المماليك الجراكسة، ثم النقود الفضية مثل الأقجـة والنصـف فضة والبارة والدرهم والقرش والريال[٣].

ومن خلال عمليات البيع والشراء رأينا – كما تقدم – نوعيات النقود التى تداولت فى مصر القديمة خلال القرن سواء كانت القروش أو الدنانير أو النصف فضة. وتـردد أيضـا استخدام عملة " الأبى كلب الكبير " وهى عملة هولندية تعنى الدولار. وقد جاء ذلـك نتيجـة ارتباط النقد المصرى بالنقد الأجنبى خاصة أواخر القرن ١٦ الذى تعرض فيه النقد العثمـانى لعدة تغيرات[٤]. وغير خاف أن دخول العملة الأجنبية لمصر قد تسبب فوضى فـى المـيزان النقدى.

وهكذا كثرت المعاملات التجارية والنقدية بالمدينة بشكل ملحوظ وهو أمـر طبيعـى نابع من النشاط التجارى الضخم الذى شهدته من بيع وشراء أو استئجار أو حتـى القـروض والرهونات.

---

[١] صامويل برنار: وصف مصر. الحياة الإقتصادية فى مصر فى ق١٨، جـ٦ ترجمـة زهـير الشـايب، ط١، ١٩٨٠ مكتبة الخانجى، ص١٨٣ كذلك انظر: Michel Tuchscherer

[٢] عبد الرحيم عبد الرحمن: فصول فى التاريخ الإقتصادى والإجتماعى للقاهرة العثمانية، ص٣١١

[٣] أحمد السيد محمد الصاوى: النقود المتداولة فى مصر العثمانية. رسالة دكتوراه بكلية الآثار، جامعة القـاهرة، ١٩٩١، ص٧٦ وما بعدها

[٤] السيد رجب حراز: المرجع السابق، ص٤١

ج. تجار مصـــر القديمـــة:

ولما كانت التجارة نشطة فى مصر القديمة، فشئ طبيعى أن تفرز هذه المدينة بعـض التجار الذين لمع اسمهم فى محيطها، وأصبحت لهم تجارات واسعة. ولـــم يقتصـــر النشـــاط التجارى بمصر القديمة على التجار المصريين. فقد سجلت لنا الوثائق أسماء تجـــار مغاربـــة وحجازيين وغيرهم، وإن كان التجار المغاربة أكثرهم على الإطلاق. فقد ورد ذكر الخواجـــا عمر بن مسعود المغربى الحربى وغيره من تجار الغلال فى بداية القرن الســـابع عشـــر[١]. وكثر نشاطهم فى أسواق مصر القديمة وامتلكوا عقارات ومراكب وأراضـــى حتـــى حملـت بعض الحارات اسم أحدهم وهى حارة " أبى سعيدة المغربى بمصر القديمة "[٢].

ونعود إلى هؤلاء التجار المصريين الذين أثروا الحركة التجارية بالمدينـــة وحققـــوا أرباحا طائلة: نذكر منهم...

١. الســـادات الوفـــائية:

لقد كان للسادات الوفائية كيان عظيم بمصر القديمة، فكان لهم مكان خاص وزاويـــة " زاوية السادات الوفائية " بخط دار النحاس " والسادات الوفائية ينسبون إلى سيدى محمد بـــن وفا الإمام المشهور الذى يتصل نسبه إلى ملوك المغرب من آل الحســـن بن على بـــن أبـــى طالب. وقد انتقل إلى مصر منذ أوائل القرن الثامن قادما من المغرب، ومنـــذ ذلـــك التـــاريخ أصبح لرجاله المنازل الرفيعة والمقامات السامية[٣].

فقد كان للسادات الوفائية وكالة خاصة بهم بخط حمام جمدار وكذلك طاحون عـــامر بخط دار النحاس توافر لها الأثوار والحمير والقمح اللازم لإدارتها[٤]. واشتغل بعضهم فـــى العطارة مثل الشيخ زين الدين منصور بن على الوفائى العطار بخط حمام جمـــدار وكذلـــك

---

[١] محكمة مصر القديمة: س٩٨، م٢٨٢٧، ص٧٥١

[٢] نفســــــــــــه: س١٠٥، م١٣٦، ص٤٩

[٣] محمد توفيق البكرى الصديقى: بيت السادات الوفائية –دار الكتب المصرية، ١٩٧٥، ص٧

[٤] محكمة مصر القديمة: س١٠٢، م٩٤٦، ص٣٧٦

شمس الدين محمد الثانى الوفائى العطار بدار النحاس[1]. فالعطارة قد انتشرت بصورة ملحوظة فى خطى دار النحاس وحمام جمدار.

وسجلات المحاكم الشرعية تمدنا بمعلومات غزيرة عن تجارة الوفائيين، فنجد أبو اللطف بن وفا الذى تولى مشيخة السجادة الوفائية لمدة ٢٥ عاما، بجانب اشتغاله بالعلم والتدريس كانت له أنشطة تجارية بمصر القديمة، وقد توفى عام ١٠٦٧هـ/١٦٥٧م. أما السيد عبد الفتاح أبو الأكرام بن وفا فكان أيضا من قراء العلم وصاحب السجادة الوفائية، وله ثروة كبيرة اشتغل بها وعمل على تنميتها، فقد امتلك العديد من المراكب النيلية التى كانت تنقل الحبوب والبضائع، وفى عام ١٠١٨هـ/١٦٠٨م قام بتأجير مركبه الزنكى الذى طوله ثلاثون شبرا لعلى بن أحمد الوفائى المكى نظير مبلغ خمسون دينارا من الذهب الشريفى الخالص عن مدة أقصاها سنة كاملة[2]. وقام بتأجير الحمام الكائن بخط دار النحاس للحاج محمد بن عفان لمدة عام كامل نظير مبلغ عن كل شهر ٣٠ نصف فضة و ٨٤ قرشا[3].

ومن الجارى فى أملاك السيد عبد الفتاح أبو الأكرام المصبغة المعدة لصبغ الحرير بقنطرة أق سنقر بمصر المحروسة[4]. وعدة مقاهى بخط حمام جمدار قرب جامع عمرو بن العاص، وجاءت وفاته فى ١١ ذى الحجة عام ١٠٥٤هـ/١٦٤٤م بمصر القديمة وصلى عليه بجامع عمرو وقد ترك ثلاثة من الأولاد هم عبد الرحمن أبو السيادات، ومحمد أبو الفضل وعبد الرازق أبو العطا[5]. وتذكر الوثائق وجود ابنه له تدعى مؤمنة.

---

(١) نفسه: س١٠٤، م٢٤٧٣، ص١٦٩٢

(٢) محكمة مصر القديمة: س٩٨، م٢٦٥، ص٧٣

(٣) نفسه: س١٠٠، م١١٤، ص٤٥

(٤) نفسه: س١٠١، م١١٩١، ص٤٦١، وقنطرة أق سنقر هذه تقع على الخليج الكبير، ويمر من فوقها إلى بر الخليج الغربى، وهى من إنشاء الأمير أق سنقر الشاد بالعمائر السلطانية زمن الناصر محمد بن قلاوون، وقد عمرها لما أنشئ الجامع بالبركة الناصرية وقد مات فى دمشق سنة ٧٤٠م. للمزيد انظر: المقريزى - الخطط، ج٣ ، ص١٣٩

(٥) محمد توفيق البكرى الصديقى: المصدر السابق، ص ص٣٦، ٣٧

وقد سار كل من محمد أبو الفضل وعبد الرازق أبو العطا على نهج أبيــهما، وقــدر لهما أن يلعبا دورا بارزا فى تجارة مصر القديمة خلال القرن خاصة عبد الرازق أبو العطا.

والحقيقة إنه بعد وفاة السيد عبد الفتاح أبو الأكرام عام ١٠٥٤هـ دب النزاع وصـدر التخاصم بين الشقيقين حول التركة لمدة خمسة عشر سنة، حتى جاء عام ١٠٦٨هـــ/١٦٥٨م وهو العام الذى تم فيه توزيع الميراث بينهما وشقيقتهم السيدة مؤمنة. فــاختص الشـيخ عبـد الرازق: بقهوة (مقهى) بحمام جمدار وأجرتها فى الشهر ١٨٠ نصف فضة، وخمسة حوانيـت بجوار المقهى وأجرتهم فى الشهر ١٢٠ نصف، وحمام دار النحاس وحواصله وأجرتــهم ٦٠ نصف، وجباسة بدار النحاس وأجرتها فى الشهر ٤٥ نصف، ومسمط وأجرته فى الشهر ثلاثة أنصاف، وبخارج مصر القديمة حوانيت ومقهى أيضا بأجرة ١١٢ نصف، وعدة أماكن سويقة السباعين وأجرتهم ٣٨ نصف، وأملاك أخرى له بخط الجامع الأزهر وخط قنطرة أق ســنقر وجملة ما حصل عليه الشيخ عبد الرازق يقدر بنحو ١١٥٧ نصف فضة عددية " ثابتة الـوزن والعيار ". أما شمس الدين محمد أبو الفضل اختص بوكالة حمام جمدار وأجرتها ١٨٠ نصـف فضة وأربعة حوانيت خارج الوكالة وأجرتها فى الشهر نحو ٥٥ نصف ومقهى وطاحون بدار النحاس وأملاك أخرى بدرب الجماميز بالقاهرة . وقدر جملة ما حصل عليــه بنحــو ١١٦٤ نصف فضة[1]. وقد رضى كل منهما بما اختص به على أن يقوما بحصة شــقيقتهما السـيدة مؤمنة حسب ما يقضى به الشرع.

وتوضح الحجة السابقة النشاط التجارى للشــقيقين، ومــا جــرى فــى حصصــهم وتواجرهم. ففى عام ١٠٧٧هـ/١٦٦٧م أجر شمس الدين محمد أبو الفضل مركبــه الزنكــى المستجد الإنشاء والعمارة للريس أحمد بن يوسف القاطن بمدينة الجيزية لمــدة ســنة كاملــة وشهرا يليها بأجرة ثلاثة عشر ألف نصف[2]. وعلى ظهر هذه المراكب كان يجلب الغلال من صعيد مصر إلى مصر القديمة حتى صار من كبار تجار الغلال فى تلــك الحقبــة، يقصــده الكثيرون للحصول على احتياجاتهم من هذه الغلال بكميات كبيرة، ففى جمادى الثــانى عــام

---

[1] محكمة القسمة العسكرية: س٦٣، م٣٠١، ص ص١٧٧، ١٧٨

[2] محكمة مصر القديمة: س١٠٣، م٢٠٦، ص٨٩

١٠٧٨هـ/١٦٦٨م اشترى منه الشيخ شمس الدين محمد بن زكريا من طايفة مستحفظان/ قلعة مصر المحروسة، ملتزم ناحية جهود بإقليم البهنساوية نحو ١٠٠ إردب من القمح الصعيدى نظير مبلغ ٤٠٠ قرشا، أى أن ثمن كل إردب نحو أربعة قروش عبرة كل قرش نحو ثلاثون نصف فضة[1]. ونلاحظ هنا أن ثمن الإردب قد ارتفع عنه فى النصف الأول من القرن، وهو ما سوف نرصده ونوضحه بعد قليل.

وفى عام ١٠٧٣هـ/١٦٦٣م قام شمس الدين أيضا بتأجير بعض أملاكه من حوانيت ومقاهى وحواصل ومصبغة النيلة لزين الدين صالح المدينى الوفائى أحد التجار بسوق الجوهرية والصاغة لمدة سنة كاملة بمبلغ ٣٠٠ نصف فضة كل شهر[2]. وفى نفس العام أيضا سجلت الوثائق أنه قام ببيع جارية بيضاء اللون تدعى " شاه باظ بنت عبد الله " وهى رومية بغدانية الجنس بمبلغ أربعة آلاف نصف فضة[3].

أما الشيخ عبد الرازق أبى العطا فلم يكن من أعظم تجار السادات الوفائية فقط بل هو من أعظم تجار مصر القديمة قاطبة خلال القرن السابع عشر نظرا لتجارته الواسعة ورحلاته. ففى عام ١٠٧٦هـ/١٦٦٦م استأجر قطعة أرض خراب وبها أنقاض لمدة ثلاثين عاما – نلاحظ هنا أن مدة الإيجار طويلة وليس كباقى المدد التى انضوى أغلبها على سنة أو ثلاث سنوات – وكان معه المهندسين المتخصصون فى الأبنية، لينتفع بذلك من إقامة بعض المنشآت التجارية، وذلك نظير مبلغ ١٢٠ نصف فضة كل سنة[4]. كما قام بتأجير وكالة بباب النصر من أملاك زوجته رابية خاتون ابنة المرحوم الأمير عبدى بيك أمير اللوا الشريف بمصر القديمة، عن طريق التوكيل الشرعى للشيخ نور الدين على، وهى الوكالة المعدة لبيع

---

[1] نفسه: م٥٨٤، ص٢٣٠

[2] محكمة مصر القديمة: س١٠٢، م١٥١٨، ص٥٨١

[3] نفسه: م١٥٨١، ص٦٠٥ ، وعن الرقيق ودورهم بمصر القديمة: انظر الفصل الخامس من بحثنا

[4] محكمة مصر القديمة: س١٠٣، م٢٧، ص١٠

البذر وما بها من حواصل تحوى هذه البذور، وكانت مدة عقد هذه التواجر عام كامل نظـــير أجرة دفعها الشيخ نور الدين المستأجر المذكور ٧٥٠٠ نصف فضة عن كل شهر[١].

وكان لعبد الرازق أبو العطا باع كبير فى تجارة الغلال والبن والجلود. فقـد امتلـك العديد من المراكب النيلية التى كانت تنقل الغلال من الوجه القبلى لمصر القديمة فجعل هـذه المراكب تنقل لحسابه الخاص أحيانا، وقام بتأجير بعضها لتجار الغلال أحيانا أخـرى. فقبـل عام ١٠٨٤هـ/١٦٧٤م قام الحاج على شحاذة وأقاربه باستئجار عدة مراكب وكذلك الوجـه المعروفة بمرسى المعادى وهى ضمن أملاك عبد الرازق أبو العطا نظير مبلغ مائتين وأربعة عشر ألف وربعمائة نصف فضة[٢]. وفى عام ١٠٧٢هـ/١٦٦٢ أجر مراكبه القياسـة التـى بترس والزنكى وغيرهما لجماعة من أهالى ناحية الفشـن بالوجـه القبلـى للإتجـار فـى الحبوب[٣].

واشترى الكثير من العربان خاصة عربان غزالة بجزيرة القمامصة وعلـى رأسـهم الشيخ عمر بن خطاب الغياط شيخ عربان غزالة المذكور، كميات كبيرة من الغلال المعـدود بحواصل عبد الرازق أبو العطا، تضمنت نحو ٦١ إردبا من القمح سعر كل إردب قرشـين و ٢١ إردبا من الشعير سعر كل إردب هنا قرشا واحدا[٤].

أما تجارة البن فقد نشطت فى مصر العثمانية بوجه عام خلال القرن السادس عشـر، عندما جلب من الحبشة واليمن وقام المتصوفة بشرب القهوة أثناء الذكـر[٥] وكـان لمصـر القديمة نصيب فى هذه التجارة، فقد راجت بها خلال القرن، وليس أدل على ذلك من انتشـار العديد من المقاهى خاصة فى منطقتى حمام جمدار ودار النحاس. وكان عبد الرازق أبو العطا واحدا من هؤلاء التجار الذين ساهموا فى رواج تجارة البن بمصر القديمة، فتسـجل الوثـائق

---

[١] نفســـــه: م٢٣٣، ص٩٩

[٢] محكمة مصر القديمة: س١٠٤، م١٠٠٤، ص٩٤٧

[٣] محكمة مصر القديمة: س١٠٢، م١١٦٨، ص٤٦٠ وعدة وثائق أخرى تالية لها تحمل نفس الغرض

[٤] محكمة مصر القديمة: س١٠٤، م١٧٢٨، ص١٤٤١

[٥] د/ نيللى حنا: تجار القاهرة فى العصر العثمانى (سيرة أبو طاقية)، ترجمة وتقديم د/ رؤوف عباس، الدار المصريـة اللبنانية، ١٩٩٧، ص١٤٤

خروج كميات كبيرة من البن من حواصله لرجل يدعى شمس الدين محمد بن حسين الوفـائى نظير مبلغ ١٤,٠٠٠ نصف فضة[١].

وتجارة الحرير والجلود من التجارات التى ساهم فيها أيضا خاصة الحرير الحجـازى الجيد الذى يقدر " بالشد "، وكان الشد الواحد بنحو ثلاثون نصف فضة، وقد باع مـا جملتـه نحو عشرة شدود لرجل من ناحية الفشن بثلاثمائة نصف فضة[٢]. وتجارة الجلود قد وجـدت بمصر القديمة خاصة جلود الأبقار والجاموس نتيجة وجود مذبح ضخم بمصر القديمة، وقـد كثر الجلادون بها واحترفوا دباغة الجلود داخل المدابغ العديدة التى انتشرت خـلال القـرن وكانت هذه المدابغ تحصل منها الضرائب لصالح مقاطعة (دباغ خانة) تلك المقاطعـة التـى كانت خاضعة لمقاطعتى بولاق ومصر القديمة قبل القرن السابع عشر[٣].

ولما كان الشيخ عبد الرازق أبو العطا من كبار تجار مدابغ مصر القديمة، فقد قـام هو وجماعته بدفع ما عليهم من مال الروزنامة الموجب عليهم دفعه لصالح مقاطعـة دبـاغ خانة، وقد سجلت دفاتر الرزنامة أن قيمة ما عليهم دفعـه لروزنامـة غـرة محـرم عـام ١٠٩٦هـ/١٦٨٦م، فى اليوم ٧١ بارة أى فى الشهر نحو ٢١٣٠ بارة[٤].

وتذكر المصادر قيامه بالسفر إلى القدس الشريف عام ١٠٩١هـ/١٦٨١م وبصحبتـه جماعة قام بتأجيرهم كحماية له فى الطريق حسبما يتعرض لأى أخطار. واسـتمر يمـارس نشاطه حتى جاءت وفاته عام ١٠٩٨هـ/١٦٨٨م ليسدل الستار على أعظـم تجـار مصـر القديمة خلال القرن فكان ممن ساهموا برواج تجارتها الداخلية وكذلـك تجارتـها الخارجيـة خارج حدود مصر المحروسة.

---

(١) محكمة مصر القديمة: س١٠٤، م١١٨٨، ص١٠٢٠

(٢) محكمة مصر القديمة: س١٠٤، م١٠٠٣، ص٩٤٦

(٣) د/ عبد الحميد حامد سليمان: المرجع السابق، ص٢٣٢

(٤) سجلات الروزنامة: دفتر مقاطعة إحتساب، مخزن تركى ١، عين ١٧ رقم عمومى ٥٢٥٣، رقم الحفظ النوعـى ١٠ ، انظر ملحق رقم (١) التذكرة التى قمنا بنشرها وتوضح نشاط عبد الرازق أبو العطا فى تجارة المدابغ، ص١٨٩

٢. عائلـــة الخـــولى:

وكذلك قدر لمصر القديمة أن تشهد عائلة أخرى ذات نشاط تجارى لا يســتهان بــه. ومن أبرز تجارها حسين بن على الخولى وأخواه يوسف وحسنى، وإن كان حســن أبرزهــم على الإطلاق، فكان حسين ابن على الخولى من كبار تجار المراكب المقبلة والمبحرة بنــهر النيل وما تحمله من غلال وحطب أو بوص إضافة إلى مشاركته فى بعض حــالات البيــوع المنتشرة فى زمانه.

وقد بدأت فعاليات نشاط عائلة الخولى أواخر النصف الأول من القرن السابع عشــر. فى جمادى الأول سنة ١٠٥٤هـ/١٦٤٤م اشترى المعلم حسين الخولى من الرايس صالح بـن حسن الرشيدى الرايس ببحر النيل مركب الأشكيف نظير مبلغ ٤٠ قرشـــا[١] وذلــك لحمــل الغلال من الصعيد. فكانت مراكبه تحمل الفول والقمح والشعير، وكان الأهالى يقبلون عليـــه للحصول على احتياجاتهم من هذه الحبوب، فقد اشترى الرايس محمد بن على بــن منصــور ٢٠٠ إردب من الفول و ٢٢ إردب من القمح الصعيدى الخالى من العيوب[٢]. وأجر للرايــس عبد الفتاح بن الشيخ على من أهالى منشية خميس بالمنصورة المركب القياسة التى بسنة لمــدة سنة كاملة وشهر بمبلغ ١٧ ألف نصف فضة، واتفقا على أن يدفع نصفها حالا، والباقى علــى ثلاثة أقساط[٣].

وبخلاف نشاطه الملاحى الضخم، عقد الكثير من العقود التجاريـــة الأخــرى، فقــد اشترى قطعة أرض تقدر بنحو ١٢ سهما بخط حمام جمدار من الشيخ أبـــو الســـعود بــن مسطولة الخطيب بجامع عمرو بن العاص نظير مبلغ ٧٠ قرشا وبنفس الخط قرب مقام سيدى شمس الدين محمد ساعى البحر اشترى وكالة بها حواصل وفسحة كشف سماوى[٤].

---

[١] محكمة مصر القديمة: س١٠٠، م٣١٤، ص١٣٦

[٢] نفســــــــــه: م٤٧٩، ص٢٤٠

[٣] محكمة مصر القديمة: س١٠١، م٤٢٢، ص ص١٥٧، ١٥٨

[٤] نفســــــــــه: م١١٧٨، ص٤٥٤

وقد عثرنا على وثيقة تثبت إنه كان على علاقة مع العربان حيث قام بإقراض شيوخ عربان هوارة بناحية الشيخ زياد مبلغ إثنى عشر ألف نصف فضة قبل عام ١٠٥٦هـ/١٦٤٦م[١].

ورغم كثرة تجارته كان يعمل بخدمة الدولية بمعصرة الزيت بمصر القديمة. ولكن يمكننا القول أن المعلم حسين الخولى رغم تنوع وتعدد نشاطه التجارى إلا أن تجارة الحبوب والغلال كانت أهم مصادر تجارته، فالمصادر نفسها تصفه بذلك وتقول " **المعلم حسين ابن على الخولى المتسبب فى الغلال بمصر القديمة** "[٢].

أما يوسف بن على الخولى، فكان يشبه شقيقه المعلم حسين بدرجة كبيرة فى أسلوب تجارته، حتى إنه كان يعمل هو الآخر مدولب بمعصر الزيت بخط حمام جمدار، وكان يبيع ما وجد فيها من بذور كتان وتبن وخيول وحمير[٣]. وكانت مراكبه تجوب نهر النيل طولا وعرضا للإتجار فى الغلال، حيث امتلك المعلم يوسف العديد من المراكب النيلية.

وأيضا عمل حسنى بن المعلم على الخولى الشقيق الثالث لهما بجوارهما فى معصرة الزيت المذكورة وسار على درب سابقيه وإن كان أقلهم نشاطا. بذلك تكون عائلة الخولى قد سجلت صفحات فى تاريخ مصر القديمة خلال القرن، وأصبح اسمها مدرجا – كما رأينا – بتجارة الغلال. حتى أن الوثائق عندما تذكرهم تقول " عائلة الخولى المشهورة بالتواجر فى الغلال وغيرها بمصر القديمة "[٤].

---

[١] محكمة مصر القديمة: س١٠٠، م٦٦١، ص ص٣١٤، ٣١٥

[٢] نفســـــه: م٦٤٠، ص٣٠٧

[٣] محكمة مصر القديمة: س١٠٣، م٣٥٤، ص١٤٦

[٤] نفســـــه: س١٠٠، م٥٠٩، ص٢٥٥

٣. عائلـــــة البديـــوى:

إذا كان بيت السادات الوفائية وبيت الخولى من البيوت التجارية التى حققــت شـــهرة فائقة وسط محيط مصر القديمة فعائلة البديوى لا تقل عنهما أهمية وإن اختلف نـــوع النشـــاط كما سنرى.

الحقيقة أن عائلة البديوى من العائلات التى تمركزت فى فم الخليج واقتصر نشـــاطها على صناعة القلل والإتجار بها، وإن وجد لها بعض التجارات الأخرى، ولكنها حالات فرديـــة لا تغير من مسار وأسلوب حياتها.

وتردد ذكر الحاج على البديوى وابنه. فنجد المعلم الحاج على بن المرحـــوم محمـــد البديوى القللى بخط فم الخليج قد ورث هذه المهنة عن أبيه المعلم محمد البديـــوى، ثـــم ورث على بن على البديوى المهنة عن أبيه أيضا. إذن هذه العائلة قد توارثت المهنة جيلا بعد جيـل، وهو الأمر الذى جعل الدقة والمهارة هى أهم سمات صناعة القلل بها.

وانتشرت فى فم الخليج العديد من الفواخير المعدة لصناعة القلل مثل فواخير المعلـــم محمـــد النقيطى والمعلم شكر الزبدانى وفواخير عائلة البديوى وتركز معظمها فى حارتى الكيزانيـــة والدخامسة اللتين اشتد التنافس بينهما حول صناعة القلل.

وقبل عام ١٠٥٨هـ/١٦٤٨م قام عبد الرازق بن عبد الكريم عـــرف بـــإبن ســـنجر المصرى وسليمان ابن عبد الجواد القللى بشراء العديد من القلل من الحاج على البديوى بمبلـــغ قدرته الوثائق بنحو سبعون قرشا ونصف فضة[1] وهو يعتبر مبلغ كبير لأن كل قرش يمثـــل ثلاثون نصف فضة، أى تقدر الصفقة هنا بنحو ٢١٠٠ نصف فضة.

وفى عام ١٠٥٧هـ/١٦٤٧م كتب المعلم على البديوى حجة وقف بما يمتلكه، وكـــان ضمن ما أوقفه ثلاث فواخير بظهر فم الخليج وقد أوصى بأن يصرف من ريع ذلـــك علـــى

---

(١) نفســـــــــــه: س١٠١، م٤١٧، ص١٥٦

طائفة القللية وشيخهم بالكيزانية[1]. ويرجح أن وفاته جاءت عام ١٠٨٣هـ/١٦٧٣م حسبما تشير المصادر إلى ذلك.

٤. الأمير بهرام شربجي:

هو بهرام شربجى/ بلوك باشى طايفة مستحفظان قلعة مصر المحروسة بن المرحوم الأمير يوسف القاطن بمصر القديمة وكان مسئولا عن توفير الحطب لمطبخ السلطنة الشريفة وذلك منذ عام ١٠٧٤هـ/١٦٦٤م. ودوام على جلب الحطب المذكور علـى ظهر مركب القياسة التى بسنة خاصة من الوجه القبلى[2].

وفى بعض الأحيان كان يكلف بعض الأفراد لحمل هذا الحطب على ظهر مراكبهم نظير أجر معلوم يخرج من الديوان، ففى عام ١٠٧٦هـ/١٦٦٦م كلف المعلم على بن طعيمة الحطاب ببولاق لكفاية المطبخ والفرن السلطانى من الحطب يوما واحدا فى كل شهر، حيث كان يتم تكليف الفرد بتوفير الحطب يوما واحدا فقط فى الشهر ثم يأتى آخر وآخر وذلك حتى لا يثقل كاهل هؤلاء التجار. وقد تم اختيار يوم ٥ ذى القعدة ليؤدى فيه المعلم على بن طعيمة الحطب المرصود للمطبخ وله نظير ذلك أجرة الرجال والدواب وقياسته التى بـترس المعدة لحمل الحطب[3]. فى حين يذكر أن يوم ١٠ ذى القعدة خصص للرايس على بن عطا الله من أهالى ناحية المعطف بولاية الجيزية[4].

وإضافة إلى أنه كان متحدثا على حطب المطبخ والفرن السلطانى كان أيضا ملتزما على بعض النواحى. فقد إلتزم بناحية شرونه بـإقليم الأطفيحية منذ جمادى الثانى

---

[1] محكمة مصر القديمة: س١٠١، م١٨٠، ص٦٧

[2] محكمة مصر القديمة: س١٠٢، م١٨٢٢، ص٦٩٠

[3] محكمة مصر القديمة: س١٠٣، م١٦٠، ص٧١

[4] نفسه: م١٦٩، ص٧٤ ، والمعطف ، هى من النواحى القديمة، إسمها الأصلى عطف بهبيت لمجاورتها لناحية تسمى بهبيت للمزيد انظر: محمد رمزى: القاموس الجغرافى، ج٣، ص٤٠

١٠٧٦هـ/١٦٦٦م، ثم دخل فى إلتزامه فى نفس العام ناحية المفهمين بإقليم الأطفيحية أيضا لتحصيل ما عليهما من مغل السنة المذكورة[١].

وتركز نشاط الأمير بدار النحاس وفم الخليج. فقد اشترى قطعة أرض بدار النحاس كانت خرابا قام بتعميرها وشيد عليها شونة لخزن الحطب ومناخ لإستراحة الدواب وطاحون فرد فارسى. وتملك العديد من الحوانيت ووكالة كل ذلك بدار النحاس، أما فى فم الخليج فكان هناك العديد من الحوانيت أيضا والأفران المعدة لخبز الطحين بجوار موقف الحمارة[٢].

وقد توفى الأمير بهرام عام ١٠٨٣هـ/١٦٧٣م بعد أن أوقف العديد من أملاكه التى أوصى بأن تصرف من بعده لصالح ضريح الإمام الليث بن سعد السمرقندى.

٥. الأمير يوسف جوربجى:

هو الأمير يوسف جوربجى / طايفة عزبان. قلعة مصر المحروسة المتحدث على حطب مطبخ الديوان السعيد القاطن بمصر القديمة. وقد بدأ تحدثه على المطبخ منذ عام ١٠٧٧هـ/١٦٦٧م وكما كان يفعل الأمير بهرام لتوفير حطب المطبخ، قام أيضا الأمير يوسف بتكليف بعض الأفراد بذلك مثلما كلف عبد المعطى بن حماد والحاج عبد الرحمن بن نصار من أهالى دير الطين بولاية الأطفيحية بتوفير البوص والحطب اللازمين لطبخ نحو ألف قنطار من العسل وأعطاهم عوايد ذلك[٣] كما إلتزم بناحيتى المفهمين سالفة الذكر لمغل سنة ١٠٧٨هـ/١٦٦٨م وناحية زهرة بالوجه القبلى لمغل سنة ١٠٩٢هـ/١٦٨٢م.

وللأمير يوسف هذا تجارات واسعة تؤكد ذلك سجلات محكمة مصر القديمة بالذات، فقد امتلك العديد من المراكب القياسة والزنكى والعقب وغيرها والتى كانت تحمل بغلال مدن الصعيد إلى مصر القديمة. وهو أيضا يعد من كبار تجار البن بمصر القديمة، فتسجل المصادر العديد من أسماء تجار الصعيد الذين حصلوا على كميات كبيرة من قناطير البن من

---

[١] محكمة مصر القديمة: س١٠٣، م١٠٢، ص٤٥ ، ونفس السجل، م١٧٤، ص٧٦

[٢] محكمة مصر القديمة: ١٠٣، م١٠١، ص-ص٤٢، ٤٥

[٣] محكمة مصر القديمة: س١٠٤، م١٦٠٦، ص ص١٣٨٨، ١٣٨٩

حواصل الأمير، خاصة سنة ١٠٩٢هـ/١٦٨٢م وهى السنة التى وفد فيها بعض مشايخ فلاحين ناحية ببا بولاية البهنساوية للحصول على هذا البن من الأمير[1].

ولما توافرت له الثروة العريضة والتجارة الواسعة أحاط نفسه بالعديد من الأرقاء العبيد الذين اعتمد عليهم فى تدبير أموره، وكان الأمير يوسف يفضل العبيد الروس الجنس، وكان يعاملهم معاملة طيبة وعبر عن ذلك بكتابة المكاتبات والحجج التى تضمن لهؤلاء العتق والحرية بعد وفاته على أن يظلوا فى خدمته ورعايته طوال حياته. وقد عبر عن ذلك بصريح لفظه فقال " عبدى هذا – يعنى أحد معتوقيه – **مدبراً فى حياتى معتوقاً بعد مماتى** "[2].

وقبل وفاته قام بكتابة حجة وقف على أملاكه من أروقة وحواصل وأطباق وحوانيت وجناين عامرة بالأشجار والفواكة وأصول النخيل بخط دار النحاس ليصرف ريع ذلك على مصالح أوقاف الحرمين الشريفين وضريح سيدى محمد بن المقداد[3].

د. ميناء مصر القديمة:

إن أهم ما يميز مصر القديمة هو وجود ميناء ومنفذ مائى تطل منه على نهر النيل، ذلك الميناء الذى جعلنا نطلق عليها لفظ " مدينة " وليس " حى ". فقد درج الكثيرون على أن يصفوها بلفظ حى كباقى أحياء القاهرة العثمانية. ولكن وجود مثل هذا الميناء أخرجها من " التقوقع " إلى الإطلالة البحرية والعلاقات التبادلية النشطة مع باقى أجزاء مصر أو البلدان الخارجية كما سنرى . لذلك فوصفها بحى لهو قول يحتاج إلى مراجعة ودراسة دقيقة.

لقد كان ميناء مصر القديمة خلال القرن السابع عشر بمثابة قبلة يقصدها التجار، خاصة تجار الحبوب والغلال. وكان الميناء يحمل لفظ " أسكلة أو سقالة ".

والملاحة فى نهر النيل خلال القرن كانت منتظمة، حيث كانت المراكب تجوب النهر مقبلة ومبحرة، ولا تتوقف إلا عند حدوث مجاعات ناجمة عن الجفاف أو ارتفاع الفيضان

---

[1] محكمة مصر القديمة: س١٠٥، م٢٣٦، ص٨٢

[2] نفسه: م٤٠٨، ص١٣٦

[3] محكمة مصر القديمة: س١٠٥، م٤١٨، ص١٤٢

بصورة كبيرة تهدد بنشوب كارثة. لذلك كان ضرورياً أن نعرف منسوب النيل فلا نجد مشكلة فى ذلك ما دام عندنا مقياس الروضة هذا المقياس الذى انشئ عام ٢٤٧هـ وعرفت الجزيرة بإسمه فأطلق عثيها " جزيرة المقياس " بمصر القديمة. وقد قامت الإدارة بمصر القديمة بالإهتمام بهذا المقياس خلال القرن. فقد خصصت له جماعة يقومون بتنظيفه نظير ١٠٠٠ بارة تخرج من الخزينة العامرة لحسابهم[١]. وارتبط به أيضاً جماعة المنادين بالبشارة على النيل يقومون بالإعلان عن بداية وفاء النيل يرأسهم أمين أطلق عليه " الأمين على قياس بحر النيل المبارك " وكان الشيخ شهاب الدين أحمد بن أبى الرداد أشهر الأمناء الذين تولوا قياس نهر النيل فى فترة " ١٠٤٣هـ - ١٠٧٦هـ "[٢].

فكانت عائلة أبى الرداد من العائلات التى تعلق اسمها بقياس نهر النيل، حتى أخرجت لهم الخزينة عوائد تحت مسمى " عادات أولاد أبى الرداد أمناء مقياس شريف " نحو ١١٠٠ بارة. وظهرت لهم المراكب العديدة أمام ميناء مصر القديمة.

وقد وفرت الإدارة العثمانية الأمن للمراكب النيلية واهتمت بها، فقد قام سليمان القانونى بنفسه عام ٩٢٧هـ بالتوجه صوب بولاق للإطمئنان على المراكب[٣].

أما أمن المراكب بمصر القديمة، فقد خصص له أمين خاصة يسمى " أمين البحرين بمصر القديمة " الذى يحصل الغلال من رويسا المراكب لصالح شونة الغلال بمصر القديمة، ويتقاضى منهم رسوم سنوية مقابل هذه الحماية[٤].

وقد تعددت المراكب بمصر القديمة فتعلق بعضها فى أملاك أفراد عاديين ينقلون عليها غلالهم وبضائعهم، وخصصت مراكب أخرى لنقل الغلال لجهة السلطنة الشريفة أطلقت

---

[١] دفتر الرزنامة: دفتر مال خزينة عامرة من أقلام سنة ١١١١هـ مخزن تركى ١ ، عين ٢٩، مسلسل ٢١١١ ، رقم الحفظ السنوى ٦

[٢] دشت ١٥٠ لسنة ١٠٥١هـ، ص٧٠١

[٣] د/ ليلى عبد اللطيف: دراسات فى تاريخ ومؤرخى مصر والشام إبان العصر العثمانى، مكتبة الخانجى، ١٩٨٠، ص٣٧

[٤] إسماعيل سرهنك: حقائق الأخبار عن دول البحار ج٢، الجمعية الملكية للدراسات التاريخية، ط١.بولاق، ١٣١٤هـ، ص٣٨

عليهم المصادر اسم " مراكب الرسالة السلطانية ". وبعضها مراكب خصصت لصيد الأسماك مثل مركب " الشختور الصيد " وغيره، فقد انتشرت مصايد الأسماك قبالة نيل مصر القديمة، وقد كان يتم بيع ما يخرج من نهر النيل من أسماك بخط حمام جمدار الذى انتشرت به حلقات السمك وما بها من تجار وفراشين يقومون برش السمك[1]. وكانت كل حلقة من هذه الحلقات أحياناً تختص ببيع نوع واحد من السمك مثل " حلقة السمك البطارخ المملوح الطيب "[2]. وعند حدوث بيع قارب من قوارب الصيد أو حتى استئجارها يقوم المشترى بأخذ هذه القارب وما فيها من الصيادين حتى يضمن المشترى المذكور استمرار عملية الصيد[3].

وقد قمنا برصد أسماء المراكب التى ترددت على ميناء مصر القديمة خلال القرن، وحاولنا أيضاً معرفة أطوالها وبعض المعلومات عنها حتى تتضح الرؤية.

---

[1] محكمة بولاق: س٤٣، م١٠٢، ص٤٤ وكذلك س٥٧، م٥٢، ص١٧

[2] الباب العالى: س١٢٧، م١٨٨، ص٤٢

[3] محكمة مصر القديمة: س٩٨، م٣٥٨، ص٩٩، وقد لاحظ الرحالة (جون أنتيس John Antes) الملايين من الأسماك النيلية مثل البورى والبلطى والقشرة (Kesher) والبونى (Bunni) وكذلك البطارخ التى أسماها البتارجو (Butargo). انظر: جون أنتيس: المصدر السابق، ص ص١٠٩، ١١٠

المركب	طوله
١. المركب الزنكى	٣٥ شبرا
٢. القياسة التى بسنة	–
٣. العقب القياسة	–
٤. القياسة	٢٥-٥٠ شبرا من قاعه
٥. العقب	٢٥
٦. بنوانى	–
٧. الشختور البنوانى	٣٥ شبرا من قاعه
٨. القياسة البنوانى	–
٩. الشختور الأتفينى	٧٠ شبرا
١٠. العشارى	٣٠-٤٠ شبرا
١١. المركب القارب	٣٥ شبرا
١٢. القياسة التى بترس	٢١ شبرا
١٣. القارب الرشيدى	–
١٤. الأشكيف	–
١٥. النفيرة	–
١٦. القياسة الفلوكة التى بترس	–
١٧. الزهيرى	١٠ أذرع، ومنها ١١ ذراع
١٨. ابوافيرى (الابوفيرى)	٢٤ شبرا
١٩. البنوانى التى بسنة	–
٢٠. المركب العشارى التى بترس القشاش	–
٢١. المركب الباطوسى (الباطوشى)	–
٢٢. الزهيرى العقب	٨ أذرع

هذه بعض المراكب التي وردت أمامنا داخل بطون سجلات المحاكم الشرعية، وهي متفاوتة إلى حد ما في الطول، ولكن متقاربة في كميات الحمولة، وقد تعلق بها جماعة الدلالين، أطلق عليهم " الدلالين في المراكب " وقد عثرنا على طائفة من نجارى المراكب بمصر القديمة قاموا بتعمير العديد من المراكب المبحرة ناحية أسيوط[١] علهم يعيدوا لنا أمجاد هذه المدينة التي خصها الإخشيديون منذ زمن لتكون داراً لصناعة السفن عندما كانت تسمى بالفسطاط.

هـ. شونة الغلال بمصر القديمة:

احتلت شونة الغلال بمصر القديمة مكانة بارزة، وحظيت بإهتمام من قِبل السلطنة العثمانية نظراً لما توفره هذه الشونة من غلال لهذه السلطنة، لذلك أدرك سليمان القانوني ذلك جيداً وأدرج ضمن قانونه (قانون نامة سليمان) بنداً خاصاً أطلق عليه " قانون الشونة السلطانية في مصر القديمة "[٢].

وكانت الغلال تخزن بهذه الشونة عن طريق الغلال الواردة إليها من الصعيد على ظهر المراكب كما ذكرنا وقد إلتزمت العديد من النواحي بالوجه القبلي والبحري لتحصيل الغلال لصالح الشونة وتأمين وصوله إليها وتنظيمه وحمايته. وأسمتهم المصادر اسم " المحافظين " وكذلك " أمين البحرين ".

وأطلقت المصادر على الشونة لقب العنبر الشريف وقد كان لهذا العنبر أمين ينظم شئونه ويكون من الأشخاص المشهود لهم بالإستقامة. وقد سجلت الوثائق للشونة أكثر من أمين في نفس الوقت. وكان الأمين يرسل من الباب العالي في مطلع العهد العثماني، ولكن بعد أن تزايد نفوذ رجال الأوجاقات حاولت الدولة خلق عناصر أخرى موالية للسلطنة وكان ذلك في منتصف القرن ١٦، وأصبح منصب " أمين الشونة " قاصراً على رجال طائفة الجاويشية، ولكننا رأينا فيما بعد أن هذه لم تكن قاعدة ثابتة، فقد كان الأمير يوسف جوربجي

---

[١] محكمة مصر القديمة: س١٠٥، م٢٦، ص٩

[٢] قانون نامة مصر: المصدر السابق، ص٢٣

أمينا لعنبر مصر القديمة منذ عام ١١٠٠هـ ، وهو من طائفة عزبان وليس جاويشيا[١]. وغيره كثيرون.

وقد ارتبطت بالشونة العديد من الوظائف لإدارة شئونها وترتيب أمورها، فقد وجد جماعة اليازجية (الكتاب) وهم من جماعة المتفرقة أو الجاويشية الأتراك ومعهم المباشرين ببابها، ويقوم هؤلاء جميعا من الكتبة والمباشرين بضبط الوارد إليها والمصروف منها والمتحصل فيها داخل حواصلها (مخازنها) بموجب الدفاتر الديوانية المشهودة بالإمضاء والختم من قبل الديوان الشريف، وأشهر هؤلاء الكتبة فى النصف الأول من القرن الأمير عبد الكريم، والأمير محمد جلبى من طائفة مستحفظان بقلق.مصر المحروسة / بلوك ١٠٠ / جامكية ٨ فى اليوم والشيخ الفاضل شمس الدين محمد بن المرحوم القاضى بدر الدين ورفيقه القاضى زين الدين[٢]. أما فى النصف الثانى من القرن وجد العديد من هؤلاء الكتبة وأرباب الأقلام منهم حسن أفندى الكاتب التركى والشهابى أحمد بن شهاب الدين الشهير بإبن مهلهل من طايفة مستحفظان[٣].

ووجدنا أيضا وظائف أخرى تتعلق بالشونة كجماعة التراسين الذين يصنعون الزكائب من الشعر لحمل الغلال من الشونة، وقد كونوا طائفة كبيرة يرعى شئونها شيخ يختارونه بأنفسهم تبعا للقانون والعرف السائد بينهم[٤]. وجماعة المغربلين والخزانين والكيالين والوزانين وعمال الدولبة وأمناء المخازن الذين يقومون بتسجيل كميات الغلال الواردة إلى كل مخزن مع تحديد مصدرها من أى ملتزم هى[٥]. واللواحين وسماسرة الغلال بساحل مصر القديمة التى كانت لها مقاطعة إلتزام خاصة بها يتولاها أحد الملتزمين العاديين أو من أهل

---

[١] محكمة مصر القديمة: س١٠٥، م١١١١، ص٣٥٦

[٢] محكمة مصر القديمة: س١٠٠، م١٦٥، ص٨٠

[٣] محكمة مصر القديمة: س١٠٥، م٦٩٧، ص٢٢٦

[٤] نفسه: م٦١٧، ص٢٠٢ وللمزيد عن طوائف الحرف انظر: الفصل الثانى من هذه الدراسة

[٥] عراقى يوسف محمد: الوجود العثمانى فى مصر فى القرنين ١٦، ١٧ دراسة وثائقية ج١، ط١، ١٩٩٦، ص١٩٣

الذمة مثل إسحاق بن إسحاق بن إبراهيم اليهودى الربان الشهير بالكبوسى الملتزم لجهة السمسرة بالشونة الشريفة عام ٩٨٨هـ[١].

وقد كان لهذه الوظائف جميعا الدور الفعّال عندما تستقبل الشونة كميات الغلال الواردة إليها من الوجه القبلى أو حتى الوجه البحرى عن طريق ملتزمى هذه النواحى. وتنقل خلال هذه النواحى على سفن خاصة بالسلطنة الشريفة وتسمى " سفن الرسالة " وإذا لم تكن السفن السلطانية كافية لهذا الغرض فيتم استئجار المراكب الخاصة بالتجار. وكان أغا الرسالة المتحدث على المركب السلطانية يقوم بتكليف بعض الرويسا بقيادة هذه المراكب وحمل الغلال على ظهورها نظير بعض العوايد التى يدفعها لهم، فالأمير رجب أغا المتحدث على المراكب السلطانية فى سنة ١٠٥٤ هـ دفع لكل من الريس شهاب الدين مروان والمعلم عاشور الوحشى ويوسف حميان وغيرهم من رويسا المراكب السلطانية الجارية فى تحدث الأمير العوايد المفروضة على كل مركب من المراكب المذكورة دون زيادة فى ذلك أو نقصان[٢]. أما المراكب الخاصة بالتجار التى تستأجر لنقل غلال السلطنة بجهة الشونة، فقد كانت تكتب (رسالة) على كل تاجر من هؤلاء مضمونها سنة نقل الغلال مع الكمية المكلف بنقلها ومن أى جهة. فالمعلم على بن عبد الله بن داود الرايس ببحر النيل المبارك حمل نحو ١٥ إردب شعير عام ١٠٣٤هـ/١٦٢٤م من رسالة كانت مكتتبة عليه فى هذه السنة لجهة الشونة بمصر القديمة[٣]. أما الرايس حسين بن على الوسطاوى فقد حمل ١٤٠٠ إردبا من الغلال – لم تذكر الوثيقة أنواع هذه الغلال – من ولاية المنفلوطية بالوجه القبلى على ظهر العشارى الجارى فى ملك الأمير على أغا أمين عنبر مصر القديمة المؤجر بإسمه وله فى نظير أجرة حمل ذلك على كل ١٠٠ إردب من ذلك من الفضة ثلاثماية نصف فضة للأمير على أغا خارجا ذلك عن أجرة الميرى الجارى على العادة المتبعة بإعترافهما ودفع العوايد والمصاريف اللازمة عليه بباب العنبر وغيره أسوة أمثاله، وقد تم

---

[١] محكمة مصر القديمة: س٩٥، م٢٤٣، ص٤٨ ، وكذلك محكمة بولاق: س٢٧، م١٠٧٥، ص٢٣٩

[٢] محكمة مصر القديمة: س١٠٠، م٤٠٢، ص١٩٥

[٣] دشت ١٤٤ لسنة ١٠٣٤، ١٠٣٥هـ، ص٨٩

ذلك عام ١٠٩٣هـ[1]. وقد لاحظنا أن الغلال قد كثرت بباب الشونة فى هذا العام وازداد خراج الأرض من الغلال وقتئذ.

والجدير بالذكر أن بعض التجار يتأخرون فى سداد ما عليهم من غلال الرسالة المكتتبة، فالحاج فتيح بن شحاذة الشهير بإبن بعلوم وهو أحد معلمين الحلفاوية ببولاق القاهرة كان قد تعهد بحمل غلال تقدر بألف إردب بكيل الورد من الأمير شاهين كاشف ولاية الأشمونيين لمغل سنة ١٠٩٣هـ الخراجية. ولكنه سدد فقط نحو ٥٥٠ إردب وتأخر عليه نحو ٤٥٠ إردب قام بسدادها فى ذى القعدة من العام التالى[2]. ولما كثرت حالات تأخير سداد الغلال لعنبر مصر القديمة على طول القرن السابع عشر بوجه عام، وفى الربع الأخير منه بوجه خاص صدر بيورلدى فى ذى الحجة ١١٠٧هـ مضمونه " إن كل الرويسا الحاملين لغلال العنبر الشريف بمصر القديمة وكل ريس عليه غلال لجهة الميرى عليه أن يدفع ثمنها لجهة العنبر المرقوم..... "[3].

وتذكر الوثائق أن روح التعاون قد انتشرت بين رويسا الغلال اتضح ذلك من قيام محمد بن الحاج حسن التراس بالشونة بسداد نحو ستة وستين إردبا وثلثاى أدرب من القمح الحنطة الصعيدى لجهة الشونة عن الرايس سالم بن الحاج أحمد العيساوى – أحد الرويسا ببحر النيل – على أن تكون فى ذمته سدادها فيما بعد[4].

والحقيقة أن أهمية الشونة جعلتها محط اهتمام من قبل الإدارة العثمانية، هذه الإدارة التى حرصت دائما على عمران الشونة بالعديد من الغلال، لذلك عددت لها الموارد سواء من الوجهين القبلى والبحرى على حد سواء، ففى الوجه القبلى جاءتها الغلال من المنيا وولاية دجرجا (جرجا) والأشمونيين والمنفلوطية والبهنساوية وغيرها من ولايات الصعيد، وفى

---

(١) محكمة مصر القديمة: س١٠٥، م٣٩٩، ص١٣٤

(٢) نفسه: م٧١٦، ص٢٣٢، كذلك يذكر أن شخصا يدعى هيكل بن خضير المعرف بباب الرسايل السلطانية ببولاق قد تأخر عليه عام ١٠٦١هـ نحو ٤٠٠ إردب قمح من أصل ٢٢٠٠ إردب لجهة شونة الغلال بمصر القديمة. انظر: محكمة بولاق: س٤٨، م٢٦٠، ص١١٤

(٣) محكمة مصر القديمة: س١٠٥، م١٤٥٤، ص٤٧٣

(٤) نفسه: م٣٨٤، ص١٣٠

الوجه البحرى نجد ولاية الشرقية وبالتحديد ناحية منية الخنازير التى استمرت عدة سنوات خاصة فى النصف الثانى من القرن تحت إلتزام الأمير عبدى بيك أمير اللوا الشريف والمحافظ بمصر القديمة الذى وكل نيابة عنه شخصين لحمل الغلال من فلاحى هذه الناحية[١]. وكذلك ولاية الدقهلية والغربية وغيرها. وقد تعددت أنواع الغلال الواردة من هذه النواحى منها القمح والشعير والذرة والفول وبذر الكتان أو حتى حطب الشعشاع والفحم الصعيدى الذى يقدر بالقنطار[٢].

وتعددت المراكب النيلية التى تنقل الحبوب للعنبر الشريف وذكرنا أن منها سفن الرسالة وأخرى للتجار والمراكبية، وظهر منها أنواع عديدة مثل العشارى والعقب والأشكيف وغيرها من الأنواع التى تعرضنا لها من قبل، وما تعلق بهذه المراكب من المعرفين المساعدين لأمين البحرين، هذا الأمين الذى أشرف إشرافا كاملا على حركة سير المراكب، فلا يمكن لأى مركب الإبحار إلا بعد الحصول على التراخيص الخاصة بذلك من أمين البحرين هذا أو من ينوب عنه[٣]. وأيضا كان يجمع من البحارة بعض (العوايد) أو الرسوم الخاصة المفروضة عليهم، مثلما قام النورى على بن عبد الله كتخذا عامل البحرين بساحل مصر القديمة لعام ١٠٧٩هـ/١٦٦٩م بجمع " **عوايد التعريف لجهة عامل البحرين** " من بعض الأفراد بالساحل المذكور ونخص بالذكر منهم الحاج على بن جعفر الأكرادى وسليمان القواس من رويسا بحر النيل[٤].

وقد تعرضت الغلال على ظهور هذه المراكب للعديد من العقبات والمشكلات وصلت لحد غرق بعضها فى نهر النيل ففى عام ١٠٥٩هـ/١٦٤٩م أوثق الرايس طاهر بن العمرى مركبه مائة إردب قمحا من ساحل قنا بالوجه القبلى وأبحر فى سلام قاصدا شونة مصر

---

[١] محكمة مصر القديمة: س١٠٢، م١١٩٧، ص٤٧٠ حملوا له نحو ٣٥٨ إردب ٤٠ إردب قمح، ٣٠٠ إردب شعير، ١٢ إردب فول، ٦ إردب ذرة.

[٢] دشت ١٥٩ لسنة ١٠٥١هـ، ص١٦٦

[٣] عبد الحميد حامد سليمان: الملاحة النيلية فى مصر العثمانية. تاريخ المصريين رقم ٧٦، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩، ص٥٥

[٤] محكمة مصر القديمة: س١٠٣، م١٠٠٣، ص٣٦٩

القديمة حتى وصل قرب جزيرة الروضة بالبر الغربى ولم يشعر إلا وانكسرت مركبه على آثار ساقية قديمة بباطن البحر الأعظم وانفتح من أسفله وغرقت بعض غلالها رغم إغاثة بعض الريسا له[1]. كما غرقت المركب التى بسنة أمام ساحل مصر القديمة فى العام الماضى ١٠٥٨هـ/١٦٤٨م وكانت محملة بالغلال من ولاية البهنساوية لجهة الشونة وقدره ثلثمائة وخمسون إردب ما هو من القمح ثلثمائة، وما هو من الشعير خمسون، وكان على ظهرها الرايس محمد حسن، وحين حل الوقت الأخير من الليل أثناء نوم الرايس محمد المذكور، ما لبثت المركب أن غرقت، فأرسل الحاكم الشرعى الحنفى الأمير مصطفى – كتخذا بساحل العنبر الشريف وهو مندوب الأمير يوسف بيك أمير اللوا السلطانى وناظر الشون بمصر القديمة – وصحبته الشهود إلى الساحل المذكور للكشف على هذا المركب، فوجدوا الماء ملقى بها على الجانب الأيمن من الجهة الغربية وظهره ملئت بالماء أيضا ولم يظهر من الغلال إلا اليسير من القمح. وقد صدر هذا الكشف بحضور الأمير مصطفى المندوب، والأمير درويش بن على كتخذا على القلوع تابع الأمير يوسف بيك والأمير مصطفى شربجى عزبان وكتخذا أمين البحرين بمصر القديمة[2].

وربما العقبات التى تتعرض لها سفن الغلال تتجاوز حد الغرق الذى هو قضاء الله دون صنيع لأحد. فهناك شخص يدعى الرايس سليمان المعروف بأبو تمساح كتب رسالته بالمركب الزهيرى الجارى فى ملك السلطنة الشريفة وأتى بخمسمائة إردب من الشعير من ساحل جرجا لجهة الشونة، ولكنه أوقف المركب عند ناحية الشيخ عثمان[*] بإقليم الجيزية وفر هاربا ولم يعرف مكانه وقام جماعة المعرفين للمركب بإحضاره وما فيه من الشعير إلى ساحل الشونة وضبط ما به من غلال فوجدت نحو ثلثماية وثمانون إردب فقط من الشعير بكيل التحويل، رغم أن رسالتها – كما ذكرنا – خمسمائة إردب شعير[3]. على أية حال

---

[1] محكمة مصر القديمة: س١٠١، م٥٣١، ص١٩٨

[2] محكمة مصر القديمة: س١٠١، م٣١٨، ص ص١١٧، ١٨٨

[*] هى من القرى القديمة إسمها الأصلى منشية طموة من أعمال الجيزية، وجاء إسمها فى تربيع سنة ٩٣٣هـ قيد زمامها بإسمها الحالى. محمد رمزى: المرجع السابق، ص٦

[3] محكمة مصر القديمة: س١٠١، م٥٠٩، ص١٩١

عندما ترسو مراكب الغلال هذه قرب ساحل الشونة، فى التو تتم عمليـــة التفريـــغ وفحـص الغلال للتأكد منها وكذلك مراجعة " تذكرة " الرسالة التى على هذه المركـــب لضمــان وفــاء صاحب الرسالة برسالته. ويقوم الوازنون والكيالون بسحب الغلال ووزنها بعدة مكاييل خاصة متفق عليها سواء – كما ذكرنا – كيل الورد، أو كيل التحويل، وهناك مكاييل خاصـــة بكـل ساحل أو شونة مثل كيل الغلال بساحل بولاق أو حتى كيل الغلال بساحل مصــــر القديمـــة. ويقوم أيضا أمناء المخازن والكتبة بتسجيل كميات الغـــلال قبـل تخزينـــها فـــى الحواصـل (المخازن) فى زكائب كبيرة مصنوعة من الشعر على أيدى جماعة التراسين بالشونة، فكــانت هناك زكائب للقمح والشعير والذرة والحمص.....إلخ.

وكانت إدارة المدينة وعلى رأسها الحاكم الشرعى تقوم سنويا بحصر الغلال داخـــل الشونة تحت مسمع ومرأى من ناظر الشونة وأمينها – حيث كان للشونة ناظر وأميـــن فـــى وقت واحد – حيث توجه الحاكم الحنفى بمصر القديمة وبصحبته شهود مجلســـه فـــى عـــام ١٠٥٨هـ/١٦٤٨م إلى الشونة لحصر الغلال وكان يتولى نظارتها وقتئذ الأمير يوسف بيـــك الذى كان أمير لوا سلطانى بجانب مهام النظارة والإشراف على إدارة شئون الشونة، والأمـير محمد أفندى أمين الشونة الذى تكمن مهمته فى تحصيل الغلال. وقد تبين بعد الإستفسار مـــن السادة الكتبة بالعنبر الشريف أن ما تبقى من الغلال داخل الشونة بعد صرف الجناب العـــالى الأمير عبدى بيك المتحدث السابق على العنبر الغلال اللازمة للجهات التـــى تصـرف فيـــها حسب قانون الشونة وإدارتها نحو " أربعة آلاف وخمسمائة وإثنان وعشرون إردب ونصـــف إردب وربع إردب وثمن إردب "[1]. وقد صنفت هذه الكمية إلى عدة أنواع كما هـــو معيـــن بالمقاطعة الديوانية وجاءت فى الجدول التالى:

---

[1] محكمة مصر القديمة: س١٠١، م٣٠٤، ص١١٢

السلعة	الكمية	وحدة الوزن
قمح	٤٠٣ + ثلثاى وربع ثمن	إردب
شعير	١٣١٣ + قيراط واحد	إردب
فول	٥٤,٥	إردب
حمص	١٩٢	إردب
ذرة	٨٩٥,٧٥	إردب
حلفاة	١٦٦٤,٥	إردب

وهناك على طول القرن السابع عشر العديد من الأوامر الصادرة من قبل الحاكم الشرعى بهدف حصر الغلال وكتابة الحجج بالباقى والمنصرف مما بداخل الشونة[١]. والحق إنه قد تعددت أوجه المنصرف من الشونة، فيخرج منها الجراية المقررة لكل أمير من أمراء الأوجاقات على العادة المتبعة فى قانون الشونة[٢]. وكان لكل شخص أو أمير من هؤلاء قدر معين من الجراية ويحدد فيها أنواع الغلال وفى بعض الأحيان الخارجة عن عادة الشونة. فالأمير عبد الرحمن بن أحمد من أمراء المتفرقة رغب فى إخراج جرايته وقدرها ٤ إردب قمح وإردبان ونصف شعير، فأخرج له منصور بن رقبة خمسة أرادب قمح وإردب ونصف شعير وبذلك أبدل إردب الشعير بإردب قمح دون أمر من الأمير بيالة أمين العنبر الشريف وشهد بذلك السادة اليازجية (الكتبة) بالشونة وجماعة المباشرين والأضاباشية بالشونة[٣]. وكانت الجراية أحيانا كثيرة تتعرض للسرقة.

وكانت تخرج أجزاء كبيرة من غلال شونة مصر القديمة لصالح الحرمين الشريفين أيضا والتى تعتبر بمثابة (مخزن غلال الدولة). وكان هناك ناظر خاص للأنبار الشريفة (الحرمين الشريفين) بمصر القديمة ليرعى شئونها ويضمن توفير الغلال اللازمة لها. فيوسف

---

[١] انظر: ملحق رقم (٥) كنموذج لحصر الغلال بشونة بمصر القديمة فى إحدى السنوات (١٠٥٨هـ/١٦٤٨م).

[٢] إصطلاح جراية: هو أجر أو منحة أو علوفية تصرف لبعض الأمراء وهى شهرية وتساوى إصطلاح جامكية. انظر: أحمد السعيد سليمان: تأصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩، ص٥٩

[٣] محكمة مصر القديمة: س٩٩، م٩٣، ص ص١٤، ١٥

أغا أغاوات الرسايل السلطانية ببولاق لعام ١٠٩٦هـ كان فى نفس الوقت ناظرا على الأنبار الشريفة بمصر القديمة يباشر المراكب المحملة بالغلال ويعاقب المراكبية المتخلفين عن رسالتهم تجاه الأنبار[١]. فمن المعروف أن مصر كانت تزود الحجاز بما تحتاج إليه من غلال منذ صدر الإسلام وظلت هذه السنة مستمرة فى العصر العثمانى، حيث أقر سليم الأول نحو سبعة آلاف إردب غلال لذلك، وصدق على هذا قانون نامة ولكن هذه النسبة زادت فيما بعد خلال النصف الأول من القرن السابع عشر حتى وصلت إلى ٤١٢٠٠ إردب إضافة إلى ما قرره السلاطين لقضاة مكة والمدينة وهو ٥٦٦ إردب ترسله مصر كل عام[٢]. لذلك نشطت العلاقات التجارية بين مصر وبلاد الحجاز وكان لتجار مصر القديمة نصيب وافر منها، وهو ما سوف نلاحظه أثناء تعرضنا للتجارة الخارجية بالمدينة.

وكان لأثوار السواقى السلطانية نصيب من غلال الشونة مسجل ذلك بالتذاكر الديوانية وفى دفتر المباشر بالسواقى المذكورة نظير أجر معلوم يسدده أمين هذه السواقى، وكذلك أجر الكيالين واللواحين والمساعدين، وأجرة حمير وزكايب وشوانين من العنبر، فقد دفع الأمير سليمان بن الأمير محمد جاويش أمين السواقى عام ١٠٧٨هـ نحو عشرة الآف وخمسمائة وثمانية من الفضة الأنصاف نظير الغلال التى أخرجها من عنبر مصر القديمة[٣].

وقد قدرت دفاتر الروزنامة الأموال التى خرجت من الخزينة العامرة عام ١١١١هـ لصالح علف أثوار السواقى هذه فجاءت نحو عشرة آلاف بارة[٤].

وبجانب العسكر والأغاوات كان أيضا لكل من رجال المالية والعلماء والشيوخ نصيب من غلال الشونة. وكان الأمين يوزع التقاوى على كل قرية على أن يسجل ذلك فى دفاتر خاصة ليستوفى مقدارها وقت الحصاد . وإذا تبقى غلال فى الشونة بعد ذلك تطرح

---

[١] محكمة بولاق: س٥٨، م٥٧٣، ص٩٤٤

[٢] حسام محمد عبد المعطى: العلاقات المصرية الحجازية فى ق١٨، الهيئة المصرية العامة للكتاب. سلسلة تاريخ المصريين رقم ١٤٩، ١٩٩٩، ص٢٥٥

[٣] محكمة مصر القديمة: س١٠٣، م٥٨٥، ص٢٣١

[٤] دار الوثائق: دفتر مال وارد الخزينة العامرة من أقلام سنة ١١١١هـ رزنامة ٢١١١. - رقم الحفظ السنوى ٦، عين ٢٩، مخزن تركى ١

كميات منها فى القاهرة، وأحيانا تباع للتجار المصريين أو الأجانب (الافرنج) فى الثغور بعـد موافقة الباشا[١].

وفى أوقات كانت السـلطنة العثمـانية تحتاج كميات من الغلال، فيقوم الباشا علـى الفور بإصدار أوامره بطرح وتجهيز الكميات المطلوبة من بولاق ومصـر القديمة والقـاهرة والإسكندرية وإرسالها إلى إسطنبول.

و. النشاط التجارى مع أنحاء مصر المختلفة:

ارتبطت مصر القديمة خلال القرن بعلاقات تجارية مع أقاليم مصر المختلفة سـواء مدن الصعيد أو الدلتا أو حتى باقى أحياء القاهرة ولاسيما حى بولاق وطولون. وقد ظهر ذلك بجلاء فى عملية تبادل السلع المختلفة أو الرحلات التجارية البعيدة التى يقطعها التجـار فـى عمق نهر النيل الذى كان أهم طريق تجارى ربط بين شمال مصر وجنوبها.

١. مع أقاليم الصـعيد:

تعود العلاقات التجارية بين مصر القديمة والصعيد إلى ما قبل القرن السابع عشـر. فقد كثرت الرحلات التجارية بينهما منذ القرن السادس عشر عبر نهر النيـل لنقـل الغـلال المختلفة إلى شونة مصر القديمة أو سلع أخرى مما تحتاجها المدينة وتتوافر فى صعيد مصر. فنقل الرايس محمد بن على كميات كبيرة من القمـح من فلاحين ناحيـة الدواديـة بالوجـه القبلى على ظهر المركب الزنكـى إلى مصـر القديمـة عام ٩٣٧هـ[٢]. وكذلـك تذكـر الوثائق وجود رحلات تجـارية فى النصف الثانى من القرن السـادس عشـر بيـن مصـر القديمـة وملـوى وجرجـا، وقدرت إحدى هذه الرحـلات التى تمت عام ٩٨٨هـ بنحـو خمسـة دنانير ذهابا وإيابا[٣]. ووصـلت هذه الرحلات فى عمـق النيل حيث أبحر النوتيـة (البحـارة) من جزيرة أبريم إلى مصـر القديمـة والعكـس ومثل هذه الرحـلات كـانت

---

[١] عراقى يوسف محمد: المرجع السابق، ص١٩٤

[٢] دشت ١١ لسنة ٩٣٧هـ

[٣] محكمة مصر القديمة: س٩٥، م٢٦٥، ص٥٣

تحتاج مرشد أو كشاف يرشد هؤلاء التجار الغرباء إلى الأماكن التى يقصدونها نظير أجر معين[١]. ويذكر أن جماعة من جزيرة أبريم هذه وبلاد النوبة وساو حضروا فى بداية القرن السابع عشر وبالتحديد فى جمادى الثانى عام ١٠١٩هـ/١٦٠٩م إلى ساحل مصر القديمة قبالة سوق دار النحاس واشتروا من المدينة نحو مائة وعشرون سيفا جديدا وقاموا بشحنها فى مركبهم، ولما استفسر منهم الأمير حسن جاويش صوباشى مصر القديمة آنذاك عن سبب شرائهم لهذه السيوف، فأجابوا إنها لأمير أبريم تكون له عونا لإخماد حركات التمرد التى نشبت ضده فى الجزيرة[٢].

وكانت المدينة تستقبل من صعيد مصر كميات كبيرة من الفحم والحطب خاصة من الأقصر وكذلك الحلفاة التى تقدر بالعقدة، حيث كانت تستخدم فى المطابخ والأفران الحديد داخل المدينة[٣]. وعملية نقل هذه البضائع تتم على ظهور المراكب النيلية نظير أجرة معينة، أما أهم سلع الصعيد للمدينة – ولا شك – هى الغلال بجميع أنواعها سواء القمح أو الفول أو الشعير، وقدرت بكميات كبيرة خلال القرن يصعب حصرها كما سبق الإشارة. لذلك حرصت الإدارة العثمانية دوما على ضرورة وصول هذه الشحنات إلى شونة مصر القديمة. فصدرت العديد من الأوامر التركية لهذا الغرض.

أما إقليم الفيوم الذى هو فى عداد صعيد مصر، فتؤكد الوثائق على وجود الصلات التجارية والإجتماعية الوثيقة بين المدينتين منذ بداية القرن. فتذكر سجلات الدشت لعام ١٠١٣هـ/١٦٠٣م أن المعلم على بن صولى الكباشى من أهل مصر القديمة قد تسلم من

---

(١) محكمة مصر القديمة: س٩٢، م٨٣٠، ص١٤١، وجزيرة أبريم هى إحدى قرى مركز عنيبة بمحافظة أسوان وهى من القرى القديمة وسميت فى فترة من الفترات بإسم "القابضة" لأنها كانت مركزا لإقامة القابض أى الصراف المعين لتحصيل الأموال الأميرية المقررة على أراضى بلاد مركز الدر. انظر: رمزى: القسم الثانى ج٤، ص٣٠، ويذكر ابن الوكيل فى التحفة أن الوالى محمد باشا المعروف بقول قران (١٠١٦/١٠٣٠هـ–١٦٠٧/١٦١١م) نفى إلى تلك الجزيرة نحو ١٣ سنجقا بعد رفع السالينات (المرتبات) عنهم لما عرف أنهم قد تورطوا فى قتل الوالى إبراهيم باشا والى مصر عام ١٠١٣هـ/١٦٠٤م. انظر: ابن الوكيل: المصدر السابق، ص١٦٧

(٢) محكمة مصر القديمة: س٩٨، م٨٢٠، ص٢٣٧

(٣) تقدر الحلفاة بالعقدة أما الحطب فيقدر بالشدة، وزنة كل شدة نحو خمسة أرطال بالمصرى. انظر: محكمة مصر القديمة: س٩٥، م٥٢٩، ص١١٠

ناحية أم الخنازير بالفيوم[*] ثلاثة وثلاثون زكيبة من الفول الصعيدى السالم من العيوب وتقدر كل زكيبة بنحو ٤ وبيات بالكيل المصرى[1].

وقد تردد العديد من أبناء مدينة الفيوم على مصر القديمة، وبمرور الزمن أصبح لـهم كيان إجتماعي داخلها. وكانت العادة المتبعة على الأحمال الواردة من ناحية الفيـوم، أن كـل حمل محزوم عليه موجب ٣٥ نصف فضة. وقد اعترض على ذلك شخص يدعى عبد البـاقى الفيومى حضر إلى مصر القديمة عام ١٠٧٩هـ ومعه أحمال كثيرة، ولما طلب منه الموجـب وهو ٣٠ نصف ناقص عن القانون و ٥ أنصاف عادية للسيدار فإمتنع عن الدفع رغم تحذيـر موسى اليهودى – وكيل الملتزم على الموجبات – له، لذلك رفع إمضائه الجمالى يوسف الشاد بديوان الموجبات[2].

وخلاصة القول أن صعيد مصر كانت بمثابة مخزن الغلال والبضائع لمصر القديمـة خلال القرن، نشطت بينهما الصلات التجارية والإجتماعية. حيث استقر بعض الأهـالى مـن الصعيد بمصر القديمة وانتشروا فى معظم خططها وامتلكوا العقارات ومارسوا العديـد مـن المهن. فالمحترم عبد الجواد بن الحاج محمد من أهالى كوم أذريح بالوجه القبلى قاطن بمصـر القديمة ويعمل تبان بها، ومحمد بن أحمد بن غزالة من أهالى ناحية قفارة بالبهنساوية يقطـن بمنزل مساحته ١٢ سهما من أصل ٢٤ سـهما بحارة الدخامسة بفم الخليج، ورأينا من قبـل العديد من الرباع خصصت لهم " مثل ربع الصعايدة " وغيره من الأماكن بالمدينة ..... إلخ.

٢. مع مـــدن الدلتا:

دائما ما يتردد أن مصر القديمة قبلتها الصعيد بينما بولاق تولى وجهها شطر الوجـه البحرى. هذا الحكم يحتاج بعض المراجعـة. ذلك أنه يعنى أن مصر القديمة ليـس لـها أى نشاط – ولو على نطاق ضيق – مع مدن الوجه البحرى. إننا نؤكد علـى وجـود روابـط جمعت بين أبناء مصر القديمة والوجه البحرى، صحيح أنها علاقات لـم تكـن علـى نفـس

---

[*] أم الخنازير: وردت بهذا الاسم فى دفتر تربيع ولاية فيوم وبهنساوية واجب سنة ٩٣٣. فيوم ناحية رقم ١٢٧

[1] دشت ١٢١ لسنة ١٠١٣هـ، ص٨٨

[2] محكمة مصر القديمة: س١٠٣، م٩٩٢، ص٣٦٥

الدرجة التى كانت لها مع الوجه القبلى. فقد كان السنا المكى والسنا الصعيدى والخيارشـــنبر يحمل من مصر القديمة إلى الثغر السكندرى[١].

وكانت المراكب تبحر من مصر القديمة إلى المنوفية بفرع النيل ذهابا وإيابـــا لنقــل البضائع والغلال. فتذكر الوثائق وصول مراكب مصر القديمة إلى ساحل شــذوان (شــنوات) بالمنوفية[٢]. وفى عام ١٠١٠هـ/١٦٠٠م استأجر عبد المنعم بن الشــيخ صــالح المعــروف بالمساطى عين أعيان السادة التجار بمصر القديمة أراضى طينا سواء بناحيتى دمنهور شــبرا ومنية نما لمدة ســنة بأجرة ٣٤٠٠ نصف فضة[٣].

ومن ناحية أخرى امتلك رجل من طوخ (من أعمال القليوبية) قطعة أرض خلـف دار النحاس قرب حمام السادة الأربعين والشيخ محمـــد الحويــوى، ولكنـــه قــام ببيعـــها عـــام ١٠٥٥هـ/١٦٤٥م[٤].

ولدينا وثيقة فى غاية الأهمية مؤرخة بتاريخ (١٤ ذى الحجة لعام ١٠٥٤هـ) تؤكــد نقل العجوة البلح من إقليم الشرقية إلى مصر القديمة، ويقدر ثمن قنطار العجـــوة بنحــو ١٥ قرشا[٥]. وهناك وثيقة أخرى بتاريخ ١٠٧٦هـ توضح أن شخصا يدعى على بن شاهين بـــن منصور من أهالى منية خباج بإقليم الغربية أصبح الآن يقطن بمصر القديمة ويعمـــل بمقـــهى بخط حمام جمدار، بل أصبح يتاجر فى البن الأخضر بشكل يخدم مهنته[٦]. وتعود أهمية هــذه الوثيقة والعشرات مثلها على مدى انتشار بعض أهالى الوجه البحرى داخل المدينة، ولا ريـب أن ذلك جاء نتيجة طبيعية وتأكيدا على العلاقات التى جمعت بين الطرفين.

---

[١] محكمة الباب العالى: س٧٤، م٢٧٢٣، ص٥٠٢

[٢] محكمة مصر القديمة: س٩٣، م١١٨٥، ص٢٢١ لسنة ٩٧٩هـ

[٣] محكمة الباب العالى: س٧٤، م٣٦٢، ص٤٢٦

[٤] محكمة مصر القديمة: س١٠٠، م٥٤٦، ص٢٧١

[٥] نفســـــــــه: م٤٢٨، ص٢١٢

[٦] محكمة مصر القديمة: س١٠٣، م١٣٠، ص٥٨

٣. مع بولاق القاهرة:

كانت بولاق بجانب مصر القديمة منفذا رئيسيا للقاهرة على النيل خلال العصر العثماني. وتشير نيللى حنا كيف كان لبولاق عمقا فى تاريخ مصر العثمانية، وكيف كان لمينائها دورا هاما لتجارة ومرور القاهرة يقصدها التجار فى سهولة ويسر من كل صوب وحدب[١].

أما عن العلاقات التى ربطت بين مصر القديمة وبولاق فهى علاقات قديمة تعود إلى ما قبل فترة الدراسة التى يتناولها بحثنا هذا فالمراكب النيلية والحركة التجارية كانت بينهما منذ بداية العصر العثمانى فتسجل الوثائق سير المراكب بينهما محملة بالغلال والبضائع المختلفة بل أنه فى أحيان عديدة كانت البضائع تنقل من الوجه القبلى إلى الميناءين مناصفة. فقد حمل الخواجا عبد الصبور بن أبى الفتح العجمى من ناحية الأخضرين بالوجه القبلى إلى ساحل بولاق ومصر القديمة على ظهر مركبه العشارى ٤١ حملا من الفحم المحروق و ٢٨٧ قنطارا بالوزن القبلى من حطب السنط[٢].

وتذكر سجلات المحاكم الشرعية العديد من النماذج التى تدل على العلاقات التجارية التى ربطت بين أهالى المدينتين من بيع وشراء أو استئجار أو حتى قروض. ففى عام ١٠٠٩هـ اقترض محمد بن يوسف بن خليل الوفائي القاطن بمصر القديمة مبلغا قدره (٤٠٠) نصف فضة من الحاج على بن أحمد بين عبيد الشهير بالدبش المتسبب فى الأرز ببولاق[٣]. وكان لسماسرة الغلال ببولاق تعاملات بشونة غلال مصر القديمة والعاملين بها. فقد إشترى يوسف بن حميده أحد رجالات الشونة المذكورة ٢٠٠ إردب من الفول الصعيدى من المعلم أحمد بن موسى عين أعيان سماسرة الغلال فى بولاق وقد تمت هذه الصفقة عام

---

[١] Nelly Hanna: An Urban History of Bulaq in The Mamluk and Ottoman Periods. Cairo, 1983. P7

[٢] محكمة بولاق: س٢٤، م١٩٦٣، ص٥٣٥ لسنة ١٠٧٠هـ وكذلك نفس المحكمة: س١٩، م٢٣٠، ص١١٠

[٣] محكمة بولاق: س٢٢، م١٤٠٥، ص٣١٣

١٠٢٣هـ/١٦١٣م نظير مبلغ تسعة آلاف نصف فضة[١]. بل ذهبت العلاقة بينهما لأبعد من ذلك فقد عقدت العديد من المصاهرات بين أهالى المدينتين، وحملت أسماء بعض الحارات بمصر القديمة مسمى حارات أخرى فى بولاق نذكر منها على سبيل المثال حارة الدخامسة بفم الخليج وحارة الدخامسة ببولاق.

والجدير بالذكر أن كميات الملح الخاصة بتمليح الجلود بمصر القديمة كانت تخضع لإلتزام سقالة مقاطعة خضراء بولاق وشونة الملح السلطانى لبعض فترات القرن السابع عشر. فتذكر سجلات الدشت إنه فى عام ١٠٦٥هـ/١٦٥٥م توجه السيد الشريف جمال الدين يوسف العاملى الوكيل الشرعى عن المعلم يعقوب المهدوى الملتزم بسقالة المقاطعة المذكورة. إلى خط حمام جمدار بمصر القديمة بعدما نما لعلمه أن جانب من الملح موضوع بحاصل داخل حارة الخواجا أبو سعيدة المغربى بالخط المذكور وكان مقداره نحو سبعة أرادب ولم يؤخذ عليه موجب لجهة الملتزم المذكور، ولكن ثبت للوكيل الشرعى إن هذه الكمية من الملح خالصة من جانب الموجب الجارى به العادة[٢].

وبجانب بولاق ارتبطت مصر القديمة بعلاقات مختلفة مع باقى أحياء القاهرة العثمانية، فتؤكد الوثائق على وجود حالات بيع وشراء بين مصر القديمة وقناطر السباع وحى طولون والصاغة وغيرها . فيذكر أن الحطب كان ينقل من شون مصر القديمة على ظهور الجمال إلى حى طولون خلال القرن[٣]. وفى عام ١٠٥٨هـ اشترى منصور بن سليم الجزيرى التاجر بسوق الجملون من الحاج على بن كشك العداد بشونة مصر القديمة، حصة قدرها ثمانية أسهم شائع ذلك فى جميع المكانين الكائن أحدهما ببولاق والثانى خارجها برأس

---

[١] محكمة بولاق: س٢٩، م٦٤٧، ص١٦٠ ، وعن التعاملات بين شونة الغلال بمصر القديمة وسماسرة الغلال ببولاق انظر: محكمة قناطر السباع: س١٣٤، م٢، ص١ توضح الصفقة التى تمت عام ١٠٦٧هـ

[٢] دشت ١٧٤ لسنة ١٠٦٥هـ ص٩١

[٣] محكمة طولون: س٢٠١، م٩٥، ص٢٠٠

درب ابن كله بخط رملة العرب، وقدرت هذه الحصة بـ ١٥٨ قرشا من الفضة الأبى كلب الكبير [١].

وتعتمد باقى أحياء القاهرة على القمح الوارد من شونة الغلال بمصر القديمة أو بولاق الذى ينقل إليهم فى زكائب على ظهور الحمير والجمال أو البغال، وكذلك المصنوعات الفخارية لاسيما القلل التى يتم شغلها بفم الخليج [حارتا الكيزانية والدخامسة]. وكما ذكرنا فى بداية هذا الفصل، فقد امتلك العديد من تجار مصر القديمة عقارات وأماكن تجارية بالقاهرة المحروسة والعكس بالنسبة لتجار القاهرة، فوجدنا السيد عبد الفتاح أبو الأكرام الوفائى يمتلك مصبغة معدة لصبغ الحرير بخط قنطرة أق سنقر، وعدة أملاك أخرى بسويقة السباعين وحول الجامع الأزهر، ورأينا كيف كان له ولولديه محمد أبو الفضل وعبد الرازق أبو العطا علاقات تجارية راسخة مع تجار القاهرة المحروسة.

التجارة الخارجية:

كان طبيعيا أن تكتمل أركان الزاوية، فالنشاط التجارى الذى شهدته المدينة على الصعيد الداخلى لابد وأن يوافقه نشاطا آخر لا يقل عنه أهمية ألا وهو النشاط الخارجى. فمخطئ من كان يظن أن نهاية أحلام مصر القديمة تتبلور فقط حول علاقاتها مع صعيد مصر أو الوجه البحرى لتوفر ما يمكن توفيره للقاهرة التى تمثل مع بولاق منفذى العاصمة على النيل فقط. بل خرجت المدينة من عباءة تلك الدائرة لتساهم فى النشاط الخارجى الذى شهدته مصر العثمانية خلال القرن السابع عشر.

فموقع مصر الجغرافى مكنها من أن تلعب دور الوسيط التجارى بين الشرق والغرب، وأن تتحكم فى تجارة الترانزيت (العبور) نظير المكوس الجمركى المفروض على هذه التجارة. كان ذلك وراء ثراء دولة المماليك فى مصر والشام، هذه الدولة التى تحكمت فى تجارة البحار الشرقية الوافدة إلى مصر عبر البحر الأحمر من الجزيرة العربية واليمن والهند

---

[١] باب عالى: س١٢٦، م٢٩، ص٨

حتى ظهر البرتغاليون بأسطولهم فى البحر الأحمر ووصل فاسكو داجاما إلى مداخل البحر لعرقلة النشاط التجارى العربى فى المحيط الهندى منذ عام ١٥٠٢م وأسر بعض البحارة العرب، وفرض الحصار البرتغالى على المياه الشرقية بقوة عام ١٥٠٦م خاصة بعد وصول البوكيرك[١]. بل وصل الأمر لحد مهاجمة البرتغاليين عدن ومخا وسواكن واستولوا على جزيرة كمران واشتد تهديدهم لجدة، فأرسل الغورى أسطولا من ميناء السويس بقيادة حسين الكردى الذى تمكن من طرد الأسطول البرتغالى حتى مشارف الهند فتبعه الكردى بعدما أرسل إليه الغورى حملة بحرية أخرى بقيادة سليمان الريس غير أنهما لم يحققا النجاح المطلوب[٢]. وجاء طريق رأس الرجاء الصالح وموقعة مرج دابق ليسطرا نهاية الدولة المملوكية فى مصر. وبعد ذلك استطاع الأسطول العثمانى بقيادة سنان باشا هزيمة الأسطول البرتغالى أمام شواطئ مصوع وبنوا القلاع وطردوا البرتغاليين نهائيا من المنطقة منذ عام ١٥٥٧م واستقرت السيطرة العثمانية على طول شواطئ البحر الأحمر الإفريقية[٣]. وبذلك استطاع العثمانيون أن يعرقلوا حصار البرتغاليين للطرق القديمة. وحلت الأساطيل الإنجليزية والهولندية محل الأسطول البرتغالى فترة القرن السابع عشر.

وكان نجاح العثمانيين فى إحكام قبضتهم على تجارة البحر الأحمر ومدنه مع وجود المنافسة التجارية بين كل من الإنجليز والهولنديين وكذلك الفرنسيين واهتمام هذه القوى بتجارة مصر. كل ذلك كان له أثر فى إثراء ونشاط تجارة مصر فى المنطقة خلال الفترة موضع الدراسة.

والحقيقة أن هدفى من إلقاء الضوء حول تجارة البحر الأحمر عند معالجتى للتجارة الخارجية لمصر القديمة جاء ذلك مرهونا بطبيعة اتجاه المدينة وتجارتها صوب تلك الأصقاع أكثر من غيرها. فلم تكن هناك علاقة تجارية صريحة بين المدينة ودول أوربا رغم تبادل

---

(١) عبد الرحيم عبد الرحمن: فصول من تاريخ مصر الإقتصادى والإجتماعى فى العصر العثمانى، ص١٢٢

(٢) مصطفى على السيوفى: تاريخ التجارة الخارجية فى مصر إبان الحكم العثمانى. رسالة ماجستير بآداب القاهرة عام ١٩٧٢، ص٣٥

(٣) أحمد عبد الرحيم مصطفى: فى أصول التاريخ العثمانى، دار الشروق، ص١٠٠

العديد من السلع والبضائع بينهما، ولكن ذلك يتم من خلال وسيط كان فى معظم الأحيان هـو ميناء بولاق النشط مع مدن الشمال أكثر من غيرها.

وقد تعددت الطرق التجارية بين مصر وبلدان البحر الأحمر وإفريقيا فتؤكد الوثـائق وجود طريق تجارى صريح بين مصر القديمة وبلاد الحجاز حيث تدخل المراكب من بـلاد الحجاز الشريف إلى السويس ومنه عبر الجمال إلى خط حمام جمدار مباشرة[١]. وهذا يعنـى أن منطقة حمام جمدار كانت بمثابة محطة تجارية للمدينة. وغير خاف أن الجمال آنذاك كانت أهم وسيلة للنقل عبر دروب الصحراء، وأى رحلة تقصد السويس مثلا لابد من اصطحابـها عددا لا بأس به من الجمال. فقد أقر الرحالة تفنو إنه تحرك من القاهرة صوب السـويس ثـم عاد فى موكب عدته ٢٠٠ جمل[٢].

وتذكر وثيقة أخرى مؤرخة فى ١٧ شوال عام ١٠٨٩هـ/١٦٧٩م وجود طريق برى خالص إلى الحجاز دون عبور البحر الأحمر. حيث تقلع قوافل الجمال من مصر المحروسـة إلى مكة المشرفة عبر سيناء وجنوب فلسطين ثم جبل عرفات ومنى، وتعود أدراجـها مـرة أخرى من حيث أتت[٣]. إضافة إلى طريق النيل الذى يربط مصر القديمة مع بلدان إفريقيـا. ومن خلال هذه الطرق انتقلت تجارتها الصادرة والواردة إلى عدة نواح مختلفة.

١. تجارة مصر القديمة مع الجزيرة العربية والقدس والهند:

ساعد الطريق التجارى بين مصر والحجاز على وجود علاقات تجارية بين البلديـن، ولما كان الطريق طويلا وعبر الدروب الصحراوية الوعرة عمل حكام مصر علـى تأمينـه وتوفير المياه اللازمة للقوافل المسافرة عن طريق إصلاح بعض عيون الماء. فقد قام السلطان الناصر محمد بن قلاوون بتنظيف بعضها فى الطريق بين مصر ومكة عام ٨٢٨هـ[٤].

---

[١] محكمة مصر القديمة: س١٠٣، م١٠٨٤، ص٤٠٠ لسنة ١٠٨٠هـ

[٢] Thevenot Op. Cit. P308

[٣] محكمة مصر القديمة: س١٠٤، م٢١٠٨، ص١٥٦٦ لسنة ١٠٨٩هـ

[٤] عبد القادر بن محمد الجزيرى: درر الفوائد المنظمة فى أخبار الحاج وطريق مكة المكرمة. مخطوط بدار الكتب القومية. تاريخ رقم ١٥٧٠، ميكروفيلم ٣٥٧٤٩، ص١٠٨

وكان ميناء الطور هو الميناء الرئيسى للحركة التجارية مع الجزيرة العربية حتى سنة ٩٥١هـ/١٥٤٣م عندما أصدر السلطان سليمان القانونى أوامره بنقل النشاط التجارى من الطور إلى السويس فى أعقاب مهاجمة إستيفان داجاما للطور فى إبريل ١٥٤١م[١]. ولكن لا يعنى ذلك إهمال الميناء كليا. فقد ذكر الرحالة أوفنجتون Ovington الذى زار ميناء الطور Toar عام ١٦٨٩م أن القوافل العائدة من مكة إلى مصر تأتى إليه للتزود بالماء[٢]. وعموما تؤكد الوثائق أن مدينة السويس هى المحطة الأساسية لتجارة العاصمة مع بلاد الحجاز، وأن ميناء السويس على البحر الأحمر يدار بواسطة القاهرة الكبرى التى تبعد عنه بنحو ٥٠ أو ٦٠ ميلا[٣].

وقد قام تجار مصر القديمة بحمل الماء على ظهور الجمال إلى مكة المكرمة نظير مبلغ يدفعه هؤلاء التجار للجمالة. فقد دفع الحاج يوسف بن وفا الحطاب بخط فم الخليج لكل من منصور بن بطيحة وولده سلامة الجمال كلاهما بساحل مصر القديمة مبلغا قدره ستون قرشا عن حمل واحد ونصف حمل من الماء من مصر المحروسة إلى مكة المشرفة ذهابا وإيابا[٤]. بل أن بعض الجمالة بمصر القديمة يسافرون بجمالهم لصالح بعض التجار إلى مدن الحجاز لنقل البضائع نظير أجر معلوم. حيث سافر ياسين بن سعد الدين الدخميسى بفم الخليج عام ١٠٧٧هـ/١٦٦٧م مع الحاج عياد بن عمر الجيزى إلى بندر مكة وجدة لنقل بضائع له على ظهر جماله نظير ١٢ قرشا أجرة حمل ثلاث جمال فقط[٥].

---

[١] الجزيرى: المصدر السابق، ص٤٤ – وقد زار الطور الرحالة Pitts (١٦٨٥م) وقال إنها مدينة صغيرة كانت بها بعض الإصلاحات، وميناؤها الهام يمر عبره المسافرين، وتنقل سيناء إلى الطور الكثير من الفاكهة خاصة المشمش المخزن فى صفائح، ويكون السفر عبر حافة الجبل الذى يبعد عن حافة البحر بنحو ٦ أو ٧ أميال. انظر:
Joseph Pitts: Voyage de 1685 AÉTÉ imprime en 1981 Francais. P142

[٢] John Ovington: Voyage de 1689 – AÉTÉ inprime en 1981 Francais. P154

[٣] Ovington: p157

[٤] محكمة مصر القديمة: س١٠٣، م١١٠٠، ص٤٠٩ لسنة ١٠٨٠هـ

[٥] محكمة مصر القديمة: س١٠٣، ٤٩٧، ص١٩٨

وكانت الغلال هى أهم صادرات مصر القديمة إلى الحجاز خارجا ذلك عـــن غـــلال الحرمين الشريفين التى أشرنا إليها فى موضع سابق إضافة إلى بعض السلع الأخـــرى مثـــل البقسماط والحلبة والجبن .... إلخ. يتضح ذلك من الإرساليات التى يرسلها تجار المدينة إلـــى الحجاز. فهناك وثيقة هامة مؤرخة فى ٩ ربيع أول ١٠٨١هـ بمحكمة مصر القديمة توضـــح الشحنة المحزومة من مصر القديمة لبندر السويس ومنه إلى بندر جدة هذه الشحنة الجارية فى تعلق الأستاذ الأعظم عبد الرازق أبو العطا بن وفا من كبار تجار مصـــر القديمـــة – ســـبق التعرف به – خلال القرن السابع عشر. والجدول التالى يوضح هذه الشحنة وتفاصيلها.

السلعة	الكمية	وحدة الشحن	وحدة الوزن
قمح	٢٢	حمل	إردب
فول	٩٦,٢٥	حمل	إردب
بقسماط	٣ وثلث	حمل	قنطار
زيت مبارك	١٠	زلع-عنها ٦ وثلثى حمل	قدرة
أرز	١٢	حمل	إردب
جبن	٥	زلع-عنها ٣ وثلث حمل.	بط(*)
عدس	٥	حمل	إردب
أقفاص	٨	عنها- ٥ وثلث حمل	–
كشك	٢	حمل	–
حمص	١,٥	حمل	إردب
فريك	٢	حمل	إردب
دقيق	٢٥	حمل	بطة
سمن – عسل – طحينة	١٠	مراود عنها ٦ وثلثى حمل	قنطار
زيت وزيتون وخل	١٣	زلعة عنها ٨ وثلثى حمل	قدرة – خل – جرة
حلبة	١	حمل	–

وقد قدرت الكميات السابقة بنحو ١٦٧٨٠ نصف فضة(١). أما واردات مصر القديمة من الحجاز فيأتى على رأسها البن اليمنى إضافة إلى بضائع يمنية أخرى. ففى عام ١٠٨٠هـ نقل على بن جعفر الفيومى السواق بمركب الحاج سليمان الشاطبى من بلاد الحجاز إلى السويس ومنها إلى خط حمام جمدار نحو أربعة قناطير بن أخضر قلب مغربل بالوزن المعتاد

(*) بطط: مفردها بطة وهى وعاء من الجلد كالقربة وقال الجبرتى فى تعريفها " وهى الظروف المصنوعة من الجلود التى تسمى بطط. انظر: أحمد السعيد سليمان: تأصيل ما ورد فى الجبرتى من الدخيل ص ص٤٠، ٤١

(١) محكمة مصر القديمة: س١٠٤، م٩٦، ص ص٥٣، ٥٤

لصالح الحاج محمد بن ناصر التراس بشونة غلال مصر القديمة[١]. وقد قيـــل إن انســحاب العثمانيين من اليمن عام ١٦٣٥م أدى إلى تراجع السفن التجارية المصرية عن اجتياز جــــدة ولم تعد هناك ثمة رحلات تجارية على ظهور السفن من السويس إلى جدة مباشرة[٢]. ويرجـع تأخر السفن المصرية إلى سيطرة تجار جزيرة ســورات Surat الهندية على الملاحـــة فـــى هذه المنطقة بل وصل بهم الأمر إلى محاولة الوصول إلى السويس نفسها. ولكن فـــى حقيقــة الأمر أن ما تردد من عدم وصول السفن من السويس إلى جدة بعد عام ١٦٣٥م لـــهو قــول تراجعه الوثائق التى تثبت أن تجار القاهرة ومصر القديمة قد وصلوا بسفنهم من السويس إلـــى ميناء جدة بعد هذا التاريخ.

ففى عام ١٠٨٠هـ/١٦٧٠م توجهت مركب النبيطى التى تحمل كميات مـــن الفــول ملك الحاج على بن نجيم التراس بعنبر مصر القديمة إلى بنـــدر جــدة المعمــور بالحجــاز الشريف[٣]. بل وأبعد من ذلك فقد حمل الحاج أحمد بن أحمد الحلفى شيخ طايفة المعاصريـــة بمصر عام ١٠٩٣هـ/١٦٨٣م ما جملته نحو ٦٠٠ قلة من الزيت الحار المبارك المســتخرج من بذر الكتان و ٢٠٠ إردب أرز أبيض مكتال بالكيل المصرى كل ذلك على ظهر مركبـــه من بندر السويس إلى بندر جدة، وعليه أن يبيع هذه السلع ويشترى بثمنها بن قلب يمنى ســالم من العيوب وأن " يحمله بالمراكب من بندر جدة إلى السويس ثم إلى مصر المحروسة وبينهما – حيث كان له شريك يدعى الخواجا محمد بن الخواجا أحمد الشهير بالخطيب – الله تعـــالى بالربح فى ذلك يكون محسوبا بينهما نصفين بعد المصاريف اللازمة ..... "[٤].

---

[١] محكمة مصر القديمة: س١٠٣، م١٠٨٤، ص ص٤٠٠، ٤٠١ – انظر: ملحق رقم (٧) الخاص بتجارة البن بين مصر القديمة والحجاز من خلال مدينة السويس.

[٢] Michel Tuchscherer. La Flotte Inperiale De Suez 1694-1715. Turcica. 20 – 1997 pp47-59. France p48

وكذلك انظر: حسام محمد عبد المعطى: المرجع السابق، ص ص١٥٢، ١٥٣

[٣] محكمة مصر القديمة: س١٠٤، م١٦، ص٧

[٤] محكمة الزاهد: س٦٨١، م٢١٨، ص٨٨ أعوام "١٠٩٢-١٠٩٧هـ"

وقد وصلت البضائع الهندية إلى مصر القديمة عن طريق المـدن اليمنيـة والبحـر الأحمر منذ وقت مبكر عندما خضعت اليمن لحكم العثمانيين، وأصبح الباشا اليمنـى يجلـس على الحكم تحت سلطة العثمانيين نظير دفع الجزية السنوية(١). وقد لاحظ بعض الرحالة الذين زاروا مصر خلال القرن نعنى Edward Brown فى فترة (١٦٧٣-١٦٧٤) هذه العلاقـة التجارية التى جمعـت بين مصـر والهند، وكثرت البضائع المتبادلـة بينـهما، وأن نظـام التعامل بينهما قام فى بعض الأحيان بطريقة المقايضة بدلا من النقود(٢).

وتثبت الوثائق وجود علاقة بين مصر القديمة ومدينة القدس الشريفة، فقد عزم الشيخ عبد الرازق أبو العطا بن وفا فى عام ١٠٩١هـ الذهاب إلى القدس، وقد احتاج لرحلته هـذه جماعة لخدمته وحراسته نظير مبلغ من المال. فإصطحب معه نحو ١٦ شخصا منهم القرابين والسقايين بمبلغ ١٦٨٠ نصف فضة ذهابا فقط(٣). والوثيقة لا تحدد هدف الشيخ عبد الـرازق من رحلته، ولكن يبدو لنا منذ الوهلة الأولى أن غرضها هو التجارة وذلك لإصطحابه هـؤلاء الأنفار بغرض الخدمة والحراسة.

٢. تجارة مصر القديمة مع بلدان إفريقيا:

بجانب طريق البحر الأحمر ومدنه مثل جدة وينبع والسويس والدور الذى لعبه فـى تجارة مصر القديمة مع بلدان الجزيرة العربية، وجد طريق آخر لا يقل عنـه أهميـة نعنـى طريق وادى النيل ذلك الشريان الملاحى الخطير الذى راجت من خلاله تجارة مصـر مـع بلدان القارة السمراء أو حتى إشتراكه مع البحر الأحمر عندما ترسو السفن عند ميناء القصير

---

(١) Abdel Hamid El-Batrik: Egyption – Yemeni Reletion (1819-1840) and Their Implications For British Policy in The Red Sea. P281

والجدير بالذكر أن مصر خلال العصر العثمانى كانت ترسل المحكوم عليهم بالنفى إلى اليمن فى بعض فـترات القـرن السابع عشر.

(٢) Edward, Brown: Le Voyage en Egypte (1673-1674), Co: 28. Ch:5 – 15872 en 1974, Caire p146

(٣) محكمة مصر القديمة: س١٠٤، م٢٤١٠، ص١٦٧١

وتنقل الجمال البضائع عبر الصحراء الشرقية حتى قفط على النيل ومنها تحملها المراكب النيلية إلى العاصمة.

فكانت المراكب تسير فى النيل حتى بلاد السودان لجلب العاج والأبنوس وريش النعام والعبيد والقماش من سنار وكردفان ودارفور والتكرور. فهناك وثيقة بتاريخ ١٠٣١هـ/١٦٢١م تسجل قدوم قافلة التكرور للديار المصرية، وقد قام الديوان العالى بتأمين القافلة حيث برز أمر شريف بخصوص تجار القافلة السودانيين فيقول " بأن لهم مزيد الرعاية ومزيد العناية وعدم المعارضة لفرد منهم وأن يكون عليهم أمان الله وأن من مات من التجار عن ورثة شرعية فترسل لهم مخلفاته إلى بلاد السودان أو على يد وجية أو وكيل ورثته أو على يد شيخ القافلة فليكن التجار مطمئنين الخاطر بسبب ذلك ..... "[١].

ويذكر جيرار أن سوق مدينة إسنا يعتبر مستودع لبعض البضائع الواردة من قوافل سنار ودارفور وكردفان[٢]. وكانت دارفور Darfur تمثل قوافل السودان الرئيسية فى مجال التبادل التجارى مع مصر القديمة، وكانت الرحلة تبدأ – كما يروى عبد الرحيم عبد الرحمن من كوبى Kobbei العاصمة التجارية لدارفور حتى تصل إلى ميناء مصر القديمة بعد دفع الرسوم الجمركية التى يقدرها رجال الجمرك حسب نوع السلعة[٣]. فمثلا الجمل المحمل بالصمغ عليه ٩٠٠ مدينى، أما الآخر المحمل بريش النعام فيدفع ١٩٨٠ مدينى[٤].

على أية حال رغم كثرة البضائع والسلع القادمة من إفريقيا لمصر القديمة من عاج وأقمشة سودانية وحبشية وريش نعام وسن الفيل وغيرها، إلا أن العبيد قد مثلوا أعظم البضائع المجلوبة للمدينة من قلب القارة السمراء خاصة من بلاد الحبشة والسودان لاسيما بلاد العبد الواقعة داخل ناحية كردفان[٥]. وقد تصارع أمراء مصر القديمة على اقتناء هؤلاء

---

[١] دشت ١٤٢ لسنة ١٠٣١هـ، ص٧٤

[٢] جيرار: وصف مصر: الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى مصر فى ق١٨، ترجمة زهير الشايب، جـ٤، ط١، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٨، ص٢٤٦ وأيضا: إستيف: وصف مصر، جـ٥، ص١٦٤

[٣] عبد الرحيم عبد الرحمن: فصول من التاريخ الاقتصادى والاجتماعى فى مصر فى العصر العثمانى، ص٢٣٥

[٤] إستيف: المصدر السابق، ص١٦٤

[٥] دشت ١٥٠ لسنة ١٠٤٢هـ، ص٦٤٧

العبيد السود بجانب نظرائهم من الرقيق البيض المجلوب من الشمال فقد امتلك الأمير يوسف جوربجي المتحدث على المطبخ السلطاني – سبق التعرف به – العديد من الأرقاء السود والبيض على حد سواء، وتسجل الوثائق أنه قام بعتق العديد منهم[١]. كذلك امتلك الأمير سليمان زعيم مصر القديمة في النصف الثاني من القرن العديد منهم. وقد لاحظنا أن بعض هؤلاء العبيد بعد عتقه قد وصل إلى مكانة مرموقة داخل مجتمع مصر القديمة بما حققه من تجارة وثراء مثل الزيني مرجان بن عبد الله معتوق الأمير يوسف جوربجي[٢].

والحقيقة أنه من خلال استقرائنا للأحداث في ضوء وثائق ومصادر القرن لاحظنا أن حجم تجارة مصر القديمة مع بلاد العرب في محيط عالم البحر الأحمر أعظم من تجارتها مع بلدان إفريقيا رغم المخاطر التي اكتنفتها تجارة البحر الأحمر بعد ظهور البرتغاليين في المياه الجنوبية الشرقية. وإذا جاز لنا أن نضع تقييم للصادر والوارد مع كلا الإقليمين نجد أن الغلال هي أهم صادرات مصر القديمة إلى بلاد العرب أما الواردات فيأتي على رأسها البن اليمني. وبلدان إفريقيا نجد العبيد هم أهم مغزى تغزو به القارة أسواق مصر القديمة ولكن حجم الصادرات ضئيل يتمثل في الأقمشة الحريرية أحيانا وبعض الأسلحة المصنعة بمعمل البارود بروضة مصر القديمة.

---

[١] محكمة مصر القديمة: س١٠٥، م٨٩٧، ص٢٨٢ . وغيرها من الوثائق العديدة

[٢] محكمة مصر القديمة: س١٠٢، م١٥٢٣، ص٥٨٢ ، وكذلك نفس السجل، م١٨٧٠، ص٧٠٦، وللمزيد عن العبيد بمصر القديمة انظر: الفصل الإجتماعي من دراستنا.

الفصـــل الخامس

الحياة الإجتماعية والصحية

الحياة الاجتماعية والصحية

أولاً: الحياة الإجتماعية:

كان المجتمع المصرى فى العهد العثمانى وما قبله يتكون من قوى فوقيـــة وأخـــرى تحتية أو بعبارة أكثر دقة أقلية مسيطرة تتألف من الأتراك العثمانيين وبكوات المماليك الذيـــن ازدادوا مع مرور الأيام. وأغلبية تتألف من عامة الشعب المصرى والطبقات الكادحـــة التـــى تتصارع من أجل البقاء مع وجود عناصر أخرى دخيلة على المجتمع وفدت بغرض التجـــارة أو بغرض هجرة استهوتها الحياة فى مصر فمكثت بها وشكلت بمرور الأيام لبنة فى بنيـــان المجتمع.

ومصر القديمة بوصفها جزء من هذا المجتمع أصبح محيط المجتمع داخلـــها يتكـــون من هذه اللبنات. فسكان المدينة خلال القرن السابع عشر كانوا عدة أخلاط حاولنا فى ضـــوء ما هو متاح بين أيدينا من مادة أن نقترب من وضع إحصاء بصفة تقديرية لـــهؤلاء الســـكان فرجال الحملة الفرنسية يقدرون تعدادهم بنحو ١٠ إلى ١١ ألف نسمة من بينهم ٦٠٠ شخص مسيحى[١]. وهو بالطبع إحصاء متأخر عن فترة الدراسة. وعندمـــا نقـــترب مـــن مصـــادر معاصرة لتلك الفترة مثل نتزو مثلاً نجده يقرر أن مصر القديمـــة مدينـــة شـــعبية مزدحمـــة بالسكان وشوارعها مكتظة بهم حتى أنه عندما أبصرها من مكانٍ مرتفع وصفها " بوكر النمل "، ورغم ذلك لم يضع رقماً لعدد سكانها ولكنه أشار إلى أمرٍ لفت أنظارنا وهو أنـــه عندمـــا حدث بها طاعون قد مات ما بين ١٢-١٤ ألف شخص فى الحال[٢]. ولكن هذا الرقم بـــالطبع مبالغ فيه بالنسبة لمدينة مثل مصر القديمة التى هجرها العديد من سكانها للإقامة فى القـــاهرة. وأيضاً من الصعب أن نقبل هذا خاصة بعد تعداد علماء الحملة ، فهل من المعقـــول أن يقـــل

---

[١] دى شابرول: المصدر السابق، ص١١ ، وكذلك جومار: المصدر السابق، ص٣٣٢

[٢] Neitzschitz.Op. Cit. P223

عدد سكانها بهذه الدرجة فى فترة ما قرره نتزو ؟ وما أعلنه رجال الحملة !! وإذا قبلنا بهذا على حد الإفتراض، فهذا يعنى وقوع عدد ضخم من الطواعين والمجاعات التى عصفت بمعظم سكان المدينة وتوقف الحركة والنشاط بها وهو أمر يتنافى مع ما ذكرناه فى فصول سابقة من وجود رواج تجارى ونشاط صناعى بالمدينة آنذاك. ناهيك عن أعداد المنازل المأهولة بالسكان وكذا الربع التى يقر البعض بأن تواجدها دليلاً على تواجد سكانى ملحوظ[١].

لذلك فأى محاولة من جانبنا لوضع إحصاء لعدد سكان مصر القديمة خلال القرن السابع عشر لهى محاولة تكتنفها الصعوبات التى تقلل من مصداقية تقديرنا. فسواء كان تعداد سكانها عشرة آلاف أو أربعة عشر ألف أو يزيدون لهى أرقام نعتقد أنها تقترب للواقع الحيوى للمدينة آنذاك. خاصة أنها منذ أن عمرت لم يفترض لها نوع معين أو فئة بعينها من السكان، وهذا ما صرح به أحمد بن سعد الدين العثمانى فى ١٠٥٠هـ/١٦٤٠م من حيث سكنى الغنى والفقير بها دون نقص[٢]. وهو أمر قد شجع الكثيرون للوفود إليها بهدف السكنى والإستقرار. وتوافرت لها العديد من عناصر السكان خلال القرن من أتراك Turcs ومماليك ومغاربة Moures ويهود juifs وأقباط Coptes ويونانيين Grecs وأرمن Arméniens إضافة إلى عامة الشعب المصرى. هذا ما أعلنه ساندى Sandys وغيره[٣].

---

[١] عن الرباع وسكانها انظر: محمد عفيفى: الرباع فى العصر العثمانى. مقال بمجلة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة، ١٩٩٩، ص١١٦

[٢] أحمد بن سعد الدين العثمانى: ذخيرة الأعلام بتواريخ الخلفاء الأعلام وأمراء مصر الحكام وقضاة قضاتها فى الأحكام من فتحها الإسلامى إلى زمن الناظم. مخطوط بدار الكتب، تاريخ ١٠٤، ميكروفيلم ٥١١١١

[٣] Sandys: Voyage de 1611, p138

فئات السكان:

١. الأتراك والمماليك:

شكل كل من الأتراك العثمانيين والمماليك القوة السياسية الحاكمة فى مصر، فكان منهم الباشا العثمانى وهو وكيل السلطان ورئيس الهيئة الإدارية ويعاونه بعض الموظفين ورجال الحامية العثمانية. والمماليك لا يقلون عنهم، بل إن سليم الأول بعد إتمام فتح مصر عين عليها الوالى المملوكى خايربك. ويطلق على المماليك مسمى الصناجق وعددهم ٢٤ صنجقاً. لذلك تحكم هؤلاء فى سير الأمور فى مصر العثمانية، بل وفى مدينة مصر القديمة على وجه الخصوص، فكما رأينا فى النظام الإدارى مدى السلطات الواسعة لكل من أمير اللوا والقاضى (الحاكم الشرعى) بمحكمة مصر القديمة والصوباشى وغيرهم. وكان من بين هؤلاء ما هو أمير عثمانى وأمير مملوكى فمثلاً الأمير قاسم من طائفة الجراكسة بمصر المحروسة وزعيم مصر القديمة عام ١٠٥٧هـ/١٦٤٧م[١]. نجده عندما يمارس مهما وظيفته يصطحب معه بعض معاونيه من أبناء جلدته مثل الأمير يوسف بن حسين جاويش والأمير حسين بن حسن من طائفة الجراكسة. وهناك العديد منهم ممن كان يقطن بالمدينة وذاع صيته خلال القرن مثل الأمير يوسف جوربجى طائفة عزبان والأمير بهرام جوربجى طائفة مستحفظان وقد سبق وأن تعرفنا على هؤلاء بالتفصيل.

والحقيقة أن هؤلاء الأمراء لم يكونوا متسلطين على طول الخط بل ظهر منهم الكثيرون من أصحاب الخير الذين أعتقوا الكثير من العبيد وساروا بين الناس بالعدل. بل وصل الأمر أن بعضهم قد تزوج بالفعل من الأرقاء بعد عتقهم على صداقٍ كبير. فقد تزوج الأمير بهرام شربجى بن الأمير يوسف القاطن بمصر القديمة فى ٢٠ ذى الحجة ١٠٦٤هـ/١٦٥٤م من صالحة بنت عبد الله البيضاء اللون الجرجية الجنس على صداقٍ قدره ٤٥ قرشاً[٢]. والأمثلة على ذلك كثيرة. وهو أمر بالطبع يؤدى إلى إذابة الفوارق بعض الشئ

---

[١] محكمة الباب العالى: س١٢٥، م١٠٢، ص٣٩

[٢] محكمة مصر القديمة: س١٠١، م١٧٣٢، ص٦٣٨

بين طبقات المجتمع بالمدينة ويعطى نتائج خطيرة لو استمر على ذلك قد يؤدى إلى إحـــداث تغير فى الهرم الاجتماعى للمدينة، ولكن فى الحقيقة أن هذا الأمر لم نشعر به إلا بعض الشئ عند دراسة العبيد كما سنرى، ومدى بزوغ نجم بعضهم بعد العتق ولكن على نطـــاقٍ ضيــق أيضاً.

٢. الأشــــراف:

هم الذين ينتمون إلى الحسن والحسين والسادات التى كان هناك طائفتان منهم (طائفــة السادات الوفائية – السادات البكرية). ورأينا كيف انتشرت السادات الوفائية بمصــر القديمــة خلال القرن ولمعت منهم أسماء عديدة مثل عبد الفتاح أبو الأكرام ونجليه محمد أبو الفضــل وعبد الرازق أبو العطا[١]. وغيرهم ممن استقروا بالمدينة وتزوجوا بها. ففى ١٠ ذى الحجــة ١٠٦١هــ/١٦٥١م تزوج السيد الشريف سليمان بن السيد الشريف محمد بمصر القديمة مـن صالحة بنت حسين القهوجى على صداق ٢٠ قرشاً[٢]. وكان بعضهم يحرص علــى اقتنــاء السيوف الذهبية وكذلك الخناجر وغيرها وهو الأمر الذى اســتهوى الشــريف محمــود بـن الشريف رجب الحسينى الذى اشترى من الأمير سليمان بن محمد جاويش – صوباشى مصـر عام ١٠٧٠هــ/١٦٦٠م – سيفين مطعمين بالفضــة ومطليين بالذهب ورخت مـــن الفضــة وكذلك خنجر من الفضة مطلى بالذهب وأشــياء أخرى ثمينة نظير ٣٠٠٠ نصف فضـــة[٣]. ويروى أن بعض هؤلاء الأشراف كانوا يرتدون الزى الأخضر مما يميزهم عن غيرهم مـــن باقى الطبقات[٤].

---

[١] راجع: الفصل الرابع

[٢] محكمة مصر القديمة: س١٠١، م١٠٧٨، ص٤١٠

[٣] محكمة مصر القديمة: س١٠٢، م٦٠٧، ص ص٢٣١، ٢٣٢

[٤] Henry Costele: Voyage de "1600-1601" p150

٣. أهـل البـــلاد:

نقصد بهم المصريين ممن سكنوا المدينة من تجـــار وصنـــاع وحرفييـــن وســـقايين ومكاريين وغيرهم. وهؤلاء هم اللبنة الأساسية فى عماد مجتمع المدينة خلال القرن، فكـــان التجار الذين يجوبون البلاد طولا وعرضا قد أثروا فى الحركة التجارية لمصر القديمة، فقـــد كان منهم تجار مستقلون بذاتهم يعملون لحسابهم الشخصى داخل أسواق المدينة سواء ســـوق حمام جمدار أو فم الخليج أو دار النحاس أو أسواق خارجية أو يعملون كتجار مراكب لنقـــل الغلال لصالح السلطنة الشريفة أو لأشخاص نظير أجر معلوم.

أما الصناع فقد رأينا فى الفصل الثالث من دراستنا هذه كيف توافر للمدينة العديد مـــن الصناعات التى أشرف عليها صناع مهرة مثل صناعة القلل فى فم الخليج ووجود معلمين بها مثل محمد البديوى ومحمد النقيطى وشكر الزبدانى وغيرهم، وصناعـــة الزيـــوت والقـــائمين عليها من الزياتين والمعصرانية والمدولبين وصناعة ملح البارود ونجارة المراكب والحياكـــة والصباغة والصـــناعات الغذائية بجميع أنواعها.

أما جماعة السقايين فقد انتشروا بمصر القديمة ولعبوا دورا خطـــيرا خاصـــة أثنـــاء ظهور المجاعات، فقد وقع عليهم عبء كبير من توفير المياه أثناء الأزمات. ويذكر ريمـــون أن هؤلاء كانوا ينقلون الماء فى " قراب " ، " سقا القربة " على ظـــهورهم أحيانـــا أو علـــى ظهور الجمال أو الحمير أحيانا أخرى[١]. ولاحظ ريمون أيضا أنهم بوسعهم نقـــل الأخبـــار لطبيعة عملهم، ومساهمتهم فى إطفاء الحرائق التى اندلعت فى بعض الأوقات بمصر القديمـــة نذكر حريق قد وقع يوم ٩ جمادى الثانى ١٠٨٢هـ/١٦٧٢م فى منزل المعلم محمد بن علـــى البوشى القللى بفم الخليج حينما أشعلت النار فى البوص والحلفاة الملاصقين لمنزله[٢]. ويقـــوم هؤلاء السقايون أيضا بصب الماء داخل الأسبلة التى انتشرت بمصر القديمة خـــلال القـــرن نظير أجر معلوم أيضا، فمثلا قدر أجر السقا الذى كان يسكب الماء فى الســـبيل الـــذى يقـــع

---

[١] أندريه ريمون: فصول من التاريخ الإجتماعى للقاهرة العثمانية، ص٩٨

[٢] محكمة مصر القديمة: س١٠٤، م٤٥٣، ص١٦٦

خارج خارجة الوكالة الكائنة بالكفر المستجد بظهر حمام جمدار بمصر القديمة لمدة سنة ١٠٨٥هـ/١٦٧٥م عنها خمسة قروش ونصف وثلث قرش[١].

أما جماعة الحمارة فقد انتشروا فى أنحاء متفرقة من المدينة نظراً لأن الحمير آنذاك كانت وسيلة النقل الأساسية داخل البلاد وكان لهم شيخ يرعى شئونهم وموقف خاص بهم (موقف الحمارة) فتذكر الوثائق تركز جماعة منهم بدار النحاس وعلى رأسهم أحمد بن خليل وصالح بن قميحة من كبار الحمارين بدار النحاس فى منتصف القرن السابع عشر[٢]. حتى الطوائف المتدنية مثل الشحاذين قد انتظموا أيضاً فى طائفة لها شكل داخل مصر القديمة يرعى شئونها " شيخ طائفة الشحاذين ونقيبهم "[٣].

كل هذه الفئات قد تشكل منها المصريون، وقد تعايشوا معاً فترات وئام أحياناً وفترات اضطراب أحياناً أخرى مما قد يصعد الأمور إلى القاضى الذى يصدر الحكم بالفصل فى مثل هذه الأمور التى تهدد أمن المدينة. فتذكر الوثائق وجود حارة تعرف " بحارة المعلم يحيى بن سلطان " بالكفر المستجد بظهر حمام جمدار، عاش أهل هذه الحارة فى وئام واستقرار إلا أن امرأة من جملة القاطنين بالحارة المذكورة تدعى آمنة بنت فليفل الشللى زوجة عوض الحليك تعتدى على سكان الحارة بالسب والقذف والأذية وتهددهم بإحضار اللصوص، لذلك رفع أهل الحارة الشكوى للقاضى بهدف إخراجها من الحارة حتى يعود إليها الهدوء مرة أخرى[٤].

٤. أهل الذمة:

كان أهل الذمة من النصارى واليهود يمثلان شريحة هامة من شرائح المجتمع فى مصر القديمة. ولما فتح العرب مصر وبمرور الزمن نتيجة لمعرفة النصارى أصول الإدارة الداخلية فى البلاد اعتمد عليهم العرب والأتراك بعد ذلك. وقد عمل هؤلاء فى التجارة

---

[١] نفسه: م١٠٧٤، ص٩٧٤

[٢] محكمة مصر القديمة: س١٠٢، م١٤٩٣، ص٥٧٤

[٣] محكمة مصر القديمة: س١٠٠، م٤٣٦، ص٢١٥

[٤] محكمة مصر القديمة: س١٠٤، م٢٤٦٥، ص١٦٩٠

والأعمال المالية وبخاصة الصيرفة وأعمالها التى أجادهـا اليـهود إضافـة إلـى عمليـات الإقراض.

وقد انتشر النصارى بمصر القديمة خاصة فى منطقة قصر الشـمع والتـى سـميت بإسمهم نعنى (حارة النصارى بقصر الشمع) وجاء تركزهم هنا منذ القدم حيث تركزت معظـم مقدساتهم بها. وقد وجدت أكثر من طائفة، فهناك اليعاقبـة والمالكيـة والأروام. وإن كـانت طائفة النصارى اليعاقبة أكثرهم عدداً وعدة.

فتذكر الوثائق العديد من بيوت النصارى اليعاقبة ولدينا الأمثلة العديدة على مثل هـذه البيوت، فجاد الله بن عسيلى وبقتر بن منصور من بيت الصيرفى وعبد المسيح بـن حنيـن الفشنى ومرزوق بن صليب من بيت الحدايدة والقسيس داود بن عطية من بيت حسن والمعلـم قزمان بن جرجس من بيت حديد والمعلم كتكوت بن القسيس نصر الله وجرجس بن غبريـال من بيت نصير الذمى اليعقوبى[١].

وقد حرص هؤلاء اليعاقبة على ضرورة تعمير حارتهم كما رأينا وكذلك مقدسـاتهم الدينية حتى لو جاء ذلك على حساب المقدسات الإسلامية وهو أمر قد عالجناه فـى موضـع سابق. ولا يعنى ذلك وجود سوء تفاهم مستمر بين المسلمين والنصـارى بالمنطقـة فـهناك المئات من الوثائق بين أيدينا تثبت جدية التعامل بين طرفى المجتمع هنا فعلى سبيل المثـال لا الحصر. اقـترض المعلـم سـليمان بـن إبراهيـم البيـاض عشـرة قـروش قبـل عـام ١٠٥٤هـ/١٦٤٤م من المعلم شكيدرا بن المعلم إيلية النصرانى اليعقوبى[٢]. بل ذهب الأمـر لأبعد من ذلك فقد جمعت التجارة كلاً من الشيخ عثمان بن أبى السعود أشهر خطبـاء جـامع عمرو بن العاص آنذاك والمعلم يونس النصرانى اليعقوبى فتذكر بعض الوثائق المؤرخة فـى ١٥ جمادى الأول ١٠٥٦هـ/١٦٤٦م أنهم قاما بإستئجار طاحون فرد فارسى بحمام جمـدار من إبراهيم أفندى كشاف الأوقاف وقتئذ وناظر وقف القاضى حسن السويدى لمدة سنة كاملـة

---

[١] محكمة مصر القديمة: س١٠٠، م٢٣، ص٩

[٢] محكمة مصر القديمة: س١٠٠، م٣٣٢، ص٣٣٢

نظير أجرة عن كل يوم ثلاثة أنصاف من الفضة[1]. وهناك الأمثلة العديدة كما قلنا لا تعد ولا تحصى. وأحياناً كانت تنظر قضايا هؤلاء النصارى أمام قاضى مصر القديمة المسلم سواء كان حنفياً أو مالكياً أو حنبلياً أو شافعياً[2].

وكان يتولى شئون كل طائفة من طوائف النصارى بترك خاص بها مثل " بترك النصارى اليعاقبة ". وكذلك النصارى المالكية والدير الخاص بهم بقصر الجمع. أما طائفة النصارى الأروام فقد نالوا الاهتمام من قِبل الإدارة العثمانية التى أصدرت العديد من البيورلدات من أجل منحهم العديد من الحقوق والمميزات. فقد ورد بيورلدى شريف فى ١٤ ذى القعدة ١٠٧١هـ/١٦٦١م من الباشا مضمونه " بحث قاضى عسكر مصر ونائب مصر العتيقة وقضاة بولاق والإسكندرية ورشيد ودمياط وأغاوات الجوالى وكواخى القبطانات وغيرهم ... أن طائفة النصارى الأروام لهم أربع كنائس وبيمارستان وإنهم ليس لديهم أوقاف ولا كنائس مثل كنائس الروم وإنما يعيش بطريقهم بالصدقات، وقد أبرزوا من يدهم خط حمايون.... بأنهم لا يعارضوا بشئ من التكاليف العرفية .... وبموجب الخط الشريف أعطيناهم هذا البيورلدى بأنكم لا تعارضوهم بشئ ولا تدعوا أحد يعارضهم....."[3].

ثم صدر بيورلدى آخر بعد ذلك بثلاث سنوات فى ٢٢ ذى الحجة ١٠٧٤هـ/١٦٦٤م من الوزير عمر باشا بناء على أوامر سلطانية قد وجهت له من القسطنطينية، فجاء هذا البيورلدى على نفس شاكلة سابقه بعدم التعرض للنصارى الأروام وأديرتهم والبيمارستان الخاص بهم بمصر القديمة[4].

وهكذا شكل النصارى بجميع طوائفهم ركناً هاماً فى مجتمع مصر القديمة خلال القرن هذا الحكم الذى أطلقناه نابعاً ليس من تعرضنا لهم فى هذا الموضع فحسب، بل فى عدة

---

[1] نفسه: م٣٧١، ص٣١٨

[2] نفسه: م٦٣، ص٢٦

[3] محكمة مصر القديمة: س١٠٢، م٩٨٤، ص٣٩١

[4] محكمة مصر القديمة: س١٠٢، م١٨٤٧، ص٦٩٨

مواضع من الدراسة خاصة فى مجال الحركة التجارية والصناعية للمدينة. وقد اختفت لبعض الفترات الحساسية بين الطرفين المسلم والمسيحى رغم الجوار فى السكنى ودور العبادة.

أما اليهود فكانوا معنيين بأمر الجمارك، ففى فترات عديدة من القرن – كما رأينا فـى موضعٍ سابق – كان يدير جمرك مصر القديمة ملتزم يـهودى يعاونـه عـدد مـن الكتبـة والمباشرين والكشاف. ولكن فى الحقيقة أن انتشارهم فى مصر القديمة جاء محدوداً لا يتعـدى منطقة حمام جمدار. وهو أمر يكاد يكون طبيعى لوجود تركز يهودى قرب حارة زويلة نعنى حارة اليهود والتى تمثل – كما يرى محمد عفيفى – جزءاً من حارة زويلة[1].

فظهور اليهود على مسرح أحداث المدينة قليل للغاية، فمن هؤلاء الذمى يعقوب بـن أليا اليهودى الاشدايلى كان يقطن بمنزل خاص به بحمام جمدار مع زوجته الذمية حلوة بنـت الذمى سليمان اليهودى الاشدايلى، وكانت زوجته هذه مثيرة للشغب دائماً ما تخرج من منزلها دون إذن زوجها وتتغيب الأيام الطوال عن منزلها الكائن بحمام جمدار دون سبب قاطع الأمر الذى دفع زوجها المدعو يعقـوب أن يشـكوها للقـاضى الحنفـى بمصـر القديمـة عـام ١٠٨٥هـ/١٦٧٥م[2]. وفى العام التالى ادعت على جارة لها تدعى الذمية مزار بنت الذمـى خنفار اليهودى العبرانى بأنها سرقت منها أساور فضة قيمتها أربعة قـروش ودسـتين مـن النحاس قيمتهما ثمانية قروش، ولكن ثبت عدم جدوى دعوتها وكذبها لذلك منعها الحنفى مـن استخدام مثل هذه التصرفات[3].

وقد سجل الشافعى بمحكمة مصر القديمة يوم ٨ شوال ١٠٥٣هـ/١٦٤٣م إسـلام شخص يهودى يدعى موسى بن شحاذة بناء على رغبته، وقام بنطق الشهادتين ووعد بتعلـم

---

[1] محمد عفيفى: الخطط والحياة الإقتصادية فى حارة اليهود بالقاهرة. مجلة المؤرخ المصرى، العـدد العاشـر. ينـاير ١٩٩٣، ص٢٩

[2] محكمة مصر القديمة: س١٠٤، م١٠٨٠، ص٩٧٦

[3] نفسـه: م١٣٧٢، ص١٠٩٣

بعض القرآن الكريم بما يعينه على الصلوات الخمس، ولكنه رغب فى أن يبقى اسمه موسى، وتزوج من خاسكة بنت محمد القاطنة قرب مصبغة الحرير بخط الشعروای[١].

٥. الرقيـــق:

كثر العبيد بمصر القديمة سواء الرقيق الأبيض المجلوب من بلاد كردستان وجورجيا وغيرهما من بلدان أوربا، ووجد بها الرقيق الأسود من كردفان ودارفور وغيرهما من بلـدان إفريقيا فكان المماليك والعثمانيين يشترونهم ليكونوا الساعد الأيمن لهم فى حلـهم وترحالـهم، والنساء كن يعملن فى بيوت الأمراء كخدم حتى يحل بهن العتق. ومن أشهر الأمراء بمصـر القديمة ممن امتلكوا العبيد الأمير يوسف جوربجى طائفة عزبان سواء من الجنسين أو رقيـق أبيض أو أسود.

وعندما يتم إحضار العبيد إلى الوكائل الخاصة بهم مثل وكالة الجلابة يتـم الفحـص والتقليب قبل الشراء للتأكد من خلوهم من الأمراض أو وجود عيب خِلقى. أما بالنسبة للإمـاء فتقوم سيدة بالكشف على بكارتها أو أى عيوب أخرى[٢]. واستمرت عمليـة شـراء الرقيـق بالمدينة خلال القرن ففى ١٠٩١هـ/١٦٨١م اشترى شلبى بن سلامة البرمشاوى القـهوجى بحمام جمدار من المعلم عامر بن سـلطان الكومى المعرف بباب الرسالة السلطانية ويقطـن أيضاً بمصر القديمة الجارية المدعوة مريم بنت عبد الله الحبشـية الجنـس نظـير سـبعون قرشاً[٣]. وقد لاحظنا ارتفاع أسعار العبيد بمرور الوقت خلال القرن، فإذا نظرنا إلـى ثمـن الجارية مريم المذكورة نجد أن ثمنها قد وصل إلى سبعين قرشاً عام ١٠٩١هـ وفـى نفـس الوقت تثبت الوثائق وجود عبد حبشى وله نفس مواصفات مريم من حيث الجنـس واللـون ولكن قدر ثمنه بنحو ٣٤ قرشاً عام ١٠٢٦هـ/١٦١٧م[٤]. والأمثلة على ذلك كثيرة.

---

[١] محكمة مصر القديمة: س١٠٠، م١٣٠، ص٥١

[٢] نشت ١١٩ لسنة ١٠١٢هـ ص٨٤ ، وكذلك محكمة مصر القديمة: س٩٨، م١٠٩٨، ص٣١٠

[٣] محكمة مصر القديمة: س١٠٤، م٢٤٠١، ص١٦٦٨

[٤] محكمة مصر القديمة: س٩٩، م٣٤٤، ص١١٢

وقد تعددت مصادر العبيد المجلوب لمصر القديمة كما ذكرنا سواء من الشمال أو الجنوب على يد الجلابة الذين يودعونهم فى الوكالة الخاصة بهم على أن يقوم الدلالين بعد ذلك ببيع هؤلاء العبيد فى الأماكن المتفرقة من البلاد نظير حوالة شرعية معلومة. ووجد العديد من الجلابة والدلالين فى مصر القديمة خلال القرن السابع عشر.

ويذكر أن بعض هؤلاء الأرقاء كانوا مثيرين للشغب يمارسون أعمال اللصوصية والسرقة ، فقد قام بعضهم بسرقة بعض الفواخير بفم الخليج وتعدى البعض الآخر على أحد المنازل بنفس المنطقة[١].

أما عن حركة تحرير العبيد بمصر القديمة من الأمور التى لاحظناها سواء قام بذلك الرجال أو النساء على حد سواء. إبتغاء وجه الله. وكانت عملية العتق هذه تشمل مجموعة لنفس السيد يتم عتقهم فى آن واحد. فمثلا قام الأمير مراد بيك – أمير اللوا الشريف بمصر القديمة عام ١٠٦٦هـ – بعتق مجموعة من مرقوقية فى يوم واحد وهو يوم ١٥ ربيع الآخر فى سنة ١٠٦٦هـ وهم " مصطفى الجرجى ومرتضى الجرجى الخازندار ومحمد شاهين الأفرنجى وعثمان عبد الله أفرنجى أيضا ومصلى بن عبد الله الروسى وسنبل الحبشى الكرارجى وسياغوث الرومى وبلال الأسود الطباخ ويوسف روسى المؤذن ....". وقد أعلن الأمير مراد أنه أراد الثواب وقال بصريح اللفظ " أنه أعتقهم ابتغاء وجه الله تعالى وطلب الثواب وعمل بقوله صلى الله عليه وسلم من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله تعالى بكل عضو منها عضوا منه من النار حتى الفرج بالفرج "[٢]. وبذلك صار هؤلاء من أحرار المسلمين. وفى نفس اليوم قام الأمير أيضا بعتق مرقوقاته جميعهن (فاطمة البيضاء الإفرنجية وصالحة الجرجية وسمور الحبشية ومقبلة البوابة وولدها بلال وكريمة الجرجية ..... "[٣]. وأصبحن بذلك من حرائر المسلمين.

---

[١] محكمة مصر القديمة: س١٠٣، م١١١، ص٤٩

[٢] محكمة مصر القديمة: س١٠٢، م٦٧، ص٢٦

[٣] نفسه: م٦٨، ص٢٧

وقام الأمير يوسف جوربجي طائفة عزبان بعتق مجموعة كبيرة من أرقائه طلباً للثواب في النصف الثاني من القرن، سواء عتق تام أثناء حياته أو عتق بعد مماته مثلما فعل مع مرقوقه حسين بن عبد الله الأبيض الروسي الجنس في جمادى الأول ١٠٩٣هـ/١٦٨٣م فقال " عبدي هذا مدبراً في حياتي معتوقاً بعد مماتي " وبمقتضى ذلك أصبح حسين مدبراً لسيده أثناء حياته إلى أن يوافيه الأجل عندئذ يصبح من الأحرار لا يمتلكه أبناء الأمير[١].

أما النساء فقد امتلكن أيضاً العديد من الأرقاء وقمن بعتق مرقوقيهم، وخير مثال لذلك قيام المصونة كريمة بنت على الحداد زوجة الزيني شرف بن محمد من أتباع الأمير يوسف جوربجي، قد قامت هذه السيدة بعتق مرقوقتها غزال بنت عبد الله السوداء اللون[٢].

وقد علق الكثير من الفقهاء ورجال الدين على مدى أهمية عتق العبيد من تكفير الذنوب وطلب الثواب سواء كان عتق هذا العبد لذلك أو لمرض أصابه ففي كلتا الحالتين هو أمر من الأمور الواجبة الجائزة[٣]. وقد ورد هذا العتق في عدة مواضع من القرآن الكريم ففي سورة النور الآية (٣٣) يقول الله تعالى " والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذى آتاكم ".

وبعد عتق العبد أو الآما يمارس حياته الطبيعية داخل سياج المجتمع من حيث الزواج والتملك، وتسجل الوثائق عدد من زيجات هؤلاء مع أشخاص لهم وزنهم داخل مجتمع مصر القديمة، ففي عام ١٠٢٠هـ/١٦١٠م تزوجت ريحانة السوداء اللون معتوقة القصابي محمد بن زين العابدين من الشيخ العلامة شرف الدين يحيى على صداق قدره عشرة دنانير كل دينار يساوى خمسين نصف فضة[٤]. ومن جملة معتوقي الأمير يوسف جوربجي عبد يدعى

---

(١) محكمة مصر القديمة: س١٠٥، م٤٠٨، ص١٣٦

(٢) نفسه: م١١٦٠، ص٣٧٣

(٣) عن عتق الرقيق وأصول ذلك انظر: الشرنبلاى: المصدر السابق، ج١، وأيضاً: محمد عريف إسماعيل: تحرير الكلام فى مسائل الإلتزام. مخطوط بدار الكتب، فقة مالك ٢٨١، ميكروفيلم ١٦٨٩٨، غير مرقم - وكذلك: محمد مختار: بغية المريد فى شراء الجوارى وتقليب العبيد، القاهرة، ١٩٩٦

(٤) محكمة مصر القديمة: س٩٨، م١٢٣٤، ص٣٤٥

الزينى مرجان بن عبد الله الأسود اللون، بعد أن تم عتقه أخذ يتبوأ مكانة داخل المجتمع فإمتلك العديد من المراكب النيلية التى استأجرها البعض منه، فقد استأجر مثلاً الشريف أحمد بن الشريف راوى الحسنى المركب الأشكيف البنوانى لمدة سنة بأجرة ستمائة نصف فضة[١]. وقام ببيع مركب أخرى للأمير مصطفى بن الأمير على شربجى طائفة عزبان بمبلغ قدرة ألف نصف فضة[٢].

٦. عناصر أخرى:

إضافة إلى ما تقدم قد وجدنا عدة عناصر أخرى داخل مجتمع مصر القديمة من مغاربة وشوام وأحياناً يمنيين وبعض الأجانب وكذلك العربان. فالمغاربة قد استقروا بمصر قبل الوجود العثمانى وشكلوا شريحة لا بأس بها فى المجتمع، وكان تواجدهم بمصر القديمة ملحوظ، بل أننا وجدنا حارة بأكملها تنسب لهم وهى حارة أبى سعيدة المغربى نسبة إلى الخواجا عبد العزيز بن أبى سعيدة المغربى الذى كانت له عدة أوقاف بها قد تولى نظارتها أحفاده من بعده منهم شهاب الدين أحمد المغربى الذى تولى النظارة سنة ١٠٦٤هـ/١٦٥٤م[٣]. وقد عمل المغاربة بالتجارة داخل أسواق المدينة، فشاركوا فى تجارة الرقيق بها وكذلك تجارة الدخان والغلال والمراكب وامتلكوا العديد من العقارات فقد اعتاد كل من عبد الله بن بلقاسم بن محمد المغربى المراكشى وشريكه القداد بن أحمد المغربى الطرابلسى جلب العبيد وبيعها بمصر القديمة وحققا من وراء ذلك الأرباح الطائلة[٤]. أما تجارة الدخان فقد كان لهم فيها باع طويل[٥] ولكن لم تكن على مستوى

---

(١) محكمة مصر القديمة: س١٠٢، م١٥٢٣، ص ص٥٨٢، ٥٨٣

(٢) نفسه: م١٨٧٠، ص٧٠٦

(٣) محكمة مصر القديمة: س١٠١، م١٦٣١، ص٦٠٥

(٤) محكمة مصر القديمة: س١٠٠، م١٣١، ص٥٢ وللمزيد عن أحوال المغاربة فى مصر فى العصر العثمانى. انظر: عبد الرحيم عبد الرحمن: المغاربة فى مصر فى العصر العثمانى (١٥١٧/١٧٩٨م). المجلة التاريخية المغربية، الجزائر، ١٩٨٢

(٥) دشت ١٤٨ لسنة ١٠٤٠هـ، ص٧٠١

كل الطائفة، فقد كان بعضها يرفضها. فقد ذكر أحمد شلبى أن من عـــادات المغاربـــة حمـــل الكسوة الشريفة التى تعمل كل سنة ويمرون بها فى شوارع القاهرة ويضربون كل من يـــروه يشرب الدخان فتحدث المشاكل(١).

وقد برع المغاربة فى طهى الأطعمة وقد لاحظ نتزو هذا وشاركهم فى ذلك الأتـــراك، وكانوا يبيعونها بثمن قليل على الأرصفة الشعبية وأحياناً يحضرونها للنـــاس أمـــام البيـــوت وداخل المنازل(٢). وهذه الأمور كلها مجتمعة تدل على مدى ما بلغه المغاربة داخـــل مصـــر القديمة خلال القرن وكذلك مدى تأثيرهم فى محيط الحياة بها.

وقد ظهر بالمدينة عدد من العرب سواء الشوام أو اليمنيين أو من الجزيرة خاصة من الأشراف كما رأينا ولكنهم لم يلعبوا الدور البارز الذى قام به المغاربة. وظـــهر بـــها أيضـــاً لبعض الوقت الأجانب وعدد من الرحالة واليونانيين والأرمن والأعاجم الذين استقروا بالتكيـــة الموجودة بالقصر العينى بمصر القديمة، ولكن رغم ذلك قد فضل هؤلاء التواجد فى العاصمة عن غيرها من المدن.

أما العربان فقد استقر بعضهم فى روضة مصر القديمة على نطـــاقٍ ضيـــق منـــها، وكعادتهم دائماً ما يثيرون القلاقل والشغب لأهل المنطقة فقد اشتكى منهم حسين بـــن محمـــد الغيطانى بأنهم قد تعدوا على أرضـــه " بغيـــط المقيـــاس الشـــريف " فـــى ١٠ ذى القعـــدة ١٠٩٧هـــ/١٦٨٧م وقطعوا البلح وضربوا ولده وكان معهم العديد من الأسلحة يثيرون بـــها الرعب فى قلوب أهالى الروضة(٣).

---

(١) أحمد شلبى بن عبد الغنى: المصدر السابق، ص٢٠٤

(2) Neitzschitz. Op. Cit. P228

(٣) محكمة مصر القديمة: س١٠٥، م٩٣٦، ص٢٩٧

الأحوال الشخصية بالمدينة:

محور دراسة الأحوال الشخصية داخل المدينة يتبلور حول أمور الـزواج والطـلاق وما يلحق بهما. وفى محاولةٍ من جانبنا لوضع تحديد حالات الزواج والطلاق التـى سـجلت بمحكمة مصر القديمة خلال القرن. وذلك بهدف تحديد نوعيات الزيجات وجنسياتهم، ولكنـها محاولة واجهت عدة صعوبات أهمها فقدان بعض سجلات محكمة مصر القديمة ذاتها خـلال القرن الأمر الذى يحدث حلقاتٍ مفقودة، والذى يفقد الأرقام مصداقيتها، ورغم ذلك حاولنا بما هو متاح حصر هذه الحالات، فتوصلنا إلى تعداد نحو ٢٦١٧ حالة زواج قـد تمـت داخـل المدينة بينـهم حـالتى زواج لبعـض نصـارى المدينـة، الحالـة الأولـى: تمـت عـام ١٠١٨هـ/١٦٠٩م بين ميخائيل بن صليب والذمية مالوم بنت نصر بن رزق علـى صـداقٍ ٤٠ ديناراً[١]. والحالة الثانية قد تمت فى العام التالى أى ١٠١٩هـ/١٦١٠م بين بطلاس بـن موسى بن شاكر والذمية مارين بنت ميخائيل[٢].

وقد لاحظنا عدة أمور من ثنايا هذا الحصر التقديرى هـو إرتفـاع قيمـة الصـداق وإنخفاضه فى بعض السنوات وقد جاء ذلك مرهوناً بأحوال البلاد الإقتصادية إضافـة إلـى الوضع الإجتماعى للشخص، أما حالات الطلاق التى تمت كما حصرناها فقد وصلـت إلـى ١٣٢٩ حالة طلاق تقريباً بينهما حالتى طلاق بين النصارى قد سُـجلا عـامى ١٠١٨هـ، ١٠١٩هـ[٣]. وقد ظهرت بعض السنوات أثناء عملية الحصر قـد سـجلت حـالات زواج وطلاق منخفضة للغاية، بل عثرنا على بعض السنوات لم تسجل مطلقاً أى حالـة وسـنوات سجلت أعلى نسب ويوضح ذلك الجدولان التاليان:

---

(١) محكمة مصر القديمة: س٩٨، م٤٤١، ص١٢٦

(٢) نفســه: م٩٩٠، ص٢٨٢

(٣) نفســه: م٤٤٨، ص١٢٩ وكذلك م٥٣٧، ص١٥٥

أ. جدول خاص بنسب حالات الزواج:

سنوات سجلت أعلى نسبة		سنوات سجلت نسبة متوسطة		سنوات سجلت نسبة منخفضة		سنوات لم تسجل	
السنة	عدد الحالات	السنة	عدد الحالات	السنة	عدد الحالات	السنة	عدد الحالات
١٠١٨هـ/١٦٠٩م	١٠٠	١٠٧١هـ/١٦٦٠م	٧٠	١٠٨٠هـ/١٦٦٩م	١٩	١١٠٣هـ/١٦٩١م	–
١٠١٩هـ/١٦١٠م	١٠١	١٠٧٢هـ/١٦٦١م	٥٥	١٠٩٥هـ/١٦٨٤م	١٨	١١٠٤هـ/١٦٩٢م	–
١٠٢٠هـ/١٦١١م	١٥٩	١٠٧٣هـ/١٦٦٢م	٦٧	١٠٩٧هـ/١٦٨٦م	٤	–	–
١٠٢١هـ/١٦١٢م	١٣٣	١٠٧٤هـ/١٦٦٣م	٥٥	١١٠٠هـ/١٦٨٨م	١	–	–
١٠٨١هـ/١٦٧٠م	٩١	١٠٧٥هـ/١٦٦٤م	٥٧	١١٠١هـ/١٦٨٩م	٢	–	–
١٠٨٢هـ/١٦٧١م	٩٢	١٠٧٧هـ/١٦٦٥م	٥٥	١١٠٢هـ/١٦٩٠م	٢	–	–

ب. جدول خاص بنسب حالات الطلاق:

سنوات سجلت أعلى نسبة		سنوات سجلت نسبة متوسطة		سنوات سجلت نسبة منخفضة		سنوات لم تسجل	
السنة	عدد الحالات	السنة	عدد الحالات	السنة	عدد الحالات	السنة	عدد الحالات
١٠١٨هـ/١٦٠٩م	٨٣	١٠٢١هـ/١٦١٢م	٣٧	١٠٢٤هـ/١٦١٥م	٧	١١٠٢هـ/١٦٩٠م	–
١٠١٩هـ/١٦١٠م	٦٠	١٠٢٢هـ/١٦١٣م	٤٦	١٠٥٦هـ/١٦٤٥م	٧	١١٠٣هـ/١٦٩١م	–
١٠٢٠هـ/١٦١١م	٧٠	١٠٢٣هـ/١٦١٤م	٤٧	١٠٦٧هـ/١٦٥٦م	٨	١١٠٤هـ/١٦٩٢	–
–	–	١٠٦٢هـ/١٦٥١م	٣١	١٠٩٠هـ/١٦٧٩م	٩	١١٠٦هـ/١٦٩٤م	–
–	–	١٠٧١هـ/١٦٦٠م	٣٦	١٠٩١هـ/١٦٨٠م	٦	–	–
–	–	١٠٧٩هـ/١٦٦٨م	٣٩	١٠٩٧هـ/١٦٨٦م	٦	–	–
–	–	–	–	١٠٩٩هـ/١٦٨٧م	١	–	–

ونلاحظ على كلا الجدولين أنهما قد تشابها فى معدل الزيادة فى حالات الزواج والطلاق فى نفس السنوات وكذلك فى السنوات التى لم تسجل، فى حين اختلفا بعض الشئ فى معدل تسجيل النسب المنخفضة والمتوسطة. والحقيقة أن السنوات التى لم تسجل أى نسب سواء زواج أو طلاق يكتنفها الغموض بعض الشئ الأمر الذى يجعلنا نتساءل هل من المعقول أن هذه السنوات لم تتم فيها حالة زواج أو طلاق واحدة !! أم أن تسجيل عقود الزواج والطلاق قد اتخذت مساراً آخر ؟ وهذا أمر بالطبع غير وارد على الإطلاق آنذاك ؟ أو أن القاضى قام بتسجيلها فى دفاتر أخرى لم نعثر عليها نحن ؟ وهذا أمر نستبعده خاصة وأنه فى سنوات تالية للسنوات التى لم تسجل قد شهدت حالات زواج وطلاق مثل سنوات ١١٠٧هـ/١٦٩٥م ١١٠٨هـ/١٦٩٦م.

على أية حال فإن الزواج كان يتم أمام القاضى الذى كان يوقع وشهود مجلسه على عقد الزواج الذى شمل اسم الزوج والزوجة وكذلك يوضح المهنة واللقب إن وجد وقيمة الصداق والمدفوع منه الآن، وما يتبقى منه إلى وقتٍ معلوم. فعلى سبيل المثال عقد زواج قد سجل فى محكمة مصر القديمة يوم الخميس ٢١ ربيع الثانى ١٠٧٠هـ/١٦٥٩م قد جاء فيه " إنه لدى الحنفى أصدق المحترم منصور بن المحترم سليمان الجلفاط القاطن بمصر القديمة مخطوبته المصونة البكر القاصرة فاطمة ابنة المحترم محمد بن المرحوم الحاج أبو جابر القهوجى على كتاب الله وسُنة رسوله .... بصداقٍ قدره أربعون قرشاً كل قرش يعادل ثلاثون نصف فضة يدفع منها خمسة وعشرين حالاً والباقى لفراق أو موت ..... "[١]. وتحدد عقود الزواج أيضاً مكان الزوج والزوجة اللذان ربما يكون أحدهما يقطن فى منطقة أخرى عن الثانى، ولدينا الأمثلة على ذلك منه حالة عبد الرحيم بن منصور من مصر القديمة الذى تزوج من سليمة ابنة الحاج أحمد الحزام فى الكتان ببولاق على صداقٍ قدره ٢٥ قرشاً دفع منها ١٥ قرشاً فقط، وقد سجلت لنا محكمة بولاق هذا العقد فى ٢٨ شوال ١٠٦٣هـ/١٦٥٢م[٢].

وعقود الزواج عموماً تحمل عبارات تكاد تكون متشابهة تماماً، وإن اختلف بعضها فى أمورٍ ربما يوافق عليها البعض ويرفضها آخرون. فمن العقود التى ظهر فيها الاختلاف تلك العقد الذى سجل فى ٢١ ذى الحجة ١٠١٤هـ/١٦٠٥م عندما اشترط على الزوج حجازى بن عبد الله الجلفاط بمصر القديمة أنه " متى تزوج على مخطوبته صفية بنت الشيخ محمد الحويوى زوجة أخرى تكون طالقاً طلقة واحدة تملك بها نفسها[٣].

ومن الأمور التى يجب أن تراعى فى عقد الزواج الشهود العدول المشهود لهم بحسن الخلق وإلا يعتبر العقد باطلاً وتحقيقاً لهذا المبدأ قام الشيخ عبد الباقى الزرقانى مفتى السادة الملكية بمصر بفسخ عقد زواج موكلته أنا ابنة زين الدين محمد بن علاء الدين الوفائى من الشيخ شمس الدين محمد أبو الفضل بن وفا الذى استند لشهودٍ غير عدول رغم أنه دخل بها

---

[١] محكمة مصر القديمة: س١٠٢، م٦٦٠، ص٢٥٦

[٢] محكمة بولاق: س٤٩، م١٥٥، ص٥٨

[٣] نشت ١٢٣، ص١٠٢٩ لسنة ١٠١٤هـ

وأصابها، لذلك كلف أن يطلقها ثلاثاً وقام بتجديد عقده عليها في ١٨ جمادى الآخر ١٠٧٧هـ/١٦٦٦م من غير محلل واستند في ذلك لما ذكره شيخ الإسلام العلامة محمد الدقلي في شرح المنهاج في كتاب النكاح، وأصدقها نحو ٧٠٠ نصف فضة[١].

وقد ذكرنا من قبل وجود حالات زواج للعبيد بعد عتقهم، سواء زواجهم من أشخاص عاديين أو من أمراء دون مراعاة للفوارق الطبقية هنا. حيث تزوج الأمير محمد جلبي بن الأمير بهرام شربجي القاطن بمصر القديمة من صالحة البكر البالغة ابنة عبد الله البيضاء اللون الجرجية الجنس معتوقة السيدة خديجة ابنة أحمد على صداقٍ قدره ٤٥ قرشاً[٢].

وفي نفس الوقت رأينا سنبل بن عبد الله معتوق الأمير سليمان بن الأمير محمد الصوباشي بمصر القديمة عام ١٠٦١هـ من مكية ابنة علام المحلاوي التي اشترطت عليه كسوتها في الشتاء والصيف خارجاً ذلك عن صداقها[٣].

وقد عثرنا على عقود زواج لبعض النصارى قد سجلت أمام القاضي الشرعي بمصر القديمة خلال القرن، وأشرنا منذ قليل إلى مثل هذه الحالات التي فضلت الذهاب أمام المحاكم الشرعية لدى المسلمين بدلاً من الكنيسة التي تشجع على الزواج بين النصارى. وقد وضع بعض المؤرخين تفسيراً مقنعاً لذلك وهو رغبة هؤلاء بالتمتع بما يتمتع به المسلمين بالحق في الطلاق حينما يرغبون ذلك[٤]. وبالفعل تؤكد ذلك بعض عقود الطلاق التي سجلت في محكمة مصر القديمة بين هؤلاء النصارى، فمن المعروف أن الفقة الإسلامي يؤكد على حق الزوجة في الطلاق عند غياب الزوج الغيبة الشرعية ومدتها ستة أشهر ونصف دون أن يترك لها نفقة[٥]. وقد تمتع بهذا الحق بعض النصارى ممن تزوجوا أمام القاضي المسلم، فطلقت المرأة النصرانية مالوم ابنة نصر بن رزق الله في ١٩ ذي القعدة ١٠١٨هـ/١٦٠٧م، لأن زوجها

---

(١) محكمة مصر القديمة: س١٠٣، م٣٢٤، ص١٣٤

(٢) محكمة مصر القديمة: س١٠١، م١٧٣٢، ص٦٣٨

(٣) نفسه: م٩٩٨، ص٣٧٢

(٤) محمد عفيفي: الأقباط، ص٢٣٢

(٥) محكمة مصر القديمة: س١٠٣، م٤٥٠، ص ص١٨١، ١٨٢

المدعو ميخائيل بن صليب الشيزاوى قد هجرها وسافر من مصر متوجهاً إلى مدينة حمص وتجاوزت غيبته المدة الشرعية التى حددها الفقهاء ولم يترك لها أى نفقة، فرغبت فى الطلاق منه فوافقها القاضى الحنبلى بمصر القديمة آنذاك وأبرأته من ربع دينار من مقدم صداقها عليه الذى يبلغ ٤٠ ديناراً[١]. ولنفس السبب طلقت تركية ابنة مخلوف بن داود من زوجها يوسف بن غبريال بن منا[٢].

وسجلت المحاكم الشرعية العديد من حالات الطلاق داخل مصر القديمة وهو أمر قد أشرنا إليه من خلال الجدول السابق، وقد تعددت أسباب الطلاق منها كما ذكرنا الغيبة الشرعية للزوج دون ترك أى نفقة للزوجة إضافة إلى الخلافات الزوجية التى قد تؤدى بعضها إلى فسخ عقد النكاح منها تعدى أحدهما بالضرب أو السباب على الآخر، فيذكر أن امرأة تدعى سكرية ابنة على ضربت زوجها عبد الجواد بن حسونة الشمسار فى الطين على رأسه لأنه منع عنها كسوتها الشرعية، فإنتهى التخاصم والنزاع بينهما بالانفصال فى ١٠٨٠هـ/١٦٧٩م[٣]. وفى بعض الأمور كانت المرأة المطلقة تحرم من حضانة ابنها الرضيع خاصة إذا رغبت هى فى الانفصال.

ومن الأمور الهامة التى ارتبطت بالزواج والطلاق مسألة النفقة التى كفلها الشرع للزوجة على زوجها أو مطلقها، حيث التزم الرجل تجاه زوجته بتوفير النفقة والكساء من بداية الزواج أو عند حدوث الطلاق سواء كانت هذه النفقة للمرأة أو صغارها ممن توجب لهم الحضانة فإلتزم المعلم شرابى بن شعبان المساقى ببولاق بدفع نفقة يومية قدرها ثلاثة أنصاف

---

(١) محكمة مصر القديمة: س٩٨، م٤٤١، ص١٢٩

(٢) نفسه: م٤٤٨، ص١٢٩

(٣) محكمة مصر القديمة: س١٠٣، م١١١، ص٤١٤ . نود أن نشير إلى أنه قد حدث جدل كبير بين الفقهاء حول تحديد الفرق بين الطلاق والفسخ فى عقود الطلاق عندما يهجر الرجل زوجته فالإختلاف حدث حول أسباب الفراق هذه هى التى تحدد الفرق بين الإثنين وهو أمر قد حسمه الكثيرون ومنهم الجرجاوى الحنفى فى القرن ٦هـ/١٢م وللمزيد من التفاصيل انظر: محمود بن محمد المهندس الجرجاوى الحنفى الأزهرى: الكواكب المشرقة فى أحكام النكاح والطلاق والنفقة. مخطوط بدار الكتب، فقه حنفى ٨٠٥، ميكروفيلم ٨٠٦١ .

من الفضة لمطلقته ستيتة ابنة الحاج على بن إبراهيم القهوجى بمصر القديمة ومعــها ابنتــها القاصرة التى تدعى " سيدة أبيها " منذ حدوث الطلاق فى ١٥ شوال ١٠٢٣هـ/١٦١٣م ولــم يتأخر فى دفع ما هو مقرر عليه[١]. والطفل الذى لم يولد كان له نصيب أيضاً من النفقة التــى قدرت بنحو نصف فضة أيضاً، فدفع عياد بن سلطان الزيات بحمام جمــدار النصــف فضــة المذكورة لمطلقته سيدة ابنة سليمان التراس بساحل مصر القديمة هذا القــدر إلــى أن تضــع حملها[٢]. ويظل الرضيع تحت حضانة والدته سنتى الرضاعة بحيث ينفق عليه كمــا حــددت الوثائق نصف فضة فى اليوم، إلا أن بعض الفقهاء قد أجاز أن تزيد حضانة الأم لولدها عــن هذه المدة التى اتفقت عليها وثائق العصر[٣].

ويؤكد الجرجاوى على أمرٍ هام من أمور النفقة، حيث يقر بأن النفقة تجب للزوجــة على زوجها سواء كان حراً أو قناً أو مدبراً ومكاتباً بإذن من المولى أو بدون إذنه[٤]. وهــذه من الأمور الهامة التى أجازها الفقه الإسلامى من أجل تجنب المرأة مشقة الحياة ونفقة الأولاد بما يثقل كاهلها مما يدفعها ذلك لتركهم وبالتالى تفككهم بل وتفكك المجتمع بأسره.

وتجنباً لحدوث مثل هذه الكوارث التى تعصف بأركان المجتمع وضعت بعض عقــود الزواج شروطاً توضح كيفية ســير الحياة الزوجية بين الطرفين بما يتوافق مع كل طــرف، وهو ما يمكن أن نســميه " دستور الحياة الزوجية " إذا جاز التعبير. فعندما تزوج المحــترم عامر بن عبد الفتاح من ناحية كتامة بإقليم الغربية والطحان الآن بمصر القديمة، من زينــب ابنة محمد الطحان بمصر القديمة أيضاً، اشترطت عليه كسوتها فى الشتاء والصيــف أســوة أمثالها، ولا ينقلها من مصر القديمة إلى بلده ولا يجمعها مع زوجة أخرى فى مــنزلٍ واحــد،

---

[١] محكمة بولاق: س٣٠، م٤٥٣، ص١٣٣

[٢] محكمة مصر القديمة: س١٠٤، م١٠٠٧، ص٩٤٩

[٣] محمد عريف إسماعيل: المصدر السابق، غير مرقم

[٤] الجرجاوى: المصدر السابق، ص٥٧

ويرضى بولديها من غيره شريطة أن يشربا من شرابه ويأكلان من أكله ويناما على فراشه. فوافق على ذلك كله عن قناعة دون رجوع[١].

العـادات والتقاليـد:

غالباً ما تكون العادات والتقاليد في مجتمع ما من الموروثات القديمة التـي تتناقلـها الأجيال تباعاً داخل هذا المجتمع، وهناك بعض العادات التى تطرأ علـى المجتمـع يكتسـبها نتيجة عدة أسباب إما لوجود حراك اجتماعى ووفود عناصر سكانية أخـرى تغـير مظـان المجتمع ؟ أو ظهور عادة فى منطقةٍ ما ثم استشرت داخل هذا المجتمع مثـل عـادة شـرب الدخان أو القهوة مثلاً.

وفى مصر القديمة ظهرت عادات وتقاليد حديثة العهد على المجتمع المصرى بـأثره، ووجدت عادات كانت من الموروثات السالفة كعادة الذهاب إلى المقابر وقراءة القـرآن بـها نظير أجر نقدى أو عينى تقرره الدولة نفسها. فعلى ضريح أبى السـعود الجـارحى انصـب اهتمام الدولة. ففى ١٠٤٩هـ/١٦٣٨م قام قائم مقام شيخ الإسلام بتعيين الإمـام أبـو بكـر السعودى وولده أبو هادى فى قراءتين ربع من القرآن الكريم فى كل يوم بضريح أبى السـعود المذكور[٢]. وكان الخبز هو المكافأة التى كانت تصرف لهؤلاء القراء، حيـث يقـوم شـيخ الإسلام (قاضى القضاة) بتحديد كمية الخبز المنصرفة لهم، فعين مثلاً لمحمد الصغير رغيفيـن من الخبز الدوادارى، ورغيفين من الخبز الحمزاوى فى كل يومٍ نظير قيامه بالقراءة فى مقـام أبى السعود الجارحى أيضاً[٣]. هذا المقام الذى تعلقت به زاوية نسبت لأبى السعود وقد اعتـاد أهالى مصر القديمة وغيرهم ممن يرغبون ويعتقدون فى الأولياء وضع النذور والصدقات فى " خلوة " داخل الزاوية معدة لذلك ولم تقتصر هذه النذور على النقود فقط بل وجد منها ما هـو

---

[١] محكمة مصر القديمة: س١٠٢، م٩٢٤، ص٣٦٤

[٢] دشت ٥٧، ص٣٠٨ لسنة ١٠٤٩هـ

[٣] الباب العالى: س١٦٥، م١٠٤٥، ص٣٤٨ لسنة ١٠٩٠

عينى، فتشير الوثائق أن هذه الخلوة كانت تضم مقادير من الشمع السكندرى والأرز والقمح والعدس، هذه المقادير التى لا يتورع البعض عن سرقتها أحياناً[١].

ومن العادات التى لاحظها نتزو أثناء جولاته بالمدينة هى قدوم الأتراك والمغاربة لتناول وجبة الإفطار مبكراً فى بعض المحال التجارية " المطاعم "، فكانت هذه بمثابة عرف أو عادة قد داوموا عليها كل يوم، ولاحظ أيضاً أن النساء كن يركبن حمير صغيرة وعندما يصل الأجانب ويلاحظن أنهم أقباط مسيحيين يتجمهرن حولهم وأحياناً تحدث منهن بعض الاعتداءات على هؤلاء الأجانب[٢]. على أنه قد سادت فى مصر القديمة بعض العادات السيئة مثل شرب الخمر والبوظة التى اعتبرت من المحرمات، ووضعها الفقهاء فى عداد الكبائر، فأورد الغزى مع أبياتٍ من الشعر ما يؤكد صدق قوله:

شرب وقتل لوط وسرقة وزنا — قذف وزور وغصب وإحتسا الخمرى
مسكر وعقوق الوالدين ربا — وهتك حرمة شهر الصوم بالفطر[٣]

لذلك صدرت الأوامر بتحريم شرب الخمر والبوظة خلال العصر العثمانى، ففى القرن السادس عشر وبالتحديد فى ٩٩٣هـ/١٥٨٢م صدر بيورلدى للقاضى الحنفى بمصر القديمة بإزالة خمارة لرجل يهودى بجوار المقياس الشريف[٤]. ثم تعددت البيورلدات خلال القرن السابع عشر فى خصوص ذلك التحريم، فبدأ منها ما يوجه تحريمها خلال الأشهر الحرم (رجب – شعبان – رمضان – ذو الحجة – المحرم) كتلك البيورلدى الصادر فى بداية سنة ١٠٦٧هـ/١٦٦٥م إلى القاضى والصوباشى بمصر القديمة آنذاك بضرورة غلق الأماكن التى يمارس فيها شرب الخمر والبوذة والتى تسميها الوثائق بإسم " بيوت الميخانات والبوذاية "، فقام الصوباشى المذكور بغلق هذه البيوت فى مصر القديمة وسلم مفاتيحها للأغا محمد

---

(١) محكمة مصر القديمة: س١٠٢، م٦٧٣، ص٢٦١

(2) Neitzschitz. Op. Cit. P218

(٣) الغزى: جواهر الذخائر فى عدد الكبائر والصغائر. مخطوط بدار الكتب، تصوف ٢٧٦١، ميكروفيلم ٣٣٨١٨، غير مرقم

(٤) محكمة مصر القديمة: س٩٦، م٥٠٦، ص١٣٨

باشا مختار مبعوث الباشا[١]. والجدير بالذكر أن هذه البيورلدات تطبق علـــى ســائر ســكان المدينة من مسلمين ونصارى أو يهود، ومن يخالف منهم يقع عليه حكـــم القــاضى المســلم. فحينما بعث الوزير (الباشا) تابعه محمد أغا بخطاب إلى القاضى الحنفى والصوباشى محمــد جلبى بمصر القديمة فى ٧ شعبان ١٠٧٨هـ/١٦٦٧م يحثهم فيه على غلق هذه البيــوت، لــم يمتثل للأمر الشريف الذمى دميان الذى اتخذ من منزله بحارة النصارى بقصر الجمع ميخانــة يتعاطى فيها عصير الخمر وبيعه، فذهب إليه القاضى بنفسه ليتأكد من ذلك، وبـــالفعل وجــد منزله مفتوح به آلة عصير الخمر وطبخه فى دست من النحاس وبعض الجرار من الفخـــار ومواجير وحلفاة وغير ذلك، ولما استفسر منه القاضى عن عدم امتثاله للأوامر الشريفة أخــذ يتلاعب بالألفاظ فدفع ذلك إلى إيقاع التعزير الشرعية عليه[٢].

ومن العادات السيئة أيضاً التى ظهرت فى مجتمع مصر القديمة عادة شرب الدخـــان والتى دار حولها الجدل الذى تبلور حول تاريخ دخول الدخان إلى مصر، هل دخل فى أواخـر القرن ١٦ وبداية القرن ١٧ ؟ أم أنه ظهر فى بداية القرن السابع عشر كما يروى أحمد شــلبى بن عبد الغنى والإسحاقى ؟ وهذا التساؤل الأخير هو الذى يروق لبعض المؤرخين الأخذ بــه ضمن بعض الدراسات التى وضعت حول الدخان فى مصر[٣]. ويقول الشيخ إبراهيم اللقـــانى فى نصائحه التى قدمها عام ١٠٢٥هـ/١٦١٤م عن الدخان " إن أول مـــن أخرجــه ببــلاد السودان المجوس ثم جلب إلى مصر والحجاز واليمن والهند وغالب أقطار الإسلام وعمت بــه

---

(١) محكمة مصر القديمة: س١٠٣، وذكر البيورلدى فى الصفحة المغلقة فى بداية جلد السجل فلم ترقـم الوثيقـة وكذلـك الصفحة.

(٢) محكمة مصر القديمة: ١٠٣، م٦٢٣، ص ص٢٤٢، ٢٤٣ . ومن الجدير بالذكر أنه قد صدر أمـــر سـلطانى عـام ١٥٧٤م بعد شرب الخمر الذى شاع استعماله أيام السلطان سليم خان الثانى وأفرط فيه الجنود خاصـة الإنكشـارية، فدفع ذلك الإنكشارية إلى الثورة مما إضطر إلى عودة شرب الخمر ولكن ليس بالقدر الذى يذهب العقل. انظر: محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص١١٣

(٣) محمد عفيفى: تجارة الدخان فى العصر العثمانى. مقال فى مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، العدد ١٩ لسـنة ١٩٩٨، ص٣٤٦

البلوى، ففى أوائل شيوعه بمصر دخل به رجل من تافيلان ببلاد المغرب يقال له أحمد بن عبد الله الخارجى المشهور بسفك الدماء بغير حق ...... "[١].

وقد حدث اختلاف بين الفقهاء حول تحريم الدخان أو إجازته وانقسموا فى ذلك إلى ثلاث كما يرى العصامى فى رسالته التى حررها حول تحريم الدخان، فقال فى مقدمتها " فالسبب الداعى لتحرير هذه الرسالة والباعث المتداعى لترتيب ما فى هذه القبالة أنه لما شاع الدخان المعروف فيما بين المشرقين كان الناس فى شأنه شقين. شق قال بجعله وجواز شربه مستدلين بالإجابة الأصلية، وشق كان صنفين، صنف ذهب إلى حرمته وعدم جواز قربه فضلا عن جواز شربه منورا دعواه بما يسر له نقله أو اهتدى إليه عقله. وصنف توسط فيما بينهما وقال بكراهته وصار توجه قلبى (رأى العصامى) إلى عدم حله وإباحته ..... "[٢]. وتأميما على قول هؤلاء الفقهاء صدرت العديد من الأوامر .... والبيورلدات بتحريم الدخان وشربه فى مصر القديمة، فرأينا من قبل الأوامر التى صدرت بتحريمه داخل المحكمة[*]. ثم البيورلدى الصادر فى ٧ رجب ١٠٢٣هـ/١٦١١م من الديوان العالى يحث فيها صوباشى مصر القديمة " منع كل مسلم ونصرانى ويهودى شرب الدخان والخمور "[٣].

ومن العادات السيئة التى وجدت أيضا انتشار الزنا وممارسة السحر والشعوذة. فواقعة الزنا دائما ما ترتبط بشرب الخمر، الحقيقة أن مثل هذه الممارسات اللاأخلاقية قد وجدت حالات ليست قليلة داخل مجتمع مصر القديمة خلال القرن وهو أمر قد هدد بتفكك المجتمع. فمن هذه الحالات حالة قد ضبطها صوباشى مصر القديمة ويدعى الأمير مصطفى فى يوم الجمعة ٣ محرم ١٠٥٨هـ/١٦٤٧م، حيث قبض على امرأة تدعى سليمة ومعها شخص يدعى حسين العزب كان فى منطقة الخلاء والكيمان بظهر قصر الجمع، فاعترفت

---

[١] إبراهيم اللقانى: نصيحة الإخوان بإجتناب الدخان. مخطوط بدار الكتب، فقه حنفى طلعت ٣٨سيكروفيلم ٤١٩٠٤ – ١٤٩٢٣، ص٦

[٢] عبد الملك العصامى: رسالة فى تحريم الدخان. مخطوط بدار الكتب، فقه مالك ٣٨، ميكروفيلم ٤١٩٠٤، ص١

[*] انظر الفصل الثانى

[٣] محكمة مصر القديمة: س٩٨، م٢ ، ص٢

أمام الصوباشى المذكور " إنها كانت شـاربة الخمـر وإنها على علاقة معاشرة وزنا بحسين هذا منذ سنتين ... "[١].

كذلك كشف الأمير سليمان صوباشى مصر القديمة عام ١٠٧٣هـ/١٦٦٢م حالة زنـا قد تمت فى روضة مصر القديمة بين رجل يدعى محمد بن حسن الدلال القاطن بالجيزية يأتى كل يوم إلى الروضة ومعه إمرأة تدعى فاطمة ابنة محمد البحيرى ويختلى بـها فـى أرض المرحوم الأمير عابدى بيك[٢]. وقد وجدت بعض النسوة قد تخصصن فى جمع الرجـال مـع النسوة فى أماكن خاصة لممارسة السكر والفاحشة وهو ما أشرنا إليه من قبل عند معالجتنـا للرباع فى مصر القديمة والتى كان بعضها بمثابة " وكر " للزنا وشـرب الخمـر. وتسـجل الوثائق أسماء العديد منهن. وفى مواضع أخرى كانت بعض النساء الخاطيات يعلن توبتـهن أمام القاضى الشرعى، ففى ٢٧ شعبان ١٠٥٤هـ/١٦٤٣م حضرت المـرأة حجازيـة ابنـة منصور البهنساوى إلى قاضى مصر القديمة " وأعلنت أنها من النساء الخاطيـات بمواضـع الكباير والخطا فحصل لها فى يوم تاريخه رهبة ووحشة من جانب الله تعالى ومـن خـوف غضبه وعذابه بسبب ارتكاب ما حرمه فتابت وأقسمت على نفسها بالله العظيم الذى لا إلـه إلا هو الرحمن الرحيم القسامة الشرعية أنها صادقة فى توبتها وإذا عادت وقـع عليـها الأمـر الشرعى والحدود الشرعية .... "[٣]. ولدينا العديد من الحالات سواء رجال أو نساء يرغبـون فى التوبة مثل حجازية المذكورة خوفا من عقوبة الزنا التى أقرها الرسول (ص) فى حديـث شريف، فعنه أنه قال " إحذروا الزنا فإن فيه ستة خصال ثلاث فى الدنيا وثلاثة فى الآخـرة، فأما الثلاثة التى فى الدنيا فإنه يذهب بهاء الوجه ويورث الفقر وينقص العمر وأما الثلاثة التى فى الآخرة فإنه يوجب سخط الله وسوال الحساب والخلود فى النار ".. وفى حديث آخر عنـه صلى الله عليه وسلم قال أيضا " ومن زنا بإمرأة حرام أقامه الله تعالى فى قبره عطشانا باكيـا حزينا مسودا وجهه مظلما فى عنقه سلسلة من نار وعليه سراويل من قطران ". وهناك العديد

---

[١] محكمة مصر القديمة: س١٠١، م٢١١، ص٧٨

[٢] محكمة مصر القديمة: س١٠٣، م٢، ص١

[٣] محكمة مصر القديمة: س١٠٠، م٣٨٧، ص١٨٣

من الأحاديث والأقوال المأثورة عن عقوبة الزنا أوردها الكثير من الفقهاء والعابدين، نخص منهم على سبيل الذكر أبو الليث السمرقندى " ت ٣٧٣هـ " الذى وضع مقدمة فى التصوف يتناول فيها معظم الأحاديث النبوية التى توضح عقوبة الزنا كما أشرنا فى الحديثين السابقين[١]. لذلك أنبرى العديد من سكان مصر القديمة كما رأينا إلى إعلان التوبة والعودة إلى حياة الاستقامة بعيدا عن خطوب الشيطان.

أما ممارسة السحر والشعوذة فلم نسمع عنها إلا على نطاق ضيق داخل المدينة حيث كان يمارسه البعض داخل دير قصر الجمع نخص منهم الذمى عبد القدوس بن ميخائيل من بيت حمصة التمساحية النصرانية اليعقوبية الذى كان يمارسه فى النصف الثانى من القرن السابع عشر[٢].

كما انتشرت بمصر القديمة عادة شرب القهوة أو البن على المقاهى التى استشرت داخل المدينة خلال القرن. وقد ذهب البعض إلى تحريمه مثل الخمر، ولكن إبراهيم اللقانى يخالف ذلك الرأى ويقر بشرب البن لأنه ليس مثل الخمر المسكر فيقول " والحق إنه فى ذاته لا إسكار فيه وإنما فيه تنشيط للنفس ..... "[٣].

الأعياد والإحتفالات:

قلنا أن مصر القديمة مدينة مزدوجة نتيجة انتشار المسلمين والنصارى بها، لذلك ظهرت بها عملية الاحتفالات بالأعياد الدينية سواء الإسلامية أو المسيحية. فكان مسلمو المدينة يحتفلون بعيد الأضحى وعيد الفطر المبارك والمولد النبوى ورؤية هلال رمضان،

---

[١] أبو الليث السمرقندى: مقدمة فى التصوف. مخطوط بدار الكتب، تصوف ٢٧٦٨، ميكروفيلم ٤٠٢٥٠

[٢] محكمة مصر القديمة: س١٠٤، م١١١٢، ص٩٨٨

[٣] إبراهيم اللقانى: المصدر السابق، "بدون ترقيم"

وكان " المسحراتى " بليالى رمضان يمر على سكان المدينة لينبههم بتناول الطعام فيذكر منهم الحاج محمد بن بركات المسحر بليالى رمضان بخط السبع سقايات(١).

وقد أقيمت العديد من الموالد للأولياء وقبوزهم المنتشرة بمصر القديمة(*) وما تبعها من احتفالات وزينات. وعلى الجانب الآخر احتفل مسيحيو المدينة بأعيادهم مثل عيد القيامة المجيد، وعيد الصليب المجيد وعيد الغطاس، ومن الموالد التى أقاموها، مولد القديس مرقوريوس Mercurius (أبو سيفين) فى ١٥ هاتور(٢). وكانوا ينشدون الأناشيد والمدائح فى هذه الأعياد والتى سجلنا بعضا منها قد نظم فى فترة ق ٦ هـ/ ١٢م وما زالت تردد(٣). ففى عيد الصليب المجيد يقال " ابدأ بإسم الله الديان الدايم إلى عقب الأزمان الحاضر فى كل مكان الذى علق فوق بستان ورؤوس بالصليب نور الإيمان وبه نهزم حزب الشيطان ....."(٥). وفى عيد القيامة العظيم يقال " أنا أفتح فاى وأتكلم وأنطق بخفياه عظام الرب ..... وصلب المسيح وقبر ثم قام بعد أن وصفوه فى المقبرة سكت مدفون ثلاثة أيام فقام وفضح كل الكفرة ..." (٦).

وقد وجدت عدة احتفالات أخرى بجانب الاحتفالات بالأعياد والموالد الدينية. منها أنه عندما يفى النيل بالماء تعم الاحتفالات بقدوم الخير، فيذكر السيوطى " إن العادة قد جرت كل سنة إذا وفى النيل أن يرسل السلطان بشيرا بذلك إلى البلاد لتطمئن قلوب العباد ... وهذه عادة قديمة "(٧). فعندما يحدث الفيضان تبدأ عملية كسر الخليج عند الفتحة المسماة بفم الخليج حتى تجرى فيه المياه، وقد رأينا عند حديثنا عن الزراعة كيف اهتمت إدارة المدينة بتنظيف

---

(١) محكمة قناطر السباع: س١٢٦، م٣٤٣، ص٧٥

(*) انظر الفصل الأول: الجزء الخاص بالمقابر.

(٢) ج. و. مكفرسون: الموالد فى مصر، ترجمة عبد الوهاب بكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨، ص٨٦

(٣) مجهول: مجموعة مدائح دينية للسيد المسيح والسيدة العذراء. مخطوط بدار الكتب، لاهوت ٦٩٠، ميكروفيلم ٤٨١٧٤،

(٥) نفسه: ص١١٩

(٦) نفسه: س٨٧

(٧) السيوطى: المصدر السابق، ص٣٢٩

وتطهير الخليج من الحشائش والأتربة لتسهيل جريان الماء به. والمرحلة الأولى لكسر الخليج تبدأ أولا: بالإحتفال بذهاب الوالى إلى المقياس الشريف عند بلوغه ١٦ ذراعا بأذرع مقياس الروضة[1]. وقد أعجب جومار بإحتفالات كسر الخليج فيقول " رغم ما للاحتفالات والأعياد الدينية من أبهة وعظمة فإنه لا يوجد له من العظمة والأهمية مثل ما لعيد فتح الخليج، فكسر سد الخليج حدث بالنسبة لكل بلد، ويبدأ الاحتفال به عند غروب الشمس حيث تقطع القوارب المضاءة فرع النيل الصغير الواقع إلى جزيرة الروضة، وفى اليوم التالى مع شروق الشمس تزين كل القوارب بالأعلام ويحتل حشد كبير من الناس المرتفعات المجاورة لفم الخليج ويسمع ضجيج المدافع وآلات الموسيقى من كل صوب ..... "[2].

وقد اعتاد سكان مصر القديمة إقامة الاحتفالات وما يصاحبها من غناء ورقص، فكانوا يستعملون بعض الآلات التى تحدث أصوات موسيقية ويدقون الطبول والكابور للمغنى الذى ينشد لهم على دقات هذه الطبول وسط الراقصين والراقصات[3]. وكانوا دائما ما يستعملون ذلك فى ليالى الطرب عندهم أو فى أوقات زفاف العروسين التى تشهد تجمعا عظيما من الناس بهدف مشاهدة هذه الزفة، وقد تحدث أحيانا بعض المشاجرات بين المتفرجين نتيجة الزحام الشديد، مثل الفتنة التى حدثت يوم ٢٦ صفر ١٠٥٨هـ/١٦٤٧م وهو يوم وليمة عرس على بن عيسى القاطن بحمام جمدار والتراس بشونة غلال مصر القديمة، وقد جرت العادة أن يجمع الصوباشى عوايد من صاحب وليمة العرس[4].

وما لفت أنظارنا بالمدينة وجود بعض الحواة ممن اعتادوا عمل بعض الألعاب بإستخدام الثعابين والحيات، ويتجمع حول الحاوى العديد من المتفرجين ممن لديهم حب

---

[1] محمد الششتاوى: متنزهات القاهرة فى العصرين المملوكى والعثمانى، دار الآفاق العربية، ١٩٩٩، ص ص٣٠٦، ٣٠٧

[2] جومار: المصدر السابق، ص٣١٧

[3] محكمة مصر القديمة: س٩٣، م٢٠٤٣، ص٣٨٥

[4] محكمة مصر القديمة: س١٠١، م٢٣١، ص٨٩

الإستطلاع، وأشهر هؤلاء الشريف محمد بن الشريف عيسى الذى كان يتجول بخط السبع سقايات ويمارس هوايته من أجل الكسب[١].

ثانيا: الشئون الصحية:

لمصر باع طويل فى أمور الطب والصيدلة منذ زمن بعيد وهذه، القضية قد حسمت من جانب جمهرة من الباحثين، فظهر على أرضها العديد من الأطباء المهرة الذين مارسوا مهنة الطب سواء بالتجول لملاحقة الأمراض أينما وجدت أو داخل البيمارستانات (المستشفيات)، فقيل أن أول بيمارستان فى مصر الإسلامية قد ظهر فى عهد الطولونيين، ثم انتشرت بعد ذلك هذه الفكرة فى مصر بأسرها وتوارثتها الأجيال تباعا فى عصر الإخشيديين والفاطميين والأيوبيين والمماليك، وورث العصر العثمانى عن هذه العهود الكثير من الأفكار وكذا البيمارستانات التى استطاع بها أن يخطو عدة خطوات فى علم الطب لمجابهة الأمراض الشائعة فى مصر لاسيما أمراض العيون التى اشتهر بها المصريون من قديم الزمان، وكذلك الطاعون والجدرى وغيرها من الأمراض. وقد لاحظ الرحالة الذين زاروا مصر فترة القرن ١٧هـ هذه الأمراض وسجلوا ملاحظاتهم عنها. فيقول برمون " إن المرض الشائع فى جميع أنحاء مصر هو الطاعون والحمى التى تصيب السكان وتقتلهم بعد مرور ٢٤ ساعة، وهناك الجدرى الذى يأتى نتيجة سوء التغذية والشرب .... "[٢]. وهى نفس الأمراض التى لاحظها فولنى بعد ذلك وإن كان قد بالغ بشكل جعل الصورة قاتمة فيما تصور حياة مصر آنذاك[٣].

أما عن أسباب انتشار هذه الأمراض آنذاك فيعود إلى: ارتفاع درجة الحرارة التى تمنعهم من النوم فى فصل الصيف، فيقال أنه بمصر القديمة قد ارتفعت درجة الحرارة لأكثر من ٤٠°، إضافة إلى وجود الذباب والحشرات. وقد اندهش نتزو من سكان مصر القديمة خاصة عنصرى المغاربة والمصريين الذين يستطيعون تحمل الذباب عندما يلدغهم هم

---

[١] محكمة مصر القديمة: س١٠٣، م٢٧٠، ص١١٣

[2] D' Edward Brown: Voyage en 1673-1674, p145

[٣] فولنى: المصدر السابق، ص١٦١

وأطفالهم فى جميع مواضع أجسامهم حتى أنهم يجدون صعوبة فى فتح أعينهم من هذا الذباب[1]. لذلك جاء ارتفاع درجة الحرارة داخل مصر القديمة مع انتشار الذباب والحشرات بها من الأسباب المباشرة التى أدت إلى ظهور الأمراض، لهذا الأمر كان من الضرورى وجود الأطباء وأماكن للتداوى. فوجد مجموعة من الأساتذة فى الفروع المتخصصة فى الطب، وتساوى الرجال مع النساء فى ممارسة هذه المهنة. ولكن يقرر براون أن الأطباء الحقيقيين الذين درسوا الجسم البشرى وطريقة علاجه لم يوجدوا فى مصر[٢]. ومن هؤلاء أحمد بن سراج الدين الملقب شهاب الدين المعروف بإبن الصايغ الحنفى المصرى، وهو من كبار الأطباء وخاصة فى البيمارستان المنصورى[٣]. كذلك وجدنا الشيخ شمس الدين محمد الحميدى الطبيب والمدرس بالخشابية قرب جامع عمرو.

وكان اهتمام الإدارة العثمانية بشئون المرضى عظيم، فقد حرصت دائما على رعايتهم وضرورة الإهتمام بهم، لذلك أوردت من جانبها العديد من المراسلات إلى القضاة والنواب فى القاهرة ومصر القديمة وبولاق التى تحت هؤلاء لعمل اللازم لهم[٤]. من أجل هذا انتشرت بمصر القديمة العديد من الأماكن التى تستقبل المرضى وتقدم لهم الدواء والشفاء، فتذكر الوثائق وجود عدة بيمارستانات بمصر القديمة عام ١٠٧٤هـ/١٦٦٣م[٥] كانت تستقبل جميع عناصر سكان المدينة بما فيهم النصارى الأروام الذين أخذوا تفويض بذلك بموجب البيورلدات الشريفة. وفى كنيسة مارى جرجس كان يقطن بها بعض القساوسة اليونانيين Prestres Grecs وبعض الجنسيات الأخرى مثل الأتراك والمغاربة والعرب، وكل هؤلاء كانوا يعملون كخدم للمرضى، حيث كانت كنيسة مارى جرجس بمثابة مستشفى لعلاج

---

(1) Neitzschitz. Op. Cit. P230

(2) Neitzschitz. Op. Cit. P187

(٣) المحبى: خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر، جـ١، المطبعة الوهبية بمصر، ١٢٨٤هـ، ص ص٢٠٣، ٢٠٤

(٤) عن هذه المراسلات انظر: دشت ١٤٢، ص٤١ لسنة ١٠٣١هـ، وكذلك دشت: ١٤٣، ص٤٧٢ لسنة ١٠٣٤هـ

(٥) محكمة مصر القديمة: س١٠٢، م١٨٤٧، ص٦٩٨

وإسكان الفقراء أكثر منها كمعبد(١). والعلاج داخل الكنائس والأديرة لم يقتصر فقط على النصارى بل شمل المسلمين أيضا، فدير البنات الكائن بقصر الجمع به عدة أماكن قد خصصت لشفاء المرضى وكانت الرايسة هيلانة ابنة الذمى منصور هى المسئولة عن أمر الشفاء والتداوى داخل الدير، فتسجل الوثائق وجود زوجة يوسف النجار داخل هذا الدير لأجل الشفاء من التوعك الذى أصاب جسدها يوم ٢٦ محرم ١٠٨٣هـ/١٦٧٢م، وقد مكثت عدة أيام، وكان من شروط الدير أن يسلم المريض لرايسة الدير ما معه من متعلقات على سبيل الأمانة، ويحصل عليها عند إتمام شفائه، وهو ما حدث مع زوجة يوسف النجار المذكورة(٢).

ولأجل إتمام عملية الشفاء لابد من توفير الأدوية والمراهم اللازمة، وأغلب هذه الأدوية كانت تستخلص من النباتات والأعشاب الطبية، هذا ما لاحظه الرحالة ساندى Sandys فى مصر(٣). كذلك ورد بيورلدى شريف فى آخر صفر ١٠٥٨هـ/١٦٤٧م من الوزير محمد باشا قرر فيه إبقاء فخر الجراحين نور الدين على بن الشيخ شهاب الدين أحمد الزفتاوى الجراح فى وظيفة المشيخة على طائفة الجراحين أولاد العرب بالبيمارستان المنصورى والقاهرة ومصر القديمة وبولاق وضواحيها، وكل من حمل المرهمدان(المراهم)، والمجبرين من أولاد العرب يبقى فى وظيفته، وأن شيخ الجراحين بالبيمارستان المذكور هو الذى يتكلم عن طائفة المجبرين وكل من حمل المرهمدان (المراهم) من أولاد العرب بمصر القديمة والقاهرة وبولاق وضواحيهما .....(٤).

وتجنبا لحدوث مثل هذه الأمراض وانتشارها وضع الكثيرون العديد من النصائح أو ما يمكن أن نسميها " بالوصفات " قد أوصوا بتناولها، فعلاء الدين المكى قد أوصى " بشرب

---

(١) Henry Castela: Voyage De "1600-1601", p159

(٢) محكمة مصر القديمة: س١٠٤، م٦١٥، ص٢١٧

(3) George Sandys: op. Cit. P150

(٤) محكمة الباب العالى: س١٢٥، م١٣٩٨، ص٤٢٦

اللبن لأن به خمس فوائد هى نشاط وتهضيم وتحليل بلغم وتطييب أنفاس وعون لعـايده ..... "، وفى موضع آخر قد أوصى " بالكمون لفوائده العديدة للأذن "[١].

ومن المفارقات التى وجدناها هنا أن علاء الدين المكى يقر بأهمية البن عام ١٠١٩هـ/١٦٠٨م ومدى فوائده لجسم الإنسان، رأينا فى موضع آخر إبراهيم اللقانى يقرر عام ١٠٢٥هـ/١٦١٤م بأن البعض تعتبر البن أو القهوة شئ منكر كالخمر[٢].

أما أبو الخير عصام الدين وهو من أهل القرن العاشر الهجرى (ت ٩٦٨هـ) قد وضع بعض " الوصفات " التى يتوافر بعضها بمصر القديمة. فقال أن " من الفواكة التفاح والسفرجل والرمان والتوت والحامض والليمون، وشراب النارنج والليمون والتفاح والرمان والحامض مع ماء الورد وماء البهرامج مع شم الورد والكافور والصندل ...... من استعمل ذلك سلم من الوباء "[٣]. لا شك أن الكثير مما أوصى به عصام الدين قد وجد بالمدينة خلال القرن السابع عشر الميلادى.

وهكذا أصبحت الصحة واضحة المعالم إلى حد ما داخل مصر القديمة خلال القرن، فأمور الكشف على المريض أو الشخص المقتول كانت محط اهتمام من جانب المسئولين، فدائما ما نذكر الأوامر التى تصدر من الحاكم الشرعى أو الصوباشى بالمدينة بالكشف على هؤلاء حتى تتضح لهم البينة ليأتى الحكم أكثر مصداقية. ورأينا عندما تعرضنا للرقيق كيف أنهم حرصوا على الكشف على هؤلاء الرقيق والتأكد من بكارة الإماء منهن، وكذلك الكشف على اللحوم واستبعاد " الفاسد أو البايت منها " على حد تعبير الوثائق، هذه الأمور التى كانت تراعى داخل " مذابح مصر القديمة " خاصة المخصصة للحوم البقرى أو الجاموسى منها.

---

[١] علاء الدين المكى: عقد الفرائد فيما نظم من الفوائد. مخطوط بدار الكتب، جغرافيا ٣٤٧٢ ، ميكروفيلم ٢٤٥٧٣ ، ص٨٧ ، وكذلك ص٩٠

[٢] إبراهيم اللقانى: المصدر السابق، ص٥

[٣] أبو الخير عصام الدين: الشفا لادواء الوباء. مخطوط بدار الكتب، طب٩٠٠، ميكروفيلم ٣١٢١٢، ص٣١

الفصـــل الســادس

الحياة الدينية والثقافية

الحياة الدينية والثقافية

هناك ارتباط كبير بين النواحى الدينية والثقافية فى مصر القديمة خلال القرن السابع عشر، فقد ظهر ذلك لنا بوضوح من خلال استقراء سجلات المحاكم الشرعية، وهو أمر لم يكن جديد على العصر العثمانى، فهذا التلازم موجود منذ العصور الوسطى حتى بعد ظهور المدارس لدى السلاجقة والأيوبيين وانتشارها فى بقاع متفرقة من العالم الإسلامى بما فى ذلك مصر. لذلك أثرت معالجتها معاً حتى يتحقق الربط وتعم الفائدة.

أولاً: الحياة الدينية:

لقد شهدت أرض مصر منذ عهد الفراعنة الدعوة إلى عبادة الآلهة والرغبة فى نعيم الآخرة، وعلى أرضها ظهرت أول دعوة لوحدانية على يد فرعون مصر " إخناتون ". وعندما ظهر الإسلام وفتحت مصر عام ٢١هـ / ٦٤١م وصارت ولاية إسلامية أصبح الدين الإسلامى جنباً إلى جنب مع المسيحية يمثلان عنصرين أساسيين فى فكر ووجدان المصريين وخلال العصر العثمانى كانت الصبغة الدينية هى السمة الواضحة فى العادات والتقاليد وكذا المنشآت ففى مصر القديمة نجد هذه الصبغة واضحة كل الوضوح نلمسها فى صور الحياة والمعاملات ورجال الدين من وعاظ وفقهاء قد أثروا الحياة الدينية بها فترة القرن السابع عشر. ولا ننسى أن بالمدينة قطبين أساسيين قد عاشا وتعايشا معاً ردحاً من الزمن، القطب الأول: الذى ظهر بها منذ القدم نعنى الأقباط المسيحيون معهم قلة من اليهود، والقطب الثانى: وهم مسلمى المدينة الذين استوطنوا مع قدوم الفتح العربى وبنوا مساجدهم بجوار كنائس النصارى. بذلك تميزت الحياة الدينية داخل المدينة بالخصوصية الشديدة والحساسية المفرطة

فى بعض الأوقات. لذلك كان علينا عند معالجة مظاهر الحياة الدينية للمدينة أن نركز على هذه الخصوصية.

مظاهر الحياة الدينية:

١. الشعائر الإسلامية ورجال الدين:

لقد كانت مصر القديمة أول قبلة استقبلها عمرو بن العاص عندما جاء لمصر فاتحاً، حيث بنى بها أولى جوامع مصر الإسلامية فى منطقة مارى جرجس وقصر الشمع التى انتشرت بها العديد من كنائس النصارى فأراد بذلك تأكيد الصبغة الإسلامية ليس على المدينة فحسب بل على مصر قاطبة. وقد تبع ذلك تشييد العديد من الجوامع بالمدينة على فترات من الزمن[*] وتعلق بهذه المساجد العديد من رجال الدين الذين أشرفوا على الشعائر بها من خطباء ومؤذنين ووعاظ. فمن الخطباء الشيخ الفاضل عثمان بن أبى السعود اشتهر بابن مسطوله بجامع عمرو بن العاص والذى استمر يمارس الخطابة به أكثر من ١٤ عام نعتقد أنها تبدأ منذ ١٠٥٦هـ/١٦٤٦م وما بعد عام ١٠٦٩هـ/١٦٦٠م[1] . وبجامع عمرو أيضاً استمر الشيخ عبد القادر بن شمس الدين ممارسة الوعظ به منذ عام ١٠١٨هـ[2] وعمل كل من الأخوين زين الدين أبو السرور وزين الدين أبو السعود ولدا الشيخ شمس الدين محمد البحيرى بالخطابة فى جامع الآبار الشريفة ابتداء من شهر محرم ١٠١٤هـ/١٠٥م إضافة إلى ممارستهما كتابة الغيبة بجامع عمرو[3]. وهناك أخوين آخرين عملا فى الخطابة أيضاً بجامع المقياس بروضة مصر القديمة وهما أحمد وعبد المنعم ولدا الشيخ عثمان الجروانى.

(*) راجع الفصل الأول.

(1) محكمة مصر القديمة : س١٠٠، م ٦٧١، ص ٣١٨، وكذلك س ١٠٣، م ٥٢٩، ص ٢٠٨.

(2) محكمة مصر القديمة : س ٩٨، م ١٧٥، ص ١٧٥.

(3) الباب العالى : س ٨٥، م ٤١٠، ص ٧٤.

وكان هؤلاء الخطباء يحضرون كل جمعة لإقامة الصلاة وسط أعـداد كبـيرة مـن المصلين بعد إقامة الآذان بواسطة العديد من المؤذنين بالمدينة. فكان الشيخ إبراهيم بن نـوح مـن أشهر مؤذنى جامع عمرو، والشيخ عبد الغفار بن الشيخ يوسف الريدى الأزهرى الـذى أقـر كمـؤذن بمسجـد إبراهيم النعمانى قرب شونه غلال مصر القديمـة فـى ٢٤ رجـب ١٠٥٧هـ/١٦٤٧م[١] . وغيـرهم كثيـرون. وقد علق الرحالة نتزو على هؤلاء المؤذنيـن، فيرى أنهم يشبهون صاحب الجرس فى الكنسية، فكانوا يصعدون لأعلى المئذنة ويصيحـون بأعلى أصواتهم بعدما يضعون أصابعهم فى أذنيهما، وفى كل مئذنة نحـو ١٩ أو ٢٠ مـؤذن يصيحون فى اليوم نحو ٥ مرات ويوم الجمعة ٦ مرات، ويقرر أن هـذا يسـبب ضوضـاء كبيرة[٢].

وقدم لنا نتزوشيتز أيضاً وصفاً دقيقاً لأداء الصلاة داخل المسـجد، فيدخـل الرجـال لتأدية صلاتهم أما النساء فلا يذهبن إلى المساجد، وكانوا يتركون أحذيتهم الحمراء والصفـراء فى الخارج أمام الباب، وبعد أن يفرغوا من الصلاة يأخذوا أحذيتهم ويذهبون لمنازلهم. وقـد تعجب من كيفية تعرف كل واحداً منهم على حذائه رغم تشابه الألوان[٣].

وقد وجد العديد من الفقهاء بالمدينة وهؤلاء ممـن عـرف عنـهم الديانـة والخـير والإصلاح وحب الفقراء والمساكين، كل هذه الصفات تنطبق على كلاً من الشيخ محيى الديـن عبد القاسم ونجله الشيخ شهاب الدين أحمد وعمه الشيخ العلامة زيـن الديـن نـاصر ولـدا المرحوم الشيخ نور الدين على بن المرحوم شرف الدين موسى سبط الشـيخ العـارف بـالله

---

[١] محكمة الباب العالى: س ١٢٥، م ٤١٢، ص ١٣٥.

[٢] Neitzschitz. Op. Cit. P221

[٣] Neitzschitz. Op. Cit. P202

تعالى ابن السعود الجارحى، وكل هؤلاء جميعاً من جملة فقهاء مصر القديمة الذين ابتداء ذكرهم منذ عام ١٠١٨هـ/١٦٠٩م[1] .

ولاشك أن الفقه آنذاك كان له نصيب لا بأس به فى مصر العثمانية فالشيخ على الأجهورى (٩٦٧ – ١٠٦٩ هـ/١٥٥٨ – ١٦٥٨ م) من أشهر هؤلاء الفقهاء ورسالته التى أشرنا إليها من قبل (رسالة فى المغارسة) وكذلك كتابه فى الفقه عن " الإجابة عن أسئلة وردت من المغرب وأجوبتها " وكلها أمور تدور حول البيع والشراء، وكيفية الطهارة والوضوء وأمور العبيد والجوارى[2]. وكذلك رأينا الفقيه محمد بن عبد الباقى بن يوسف بن أحمد بن علوان الزرقانى المصرى الملكى الأزهرى (١٠٥٥/١١٢٢هـ) الذى كتب كتابه حول الإجابة على بعض العقائد والتصوف[3]. وآخرون كتبوا حول تحريم الدخان وشرب الخمر والبوظة وما يترتب عنهم من أضرار بالمجتمع وهو ما رأيناه فى الفصل السابق.

ومن الأمور التى اعتاد عليها أهل المدينة الذهاب إلى القرافة فى يوم الجمعة، حيث توجد بها بعض المدافن التى كان يقدسها المسلمين ويقرءون القرآن مع رمى سيقان الورود والريحان، وكلها أمور قد لفتت أنظار الرحالة الذين زاروا المدينة خلال القرن، وقد اعتبروها ضربا من الجدل والشعوذة.

٢. الأحوال الدينية لنصارى مصر القديمة:

مصر القديمة ولاسيما منطقة قصر الشمع مستودع كنائس كما قلنا فى فصول سابقة. وهذا بالطبع نابع من كثرة الكنائس، التى بنيت بها خاصة منذ القرن الرابع أو الخامس

---

[1] محكمة مصر القديمة: س ٩٨، م ٥٩، ص١٩.

[2] على الأجهورى: أسئلة وردت من المغرب، ص١ وما بعدها.

[3] محمد بن عبد الباقى الزرقانى المصرى: أسئلة وأجوبة وهى أسئلة مختلفة فى العقائد والتصوف والأحكام الشرعية ، مخطوط بدار الكتب، ٣٠ معارف عامة، ميكروفيلم ٤٦٠١٩.

الميلادى وليس بعد ذلك لأن الفقه الإسلامى أقر المبدأ الرئيسى وهو " لا كنيسة فى الإسلام "[١] . وكانت القاعدة الفقهية السائدة فى مصر العثمانية إبقاء الكنائس والأديرة القديمة قبل الفتح الإسلامى والموجودة قبل الفتح العثمانى وإجازة تجديد وترميم الكنائس القديمة[٢].

فقد استقر النصارى بحارة قصر الشمع فى وئام بعض الشئ تطبيقاً للمبدأ الذى أعلنه الروح القدس بقوله " أعلم أن معاشرتنا مع أبناء الجنس ومعاملتنا إياهم أمراً ضرورياً جدا لمعاشنا ... "[٣] . وبناء على ذلك مارس النصارى اليعاقبة والأروام بالمدينة شعائر ديانتهم داخل الكنائس دون تضييق أو تجنى من إدارة المدينة الإسلامية إلا فى الأمور التى تستدعى ذلك وهو ما سوف نلاحظه بعد قليل.

وقد مارس النصارى الرهبنة داخل دير مارى جرجس الذى خصص للبنات الراهبات اليونانيات Des Religieufes Greques المنقطعات للعبادة وممارسة الرهبنة فقط، وكان يدخله الفرنسيين للتبرك والزيارة[٤]. وكذلك دير مارى مينا بفم الخليج كان يقطن به العديد من الرهبان.

والحقيقة أن الصبغة المسيحية التى ميزت الأحياء القبطية بمصر القديمة هى التى دفعت المسلمين إلى إثبات الوجود الإسلامى داخل تلك الأحياء من خلال إنشاء العديد من المساجد والزوايا، ونتيجة تجاور المساجد والزوايا للكنائس والأديرة جعل الأحياء القبطية هذه منطقة غليان وصراع دائم بين المسلمين والنصارى الأمر الذى اقتضى من السلطة الضرب بيد من حديد لاستتاب الأمن وإعادة السكينة.

---

[١] محمد عفيفى: الأقباط فى العصر العثمانى، ص٧٩.

[٢] نفسه : ص ٨٠.

[٣] مجهول: قوت النفوس فى مخاطبة العريس والعروس، ١٣٦، لاهوت طلعت، ميكروفيلم ٢٢٩٥٦، ص٤.

[٤] M. .T. E. Thevenot. Op. Cit. P253.

الدولة وتنظيم الأمور الدينية:

لا مـراء أن للأمـن دور هام لضمان سير الحياة وانضبـاط الأمـور داخلـها أى مجتمع، فغياب دور الدولة يؤدى إلى شيوع الفوضى وعدم الاستقرار وتصبح الجريمة شـئ عادى تحت مظلة القانون الواهى. إذن نتفق جميعاً أن وجود الرادع شئ ضرورى من أجـل إفراز مجتمع آمن ومستقر ومتماسك. وإذا نظرنا إلى المؤسسات الدينية التى أشـرنا إليـها، نجدها تخص طرفى المجتمع المصرى مسلمين ومسيحيون، أما اليهود فلا نـرى لمقدسـاتهم ذكرى بمصر القديمة سوى شذرات قليلة.

ولما كانت مقدسات المسلمين والمسيحيين متجاورة وقعـت العديـد مـن الحـوادث والنـزاعات على طول القرن السابع عشر[١] ففى عام ١٠٥٤هـ / ١٦٤٤م برز أمرين مـن قبـل الـدولة للكشف على المساجد والكنائس بمصر القديمة أولهما: فى مستهل رجب حيـث تـم الكشف على زاوية الشيخ إبراهيم النعمانى داخل قصر الجمع والكنيسة التـى تجاورهـا وهـى كنيسة بربارة. فوجدت الزاوية ممتلئة بالأتربة والأحجار، أما الكنيسة تحـوى أبنيـة جـديدة، وأن النصارى قد أضافوا للكنيسة ما اختلسوه من أرض الزاويـة، فـأصبحت هـذه الـزاوية صغيـرة الحجم معدمة وظهرت الكنيسة فى أزهى صورة لها[٢]. ولكن رغم ذلـك أراد الحـاكم الحنفـى التحقـق بنفـسه دون الاستماع فقط من الكشافة أو المسلمين القاطنين بـالمنطقة. فـرغب فـى الصعود إلى أعلى الكنيسة ليرى بنفسه، ولكن كان بابـها مغلـق، فـأراد الصعـود إلى كنيسة مجاورة لها هى كنيسة المعلقة فمنعه ناظرها مينا بن أبى الفـرج

---

[١] ويشير الدكتور محمد عفيفى إلى أن عملية إنشاء الزوايا والمساجد فى الأحياء القبطية فى مصر القديمة ربما يعود ذلك إلى مسكنى بعض المسلمين فى هذه الأحياء وبالتالى أصبحت الحاجة ضروريـة لإتمـام شـعائرهم الدينيـة وإثبـات وجودهم. وهو الأمر الذى تأكدنا منه بالفعل من خلال استقراء سجلات محكمة مصر القديمة ذاتها. أنظر : أ.د/ محمـد عفيفى : المرجع السابق ، ص ص٢٢٢ ، ٢٢٣.

[٢] محكمة مصر القديمة: س ١٠٠، م ٣٣٨، ص ١٥٤.

– سبق التعرف به – من الصعود. ورفض النصارى هذا دليل على وجود الزيادة في الكنائس ولم يكتفوا بذلك، بل كانوا يحضرون دوابهم داخل زاوية النعمانية دون مراعاة قدسيتها[1]. وثانيهما في ١٣ رجب من نفس العام أمر الخوالى أيوب باشا بالكشف على الكنائس ونفس الزاوية، فقام كلا من الأمير صفر أغا – المعين من قبل الوالى بذلك – ومعه الأمير سليمان – صوباشى مصر القديمة آنذاك – بالكشف وتقصى الأمر، فإذا بهما يجدوا اختلاسا واضحا من أرض الزاوية لصالح كنيستى بربارة والمعلقة رغم محاولة المعلم ابشاى القسيس بحارة شنودة تبرير تعدى النصارى الصارخ بقوله " إن جميع مبانى الكنايس الموجودة المستجدة العمارة فعلوه وجددوه بأمر من السلطنة الشريفة وبموجب أمر من قضاة العساكر السابقة ...... "[2] .

وفى عام ١٠٧٨ هـ/ ١٦٦٨م أمر الوالى إبراهيم باشا بالكشف على الكنائس بمصر القديمة. فقام كلا من محمد أغا – المكلف بخصوص ذلك – ومعه الحاكم الشرعى الحنفى، والأمير محمد صوباشى مصر القديمة فكشفوا على دير مارى جرجس ودير النصارى الأروام الملكية ودير بابليون فوجدوهم على حالة جيدة بهم أبنية جديدة ونفس الحال بالنسبة لكنيسة سيدة النصارى وأبى سرجه بينهما جامع المرحوم إبراهيم النعمانى خراب متهدم ليس به أعمدة ولا أخشاب. وكشف على كنيسة بربارة ودير اليهود فوجدا مرتفعين البناء بينهما جامع خراب مغلق الأبواب. وأيضا كشف على كنيسة منقريوس ودير شنودة بحارة البترك عامرتين بينهما مسجد مغلق[3].

---

[1] نفسه: م ٣٣٨، ص١٥٤.

[2] نفسه: م ٣٥٣، ص ١٦٣.

[3] محكمة مصر القديمة: س ١٠٣، م ٦٨٨، ص ٢٦٦.

ولما كان للنصارى اليد العليا فى الخراب الذى حل بتلك الجوامع والزوايا، أمر محمد أغا مندوب الوالى بتسمير أبواب الكنائس المذكورة كإجراء تأديبى للنصارى، ما عدا دير البنات القبط فلم يتم تسميره نظراً لوجود البنات المنقطعات للعبادة به[١].

إذن يتضح لنا أن تدخل الدولة فى الوقت المناسب لحسم النزاع وإقرار العدالة قد حد من النزاعات التى نشبت بين المسلمين والنصارى بدافع الدين. وساهمت بذلك فى الحفاظ على المؤسسات الدينية فى المنطقة، وبفضل هذا ما يزال الكثير منها باقياً حتى الآن وبفضل هذا أيضاً أعطت الفرصة لتلك المؤسسات لتنعم بالاستقرار وممارسة نشاطها فى جو من الأمن والاستقرار.

الأوقاف ودورها فى مصر القديمة:

الوقف هو صدقة جارية، وحبس العين والتصدق بالمنفعة، حيث يقوم الشخص بالتصدق بريع ما يملك سواء كان عقارات أو أطيان أو حوانيت أو خلافه لتصرف فى مصاريفها الشرعية ابتغاء وجه الله. ولسنا هنا فى معرض حديثنا عن أوقاف مصر القديمة بحاجة إلى التعرض لظروف الأوقاف وإدارتها إلا بالشئ اليسير الذى يخدم هدفنا وذلك لتعرض بعض المؤرخين لدراسة مثل هذا الموضوع الهام من تاريخ مصر فى الحقبة العثمانية[٢].

وقد تعددت الأوقاف داخل مصر القديمة، حيث شملت أراضى زراعية وعقارات ووكائل وحوانيت وأحياناً معاصر ومصابغ وغيرها. وينفق ريع ذلك إما لبعض المؤسسات

---

[١] نفسه: م ٦٨٨، ص ٢٦٦.

[٢] أنظر: دراسة الدكتور/ محمد عفيفى – الأوقاف والحياة الاقتصادية فى العصر العثمانى.

كالمساجد والزوايا والكنائس وأحياناً الأضرحة والمدارس والأسبله أو للحرمين الشريفين فى صورة مخصصات عينية أو نقدية[١].

ويمكننا القول بأن تاريخ مصر القديمة يذخر بالعديد من الأوقاف خلال الحقبة العثمانية بوجه عام والقرن السابع عشر بوجه خاص وذلك نتيجة تبارى العديد من الأمراء والسلاطين ورجال الدين بل والأفراد العاديين فى حبس بعض أملاكهم لفعل الخير.

أ. أوقاف الأمراء والسلاطين:

قام السلاطين المماليك بحبس بعض أملاكهم، والتى ما يزال بعضها باقياً على حاله خلال القرن السابع عشر. فقد كان لعز الدين أيبك التركمانى أوقاف على مدرسة وتربه وخانقاه فى ساحل مصر القديمة المطل على النيل. ولكن للأسف عندما تم الكشف على هذا الوقف عام ١٠٥٩هـ / ١٦٤٩م بأمر من قاضى القضاة الزينى صيام الرومى، لم يعثر على أى معالم للتربة أو الخانقاه سوى منارة للمدرسة المذكورة[٢].

كما كان لكلا من السلطان حقمق أوقافاً بمصر القديمة تولى نظارتها الشيخ شمس الدين محمد أبو الفضل بن وفا[٣]. وللناصر محمد ابن قلاوون عقارات أوقفها على جامعه الجديد بخط فم الخليج[٤] . وقد تم تأجير هذه العقارات لمدة سنة نظير مبلغ ستة أنصاف وثلثى نصف من الفضة لصالح الوقف. ويعود السبب فى ذلك – كما يرى بعض المؤرخين –

---

[١] حيث أبقى سليم الأول على الصدقات الموجه للحرمين من جهة أوقاف مصر والتى يقال لها الصر المكى أو الصرة السلطانية وهى المبلغ النقدى الذى اعتاد سلاطين آل عثمان إرساله للحجاز. أو عيناً فى صورة دشايش سلطانية. وقدر المبلغ النقدى الذى يرسل للحجاز سنوياً نحو ١٤،٠٠٠ دوقية ذهب، وقد عمل السلطان سليم بعد ذلك على مضاعفة المبلغ. للمزيد أنظر: محمد بن أبى السرور البكرى: الروضة المأنوسة فى أخبار مصر المحروسة، مكتب الثقافة الدينية ، ط١ ، ١٩٩٢، القاهرة ، ص ٧٨.

[٢] محكمة مصر القديمة: س ١٠١، م ٥٣٢، ص ١٩٨.

[٣] نفسه: م ١٧٠١، ص ٦٦٨.

[٤] الباب العالى : س ١٦٠، م ١٠٣، ص ٢٩.

أن الأصل فى الوقف هو حبس العين الموقوفة ولانتفاع بريعها. ومن هنا كان الإيجار انتفاعاً بريع الأعيان الموقوفة، والإيجار كان منتشراً فى عقارات الأوقاف وعقارات الأملاك سواء بسواء[١].

وكان للأمراء نصيب وافر فى الأوقاف. فمن أشهر هؤلاء نجد الأمير يوسف جوربجى من طايفة عزبان والمتحدث على المطبخ السلطانى، وملتزم ناحية زهرة بالوجه القبلى بحق النصف والقاطن هو بمصر القديمة. يوقف فى عام ١٠٩٣هـ/١٦٨٣م حوانيت وعقارات وأراضى زراعية وحوشاً فى منطقتى فم الخليج ودار النحاس ويصرف ريع ذلك على مصالح وقف الصحابى محمد بن المقداد ومقام الإمام الشافعى والحرمين الشريفين[٢]. أيضاً نجد الأمير بهرام جوربجى من طايفة مستحفظان وملتزم ناحية المفهمين بإقليم الأطفيحية بالوجه القبلى والمقيم بمصر القديمة بوقف طاحون وفرن ووكائل وحوانيت وشونه معدة لخزن الحطب بدار النحاس وفم الخليج، ليصرف ريع ذلك له ولأولاده من بعده ثم لصالح ضريح الإمام الليث بن سعد السمرقندى بالقرافة وللحرمين الشريفين[٣].

ولصالح زاوية السادات الوفائية أوقف الأمير مصطفى أوده باشى من طايفة عزبان وكتخذا عامل البحرين بمصر القديمة. جنينة كاملة بروضة مصر القديمة[٤]. وتؤكد المصادر أن للأمير جانم الحمزاوى – أمير الحاج فى بداية الفتح العثمانى – أوقافاً بمصر القديمة[٥].

---

[١] أ.د./ محمد عفيفى : المرجع السابق ، ص ١٤٥.

[٢] محكمة مصر القديمة : س ١٠٥، م ٤١٨، ص ١٣٨ – ١٤٢.

[٣] محكمة مصر القديمة : س ١٠٣، م ١٠١، ص ٤٢ – ٤٥.

[٤] محكمة مصر القديمة : س ١٠٥، م ١٢٧٤، ص ٤١٥.

[٥] دشت ١٥٥، ص ٥٦٥، بتاريخ ١٠٤٧هـ ، هو جانم بن يوسف بن اركماس السيفى قانى بأي الحمزاوى نائب الشام كان، وقيل أن الأمير جانم الحمزاوى ولد بمدينة حلب فهو من أعيان أبناء الناس وقد رقى فى دولة ملك الأمراء خايربك وصار صاحب الحل والعقد بمصر – للمزيد أنظر: ابن إياس بدائع الزهور، ص ٣٥٢.

ب. أوقاف الأفراد ورجال الدين:

وتذخر سجلات المحاكم الشرعية بالعديد من الوقفيات للأفراد ورجال الدين من أهل مصر القديمة. ففى عام ٩٢٤هـ / ١٥١٨م أوقف الشيخ أبو السعود الجارحى معصرة كاملة لعصر الزيت الحار والحلو بخط حمام جمدار قرب مدرسة الكويكية وطاحونين بنفس المنطقة لطحن البزر والقرطم، كل ذلك له ولأولاده ومن بعدهم يصرف ريع ذلك على جامعة بخط كوم الجارح وللفقراء القاطنين بمنطقة الجامع المذكور[١].

وبخط حمام جمدار أيضاً قرب مقام سيدى على الجعجعى أوقف الشيخ شهاب الدين أحمد بن ابن الرداد – الأمين على قيامه نهر النيل فى فترة (١٠٦٧هـ/ حتى وفاته عام ١٠٧٦هـ) قطعة أرض وما عليها من أصول الاتل لصالح زاوية بنى الوفا[٢].

وهناك العديد من الأفراد البارزين يرد ذكرهم بصورة واضحة وأدرجت أسمائهم بتاريخ المنطقة، ومن هؤلاء الحاج على البدنيوى القللى الذى كانت له صولات وجولات[٣]. ففى عام ١٠٥٧هـ /١٦٤٧ م أوقف عقارات وفواخير بخط فم الخليج لصالح تربته ولضريح الشيخ نور الدين على بحارة الجمالة بالخط المذكور[٤].

يتضح لنا أذن أن الأوقاف قد تعددت سواء من جانب الأمراء والأفراد العاديين داخل مجتمع مصر القديمة الأمر الذى أدى إلى سير الحياة بشكل طبيعى داخل هذا المجتمع، فلا يعيب عن أذهاننا أن الأوقاف من أهم المصادر الشرعية للإنفاق على قطاعات كبيرة داخل المدينة. والشئ الذى لاحظناه عند التعرض لمسألة الأوقاف فى مصر القديمة موجهاً نحو

---

[١] حجة وقف الشيخ أبو السعود الجارحى – رقم ٢٨٧.

[٢] محكمة مصر القديمة: س١٠٢، م ٥٨٤، ص ص ٢١٨ ، ٢١٩.

[٣] راجع الفصل الثانى.

[٤] محكمة مصر القديمة : س١٠١، م ١٨٠، ص ٦٧.

الحرمين الشريفين فلا نكاد نعثر على أى حجة وقف داخل بطون السجلات حتى تطالعنا بأنـها موجهة للحرمين الشريفين سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

فقد اهتمت مصر القديمة اهتماماً كبيراً بأوقاف الحرمين الشريفين وخصصـت لـها ناظراً يرعى شئونها مثلما قام الأمير نذير أغا بتأجير أراضى بفم الخليج لصالح الحرميـن[١]. والأمير يوسف أغا الذى جمع بين وظيفتى أغا الرسالة السلطانية ببـولاق ونظـارة أوقـاف الحرمين الشريفين بمصر القديمة عام ١٠٩٦هـ/ ١٦٨٦م[٢].

التصوف وبيوت الصوفية:

فكما ذكرنا أن المصريين من أقدم شعوب الأرض تفكيراً فى الدعـوى إلـى عبـادة الآلهة، والانقطاع للعبادة – فلما ظهر الإسلام أصبح الانقطاع إلى الله والزهد والتنسك أهم مـا ميز حياة المصريين وهذا اللون من العبادة أطلق عليه " التصوف " ، ونعت مـن يمارسـونه باسم " المتصوفة "[٣].

وكان التصوف من أهم السمات التى تميز الحياة فى مصر العثمانيـة حيـث كـان المتصوفة يقيمون فى جماعات تحت إدارة شيوخهم فى معابد خاصة بهم أطلقوا عليها أسـم " الزوايا "[٤]. وقد كان التصوف فى بداية الأمر فردياً ثم أصبح بعد ذلك ظاهرة اجتماعية انفعل معه المجتمع بأثره.

---

[١] محكمة مصر القديمة : س ١٠٢، م ٥٥١، ص ٢٠٠٠.

[٢] محكمة بولاق : س ٥٨، م ٧٧٣، ص ٢٨٧.

[٣] وقد قيل فى التصوف:

تورع وتب وازهد وصل وصم ولا .. تنم واعتزل واصـمت وراقـب وأيقن

وكن دائما فى الذكر والشـكر قايما .. على االصدق والإخلاص فى كل موطن

ولمزيد من هذه الأشعار أنظر : علاء الدين المكى: المصدر السابق، ص٧٢.

[٤] أنظر الدراسة المفردة لذلك للدكتور توفيق الطويل: التصوف فى مصر إبـان العصـر العثمـانى – سلسـلة تـاريخ المصريين رقم (٢) ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٨٨، ص٣٦.

وبجانب الزوايا وجدت الخوانق التي يرى على مبارك أنها فى الأصل لفظ فارسى يعنى بيت العبادة، ثم عرفت بعد ذلك باسم التكايا وهى أماكن لإقامة الدراويش من الأعاجم.

وللتصوف نصيب وافر داخل مصر القديمة، فعلى أرضها قامت العديد من الزوايا وبعض الخوانق " التكايات " واللذان ارتبطا بهما الكثير من الفرق الصوفية التى يطلق عليها فى المصادر لفظ " السادات ".

كما ذكرنا من قبل أن الدرس كان يقام داخل هذه الزوايا مثلما كان يحدث داخل زاوية السادات الوفائية وزاوية ساعى البحر التى عثرنا على مكتب " كتاب " ملحقا بها يتردد عليه الطلاب عام ١٠٥٤هـ /١٦٤٤م[١].

ومن أشهر المتصوفة الشيخ زين الدين عبد الجواد بن الشيخ حجازى القمنى والشيخ زين الدين أبى السرور بن شمس الدين الحواوشى اللذان مارسا التصوف داخل زاوية الشيخ شهاب المجذوب في النصف الأول من القرن السابع عشر[٢].

والشئ الملفت للنظر أن نجد زاوية تنتسب لامرأة ، كزاوية الشيخة هنيدة بحارة الدخامسة بفم الخليج، صحيح أنها لم يرد الكثير عنها، ولكن ثبت لنا أنها كانت عامرة بدليل وجود امرأة تدعى مباركة بنت عامر الدخميسى توقف عقارا عام ١٠٤٨هـ/١٦٣٨م يصرف ريعه على مصالح الزاوية[٣]. واستقرائنا لهذه الملاحظة يؤكد لنا حقيقة تاريخية هامة لا يجب أن تغيب عن أذهاننا وهى أن المرأة بوجه عام خلال العصر العثمانى لم تكن مكتوفة الأيدى، بل كان لها دورا بارزا فى شتى مناحى الحياة مثلما كان لأقرانها فى سابق العصور[٤].

---

[١] محكمة مصر القديمة: السجل السابق: م ٢٧٤، ص ١١٩.

[٢] دشت ٥٥، ص ٥٦٥ لسنة ١٠٤٧هـ .

[٣] محكمة مصر القديمة: س ١٠٤، م ٩٦٥، ص ٣٣٤.

[٤] للمزيد أنظر: .غادة أسامة: المرأة فى العصر العثمانى– رسالة ماجستير تحت الإعداد بآداب القاهرة، تحت إشراف أ.د/ محمد عفيفى أيضا.

أما الخوانق أو التكايات، فقد وردت فى العصر العثمانى بلفظ تكايا، ولكن لم تكـــثر فى مصر القديمة، فعلى أرضها شيد من قبل السلطان عز الدين أيبك التركمانى خانقاه علـــى ساحل مصر القديمة والتى آل أمرها إلى خراب فى العصـــر العثمـــانى، وقـــد وردت فـــى المصادر بلفظ خانقاه مما يؤكد قولنا. ومن أشهر التكايات، تكية الأمير عبـــد البـــاقى والتـــى ارتبط بها مجموعة من الوظائف مثل البوابة والفراشة والخدمة، وتولى شئونها نـــاظراً يتـــم تعيينه من قبل قاضى القضاة الذى قام بإقرار الأمـــير ذو الفقـــار جـــاويش بنظارتـــها عـــام ١٠٥٢هـ/١٦٤٢م[١]. ثم من بعده تولى أبنه الأمير محمود جاويش[٢]. وهناك تكية الأعجـــام بالقصر العينى التابع لمصر القديمة، وقد تولى نظارتها الشيخ الورع شمس الدين محمد بـــن الشيخ فضلى شيخ طائفة الأعجام الذى اجتمع له الكثير من المريدين[٣]. وتكية القصر العينـــى هذه معدة لعمل الذكر كل ليلة بعد العشاء أو حضرة كل يوم جمعة. بها ضريح الشيخ العينـــى وبها أيضاً مساكن لسكنى الصوفية ولها مرتب الروزنامة أربعون ألفا وثلثمائة وثمانية وستون قرشاً[٤]. وتكية الينكجرية بخط فم الخليج[٥].

وقد انتظم المتصوفة فى فرق متعددة يعود إنشائها إلى ما قبـــل العصـــر العثمـــانى، وكانت الفرقة الواحدة تتشعب أحياناً إلى عدة فروع، وأحياناً أخرى إلى أكثر من جهة داخـــل القطر المصرى، وكان أقدمها فرقة القادرية التى أسسها عبد القـــادر الجيلانـــى عـــام ٥٦١م والرفاعية التى أنشأها أحمد الرفاعى فى ٥٧٦م والأحمدية نسبة لأحمد البـــدوى فـــى ٦٧٥م،

---

[١] دشت ١٦١، ص ٩٠٤ لسنة ١٠٥٢هـ.

[٢] الباب العالى: س ١٦٠، م ٧٦٨، ص ١٩٦.

[٣] محكمة مصر القديمة: س ١٠٣، م ٧٣٢، ص ٢٨١.

[٤] على مبارك، الخطط، جـ٦ ، ط١ ، ١٩٨٧، ص ١٦٢.

[٥] محكمة مصر القديمة: س ١٠٢، م ٨٠٧، ص ٣١٨.

والسعدية التى يذكر البعض أنها فرع من فروع الرفاعية وهنـاك الوفائيـة نسـبة للسـادات الوفائية[١]. وأيضاً الحويوية التى كانت لها زاوية خاصة بها بفم الخليج[٢].

وقد وجدت لهذه الفرق جماعات داخل مصر القديمة، وارتبط بـها مجموعـة مـن المتصوفة. فانتظمت هذه الفرق تحت مظلة شيخ الطائفة ونقيبها اللذان يرعيان شئون طائفتهما ويحافظان على إقامة شعائرها وصفاتها المميزة لها دون غيرها من الفرق، فالقادرية وجـدت بخط حمام جمدار ولبس أهلها الزى الأخضر وخضعوا لإشراف شيخهم، ومارسوا التصـوف وقراءة القرآن داخل زاوية العارف بالله تعالى الشيخ محمد ساعى البحر[*] واستمعوا لـدروس شيخهم شمس الدين محمد بن عبد المغيث الأمام بالزاوية المذكورة[٣]. أما الحويوية فينسـبون إلى العارف بالله تعالى محمد الحويوى وزاويته الكائنة بفم الخليج، حيث كانوا يمارسون الذكر بهذه الزاوية. وتذكر الوثائق أسم السادة الحويوية مدرجاً مع الرفاعية فتقول " السادة الحويويـة الرفاعية بمصر القديمة " ومعهم السادة السعدية أحد أفرع الرفاعية واللـذان انتشـر فقرائـها داخل مصر القديمة. ويذكر أن أشهر شيوخ السادة الحويوية الشيخ زين الدين صالح بن الشيخ سراج الدين عمر، الذى تزوج بامرأة من الوجه القبلى عام ١٠٧١هـ/١٦٦١م على صـداق قدره اثنان وثلاثين قرشا[٤].

والسادة الأحمدية انتشروا بمنطقتى حمام جمدار وفم الخليج، وكانوا بجانب ممارستهم الدينية قد اندمجوا نوعـا مـا فـى الحيـاة الاقتصاديـة، فكـان نقيبـهم مثـلا فـى عـام ١٠٨١هـ/١٦٧١م يعمل زياتاً فى فم الخليج[٥]. وأيضاً على بن حسن البباوى خليفة السـادة

---

[١] د./ توفيق الطويل: المرجع السابق ، ص٦١.

[٢] محكمة مصر القديمة: س ١٠٠، م ٨٧، ص ٣٦.

[*] راجع الجدول السابق الخاص بحصر الزوايا.

[٣] محكمة مصر القديمة : س ١٠٥، م ١٩٨، ص ٦٩.

[٤] محكمة مصر القديمة: س ١٠٢ ، م ٨٢٠، ص٣٢٢.

[٥] محكمة مصر القديمة: س ١٠٤، م ٢٣١، ص٩٨.

الأحمدية بحمام جمدار كان له بذمة المعلم عامر بن سلطان – من أهالى كوم أزريح بالوجه القبلى والرايس ببحر النيل – ثمن بن ودخان وقرض شرعى[١].

مما سبق يمكننا القول أن التصوف قد أنتشر بشكل واضح فى مصر القديمة ولاسيما منطقتى حمام جمدار وفم الخليج، ولم يكن دور هؤلاء المتصوفة باهتا، بل شاركوا بفاعلية داخل مجتمع مصر القديمة فى النواحى الاجتماعية والاقتصادية والثقافية بجانب الحياة الروحية.

ثانيا: الحياة الثقافية:

لقد أثرت معالجة الجوانب الفكرية متلازمة مع النواحى الدينية نظراً لارتباط المؤسسات الدينية والثقافية معاً، فقد كان العلم يتم داخل المساجد والمدارس على حد سواء. وقد ورث العصر العثمانى هذه الفكرة من عصور سابقة عليه.

وقد درج الكثير من المؤرخين على وصف العصر العثمانى فى تاريخ مصر بأنه عصر تخلف فكرى، بسطت الركاكة وضعف الأسلوب ردائها على مؤلفات العصر. وأكثر من ذلك، فقد قيل أن الرعاية التى لقيتها الثقافة فى العصر المملوكى من جانب الهيئة الحاكمة، قلت وانعدمت فى العصر العثمانى، ولم يعد أصحاب القلم يجدون التشجيع الذى يحفظ لهم قوتهم. ويحدثنا أحد كتاب العصر قائلاً " وزماننا هذا لا يعيش فيه إلا من عنده طرف من التمسخر والخلاعة والدبدبة والصقاعة، ولهذا قال الشاعر:

مات من عاش بالفصاحة جوعا وحظى من يقود أو يتمسخر[٢]

---

[١] محكمة مصر القديمة: س ١٩٥، م ١٤١، ص ٥١ – وقد وضع أ.د/ سعيد عاشور مؤلف خاص عن السيد أحمد البدوى به شرح وافى عن سيرته وخلفائه من الأحمدية.

[٢] أحمد شلبى بن عبد الغنى الحنفى المصرى: أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشوات. تحقيق أ.د/ عبد الرحيم عبد الرحمن – القاهرة – ١٩٧٨، ص ١٨.

ويستطرد قائلا " وقد تساق الأرزاق لمن لا يدرك الخط فى الأوراق ويحرم صاحب البلاغة ولا يجد من القوت بلاغه "[١].

ولكن فى الحقيقة رغم كل ما قيل، لم تكن الصورة قاتمة على طول الخط فالحياة الثقافية لم تكن مهملة خلال العصر العثمانى. ولم يكن العلماء مهملين من قبل الهيئة الحاكمة، فإن كان بعض الولاة لم يلتفت إلى رجال العلم لا يعنى ذلك أن كل الولاة كذلك. فتذكر المصادر العديد من الولاة فى مصر العثمانية، كانوا يحبون العلماء ويقربونهم ويجزلون لهم العطاء. فالوزير مصطفى باشا " ١٠ جمادى الأول ٢٢/١٠٢٧ ذى الحجة ١٠٢٧هـ - ٦ مايو ١١/١٦١٨ ديسمبر ١٦١٨م" . "كان ليناً جداً محباً للعلماء والفقهاء"[٢] . والوزير بيرم باشا " ١٩ شعبان ٩/١٠٣٥ محرم ١٠٣٨هـ - ١٦ مايو ٨/١٦٢٦ سبتمبر ١٦٢٨م " كان أيضاً محباً للعلماء والفقهاء[٣]. وغيرهما، بل أن بعض هؤلاء الولاة كانوا من العلماء، فكان الوزير جعفر باشا (٩ ربيع الأول ٢٤/١٠٢٨ شعبان ١٠٢٨هـ - ٢٤ فبراير ٦/١٦١٩ أغسطس ١٦١٩م) عادلا وعالماً[٤]. وربما لم يهتم بعض الولاة بالعلماء لعدم استقرارهم بسبب وجود بعض الفتن والثورات أو انتشار المجاعات التى كانت تخيم على ربوع البلاد فى بعض السنوات.

فكان التدريس يتم داخل الكتاتيب والمساجد والزوايا والمدارس بصورة ملحوظة، وقد انتشرت هذه الكتاتيب فى أنحاء متفرقة من مصر القديمة والتحق بها العديد من الأطفال الأيتام، حيث يتم تأديب هؤلاء الأطفال وتلقينهم أصول الدين من قراءة القرآن والأحاديث وأصول الفقه والتفسير وكان المعلم فى تلك الكتاتيب يطلق عليه لقب " مؤدب الأطفال " ومن

---

[١] نفس المصدر، ص ١٨.

[٢] محمد بن ابن السرور البكرى: المصدر السابق، ص ١٢٢.

[٣] يوسف الملوانى: المصدر السابق، ص ١٧٤.

[٤] نفس المصدر ، ص١٧١

هؤلاء الذين تردد ذكرهم الشيخ جمال الدين يوسف بن خليل عام ٩٧٠هـ[١] والشيخ حسام الدين عام ١٠١٨هـ/١٦٠٨م[٢] . وكانت الكتاتيب تلحق بالمساجد والزوايا والأسبلة، فقد وجد كتابا أعلى سبيل جامع السويدية[٣]. وكتاب بزاوية ساعى البحر كان الأطفال يتعلمون فيه القراءة عن طريق ألواح معدة لذلك[٤]. وكان العلم يدرس داخل زاوية السادات الوفائية أيضا. وفى المساجد كانت تقام حلقات العلم منذ العصر المملوكى، فيقول المقريزى " إن جامع عمرو بن العاص كان له سنة ٧٤٩هـ بضعا وأربعين حلقة لإقراء العلم لا تكاد تبرح منه "[٥]. وقد استمرت هذه الحلقات فى العصر العثمانى ففى عام ١٠٩٨هـ/١٦٨٨م قام أحمد جاويش بن محمد بقراءة العلم داخل جامع عمرو بعد وفاة الشيخ محمد بن أحمد الوراقى[٦]. وكذلك الحال فى مسجد الآبار النبوية، فقد وجد به العديد من القراء وكان يتولاهم شيخ أطلق عليه " شيخ القراء بالآبار النبوية" مثلما تولى الشيخ شمس الدين محمد بن الشيخ على الشرنوبى هذه الشياخة عام ١٠٣٠هـ/١٦٢٠م[٧]. وقرر الشيخ أحمد الشافعى الأزهرى عام ١٠٨٦هـ /١٦٧٦م فى وظيفة تدريس بجامع يونس.

وتعددت المدارس داخل مصر القديمة أيضا. فمن هذه المدارس ، مدرسة السويدية التى أقيمت فيها الخطبة بجانب دروس العلم[٨]. ولفترة من الزمن كانت السويدية مقرا لمحكمة

---

[١] محكمة مصر القديمة: س ٩٠، م ٢١٨١، ص ٤٣٣.

[٢] محكمة مصر القديمة: س ٩٨، م ٥٤، ص ١٧.

[٣] محكمة منصر القديمة: س ١٠١، م ٨٠٤، ص ٣٠٣.

[٤] محكمة مصر القديمة: س ١٠٠، م ٢٧٤، ص ١١٩.

[٥] الدارس فى مصر الإسلامية: المرجع السابق، ص ٢٣٢.

[٦] الباب العالى: س ١٣٧، م ٢٧٣، ص ٩٨.

[٧] دشت ١٤١، ص ٣١٥.

[٨] دشت: ١٤٤، ص ١٣٠ – وذكر أنه من الضرورى ترتيب العلوم إذا أردت الإصلاح فنبدأ بالعلوم العربية واللغة والصرف ثم مرورا بالرياضيات والحساب وعلوم السنة والقرآن . للمزيد أنظر: محمد المرعشى: ترتيب العلوم ، مخطوط بدار الكتب، ٩٧ معارف عامة، ميكروفيلم ٤٥٩٢١ ، ص٣.

مصر القديمة، ويعنى ذلك أن المدرسة بجانب دورها الثقافى كانت مكاناً للتقاضى، أيضاً مدرسة عبد العزيز الخرنوبى بخط دار النحاس اتخذت مقراً للمحكمة، حتى أطلق عليها مسمى " المحكمة القديمة " فمنذ القرن السادس عشر والقضاء يمارس بشكل طبيعى بها حتى بداية القرن السابع عشر الذى شهدت خلاله فترات من الإهمال وتعرضت للسرقات، حيث سرق أغلب رخامها وأخشابها وبلاطها، وظلت معطلة لأكثر من أثنى عشر سنة. أى فى الفترة من ١٠٨٠هـ وحتى ١٠٩٢هـ ، ولكن قبل عام ١٠٨٠هـ كانت عامرة تمارس فيها الشعائر بكل دقة وانتظام. ولكن فى الربع الأخير من القرن السابع عشر وبالتحديد عام ١٠٩٨هـ/١٦٨٨م أصبحت الخرنوبية مرة أخرى مقراً للمحكمة بدلاً من السويدية[١].

على أن أعظم المدارس فى مصر القديمة مدرستا الخشابية[*] والشريفية بخط جامع عمرو بن العاص، فمدرسة الخشابية توجد داخل جامع عمرو نفسه بينما توجد الشريفية خارج الجامع، وكان يتم تدريس الفقه بهما خاصة الفقه الشافعى[٢]. والمدرسة الشريفية يعود إنشائها إلى عهد صلاح الدين الأيوبى. فيقول على مبارك " إنها أول مدرسة حدثت بديار مصر كانت بجوار الجامع العتيق بناها صلاح الدين سنة ٥٦٦هـ وعرفت بالمدرسة الناصرية وكانت للشافعية "[٣]. وقد زارها ابن جبير وقال عنها فى رحلته " أنها مدرسة قرب الشافعى لم يعمر بهذه البلاد مثلها ولا أوسع مساحة ولا حفل بناء يخيل لمن يتطوف عليها أنها بلد مستقل بذاته.....: "[٤] .

---

(١) محكمة مصر القديمة: س ١٠٥، م ٢٨٤، ص ٩٩، ونفس السجل م ١٠٢٣، ص ١٢٦.

(*) ترجع تسميتها بالخشابية لوجود درابزين من الخشب دائراً عليها. أنظر محكمة مصر القديمة، س ١٠٤، م ٨١٩ ، ص ١٤٧٢.

(٢) دشت ١١٩، ص ٥٤٣ لسنة ١٠١٢هـ.

(٣) على مبارك: المصدر السابق، ص ٧٠.

(٤) المدارس فى مصر الإسلامية: المرجع السابق، ص ١٥٢.

وكان التدريس خلال القرن السابع عشر يتم على يد أحمد المشايخ مقابل أجر معلوم من خلال "الايستمار" الذى يحدد فيه نوع الوظيفة والأجر المتقاضى. ففى الايستمار الصادر من محكمة الباب العالى فى ١٦ جمادى الثانى عام ١٠٥٩هـ/١٦٤٩م تم تعيين الشيخ شمس الدين محمد الفيومى لتدريس الفقه الشافعى بمدرستى الخشابية والشريفية بدلاً من الشيخ برهان الدين المأمونى الشافعى نظير أجر سنوى معلوم قدره ثلثمائة وخمسة عشر نصفا من النحاس من مدرسة الخشابية، أما أجره من الشريفية فقد بلغ نحو مائة نصف فقط[1] . وتردد ذكر الكثيرين من مدرسى هاتين المدرستين مثل الشيخ زين الدين سعود الطبلاوى الذى قام بتدريس الفقه فى الخشابية عام ١٠١٢هـ/١٦٠٢م والشيخ شمس الدين محمد الشعراوى والشيخ إبراهيم بن على الغزولى والشيخ زين الدين عبد الواحد الشنوانى. ولم يكتف بعضهم بالتدريس، فقد وجدنا شمس الدين محمد الحميدى يجمع بين وظيفتى التدريس فى الخشابية ووظيفة الطب بالبيمارستان المنصورى[*] فى عام ١٠٥٨هـ/١٦٤٨م، أى أن الشيخ شمس الدين محمد بن عبد الرؤوف الحميدى كان طبيباً ومعلماً فى آن واحد[2]. ولكن للأسف تعرضتا الخشابية والتشريفية لبعض الإهمال، فقد امتدت إليهما يد التخريب والسرقة فى عام ١٠٨٨هـ/١٦٧٨م وأصبحتا عرضة لإلقاء القمامة والأتربة بهما، لذلك أصدر الوالى عبد الرحمن باشا بيورلدى على يد تابعه محمد أغا بلوك باشى القبجية وتابعه إبراهيم أغا موجهاً إلى القاضى الحنفى بمصر القديمة يقول فيه " أنت يا نايب مصر القديمة تكشف على المدرستين المذكورتين وتعرض لنا "[3] .

---

[1] الباب العالى: س ١٢٧، م ٩٨، ص ٢٣.

[*] البيمارستان المنصورى: أنشأه الملك المنصور قلاوون عام ٦٨٣هـ/١٢٨٤م بخط بين القصرين، وقد تعلق به الكثير من الأطباء والجراحين والخدم، وكانت له أوقاف عديدة . أنظر: أ.د/ محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر "١٢٥٠-١٥١٧م" دراسة تاريخية وثائقية. دار النهضة العربية بالقاهرة، ط١ ، ١٩٨٠.

[2] الباب العالى: س ١٢٦، م ٩٦٧، ص ٢٨٤.

[3] محكمة مصر القديمة: س ١٠٤/ م ١٨١٩، ص ١٤٧٢.

وبالفعل توجه القاضي الحنفى ومعه شهود مجلسه وكشفوا على مدرسة الخشابية فلم يجدوا بها حصر ولا قناديل وممتلئة بالأتربة مغلقة الأبواب. أما الشريفية فلم تكن هى الأخرى أحسن حظاً من سابقتها، فقد أخبر أهل مصر القديمة القاطنين بخط جامع عمرو " أن المدرسة المذكورة خراب معطلة الشعائر الإسلامية وأن بقائها على هذا الحكم ضرر بليغ على الجار والمار، وعلى جامع عمرو، وفى تكملة عمارتها خير وأصواب واستيناس وثواب "[١] .

وبخط جامع عمرو وجدت مدرسة القمحية التى بناها صلاح الدين الأيوبى أيضاً عام ٥٦٦هـ قبيل وفاة العاضد الفاطمى، وكان صلاح الدين قد خصها بتدريس المذهب المالكى لإزالة أثر المذهب الشيعى الذى أدخله الفاطميين فى مصر[٢]. ويقول المقريزى " إنها أجل مدرسة للمالكية حيث رتب فيها أربعة من المدرسين عند كل مدرس عدد من الطلبة......... "[٣] . واستمرت المدرسة تؤدى رسالتها خلال العصر العثمانى حتى تعرضت للإهمال والتخريب من قبل رجل يدعى على بن منصور الفخرانى، الذى قام بتخريبها وبيع عمدانها عام ١٠٧١هـ/١٦٦١م[٤].

ووجدنا مدرسة تدعى الطيبرسية كانت عامرة فى بداية القرن السابع عشر[٥]. تغير حالها فى النصف الثانى من القرن، فلم تعد كاملة النظام لم يقم فيها الدرس أو حتى الصلاة. لذلك حرص البعض على إعادة هذه المدرسة إلى سابق عهدها، فقد قام الأمير بهرام بلوك باشى بن الأمير يوسف القاطن بمصر القديمة ببعض التجديدات بها، وتعميرها من ماله

---

[١] محكمة مصر القديمة: نفس السجل، م ١٨١٩، ص ١٤٧٢.

[٢] وقد عرفت هذه المدرسة بالقمحية لأن صلاح الدين أوقف لها ضيعة بالفيوم تعرف بالجنوشية كان القمح يتحصل منها ثم يوزع على طلبة العلم بها: أنظر: تاريخ المدارس فى مصر الإسلامية، ص ١٥٣.

[٣] المقريزى: المصدر السابق، ص ٣١٦.

[٤] محكمة مصر القديمة: ص ١٠٢، م ٨٥٢، ص ٣٣٣.

[٥] تشت ١١٧، ص ٥٥٤ لسنة ١٠١٠هـ.

الخاص، فتقول السجلات " بمصر القديمة مدرسة تعرف بالطيبرسية قريبة من منزل الفقير – تعنى الأمير بهرام – خرب غالبها ومنعه الناس من الصلاة فيها لخرابها، وعدم كمال نظامها فراح الفقير وعمر ما خرب منها وأصرف عليها من ماله وصلب حاله لوجه الله تعالى ...... "[١]. وتقدر قيمة الإصلاحات التى أقامها الأمير بهرام بهذه المدرسة بنحو ثلاثة آلاف وسبعة وستون نصفاً.

وما قام به الأمير بهرام لهو أبلغ دليل على مدى حرص الجميع من أهل مصر القديمة على ضرورة استمرار منافذ العلم وتلقين دروسه، واكثر من ذلك، فعند دراستنا الحضارية – من خلال السجلات – للكثير من منازل مصر القديمة عثرنا على العديد من خزائن الكتب داخل هذه المنازل، يحرص صاحب المنزل بوضع كتبه فى هذه الخزانة التى وجدت فى مكان عال من المنزل لتكون بعيدة عن متناول الأيدى العابثة. وأحياناً نجد أكثر من خزانة كتب فى نفس المنزل دليل على حرص أصحابها على اقتناء أكبر قدر ممكن من الكتب مثل الخزينتين المعدتين لخزن الكتب فى منزل الأمير عبدى بيك بحارة الجنينة قرب خوخة أبى سعيدة المغربى بخط حمام جمدار[٢]. وكذلك منازل بصدر حارة كشكك بخط حمام جمدار أيضاً تحوى الكثير من خزائن الكتب[٣].

---

[١] محكمة مص القديمة: س ١٠٢، م ٦٥٩ ، ص ٢٥٦.

[٢] محكمة مصر القديمة: س ١٠٥، م ٢٧٠، ص ٩٢.

[٣] محكمة مصر القديمة: نفس السجل ، م ١١٧٠، ص ٣٧٧.

إذن تعددت داخل مصر القديمة أماكن الدرس من كتاتيب ومساجد وزوايا ومـدارس، وكان خليق بهذا الغرس أن ينبت ، فقد ظهرت فئة من رجال الدين والمثقفين والكتبة خاصـة من السادات الوفائية والبكرية أمثال الشيخ أبى العطاء عبد الرازق بن وفـا وأصيـل الديـن الوفائى وأبو الحسن بن عبد القادر البكرى الصديقى والعلامة نور الديـن مـؤدب الأطفـال، والعلامة عمر الطالبى والطبيب شمس الدين محمد الحميدى والشيخ يوسف أصالة والشيخ أبـو السعود الكاتب[١]. وغيرهم من علماء مصر القديمة.

---

[١] محكمة مصر القديمة: س ٩٨، م ١١٠٧، ص ٣١٢، وقد ذكر المحبى العديد من العلماء الذين ترددوا علـى مصـر خلال ق ١٧ وأفادوا الحياة العلمية بها. أنظر: المحبى: المصدر السابق، جـ٤، ص ٣٩ ومابعدها.

الخاتمـــــــة

جاءت دراسة تاريخ مدينة مصر القديمة خلال القرن السابع عشر على قدرٍ كبير مـن الأهمية فقد تكشف لنا ذلك من خلال التعمق فى تاريخها حيث تثبت هذه الدراســة إنــه مــن الصعب الآن أن نسقط هذه المدينة من ذاكرة التاريخ بعدما كشف النقاب عنها وفرضت نفسها على خريطة العصر العثمانى.

فتبين لنا هذه الأطروحة أن نغمة الخراب والدمار الذى سيطر على المدينة قد اسـتمر بها على فترات تاريخها المديد الأمر الذى جعلنا نسقطها من الذاكرة نغمة أصبحت غـير ذات معنى وتحتاج إلى مراجعة وافية فقد أثبتت الدراسة بما لا يدع مجالاً للشك إن مصر القديمـة قد شهدت العديد من محاولات العمران بها طوال القرن. كذلك حسمت الدراسة عـدة أمـور تضاربت حولها الأقوال منها وضع اسم معين لمصر القديمة، هل هى مصـــر القديمـة ؟ أم مصر العتيقة ؟ أم بابليون ؟ ومتى ظهر هذا المسمى ؟ وكذلك تحديد ما إذا كنا نطلق عليـها " حى " أم " مدينة ". فأثبتت البراهين التى توصلت إليها الدراسة أنها مدينة وليست حيـاً كمـا يردد بما تمتلكه من ميناء خاص وجمرك ضخم يستقبل السفن والبضائع الواردة إليها ســواء من داخل مصر أو من بلدانٍ خارجية. إضافة إلى ظهور العديد من الصناعات بها وهو أمـر من الأمور الفريدة كشئ يذكر فى مدينة ظلت لسنواتٍ فى طى النســيان نتمنـى أن تكـون الدراسة قد وضعتها فى دائرة الضوء وعلى مائدة التاريخ.

كذلك تنفرد الرسالة بوضع خريطة هى الأولى من نوعها لمنطقـة مصـر القديمـة مستخرجة من ثنايا بطون السجلات والوثائق المتفرقة توضح خطط المدينة وأسماء الحـارات وبعض الدروب داخل كل خط منها. فى محاولةٍ متواضعة من جانبنا لوضع تصور للمنطقـة يوضح أماكن العمران الذى حدث مقارنةً مع أماكن الحفر التى جرت بها سواء مـن علـى بهجت وألبير جبرييل أو غيرهما. وترجع قيمة الخرائط التى وضعناها إلى أنه قـد ثبـت أن أول خريطة وضعت للقاهرة زمن قايتباى أواخر ق٩/١٥م ولم تصل إلينا. ثـم وضـع الأب سيكار خريطة عام ١٧١٥م للقاهرة العثمانية ولم تنشر هذه الخريطة للأسـف، ومـا زالـت

محفوظة فى المكتبة الأهلية فى باريس. إذن أولى الخرائط الكاملة والجيدة التى تصور القاهرة هى خريطة " وصف مصر " لعلماء الحملة الفرنسية، من هنا جاءت الخريطة التى وضعناها فى ق١٧.

ولإيماننا بمدى أهمية الجداول والإحصائيات بما تقدمه من معلوماتٍ وأرقامٍ تبرز صوراً عديدة عن أوجه الحياة داخل المدينة وبما يتواكب ذلك مع الاتجاه المعاصر المتبع فى أسلوب البحث العلمى. رأينا أن نستند إلى بعض الجداول وعمل الإحصائيات بشكل يخدم أفكارنا ويبرز أهدافنا بعيداً عن الحشو أو الاستطراد الممل الذى لا طائل منه. وقد واجهتنا العديد من الصعوبات عند وضع هذه الأرقام خاصة لوجود حلقاتٍ مفقودة فى سجلات محكمة مصر القديمة وبالتالى وُجدت العديد من السنوات التى تتناولها هذه السجلات ولا نعرف عنها أى معلوماتٍ، لذلك حاولنا سد هذه الفجوة عن طريق سجلات الدشت أو الباب العالى وغيرها خاصة فى السنوات المفقودة لدينا. ورغم ذلك لم تقدم لنا هذه السجلات ما كنا نرجوه، فجاءت معلوماتها نادرة بما يخص المدينة أو حتى بما يمسها من بعيد كى نبنى عليها تصوراتنا.

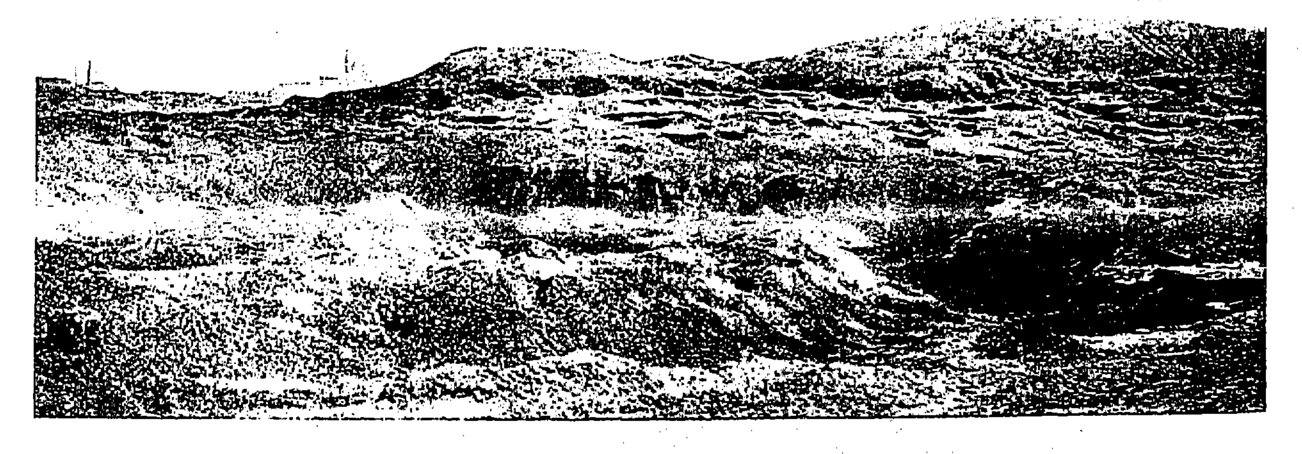
ولم يكن ذلك مدعاة كى نهمل هذا الجانب الهام رغم ما يشوب ذلك من صعوباتٍ عديدة، فقمنا بوضع الإحصائيات والجداول اللازمة التى وضحناها داخل متن الرسالة.

ورغم العرض الذى قدمناه ونتصور أنه ربما قد يمثل إضافة جديدة للعلم هناك بعض الأمور التى تعرضنا لها وللأسف وقفنا أمامها عاجزين ومكتوفى الأيدى كالطبيب الذى وقف عاجزاً أمام سلطان الموت الذى يهاجم مريضه فمن ضمن هذه الأمور: لم نستطع تقديم سبب قاطع لبعض السنوات التى لم تسجل فيها أى نسبة زواج أو طلاق داخل المدينة ووضعنا بعض الافتراضات التى لا تعدو عن كونها مهاتراتٍ لا ترقى لمستوى التفسيرات القاطعة التى تشبع نهم الباحث. والأمثلة على ذلك كثيرة منها وجود قصور شديد عند معالجة الجوانب الثقافية فى مصر القديمة رغم رصد العديد من الكتاتيب والمدارس بها ولكن

ماذا سنفعل، فهذه هى المادة المتاحة بين أيدينا الآن ؟ فربما يظهر ما هو أدق لتصحيح هـــذا الجانب أو جوانب أخرى قد لحق بها القصور. ودائماً ما نردد " كلمة قصور " لإيماننا أنـــه لا يخلو أى عمل من قصور فالكمال لله وحده ....

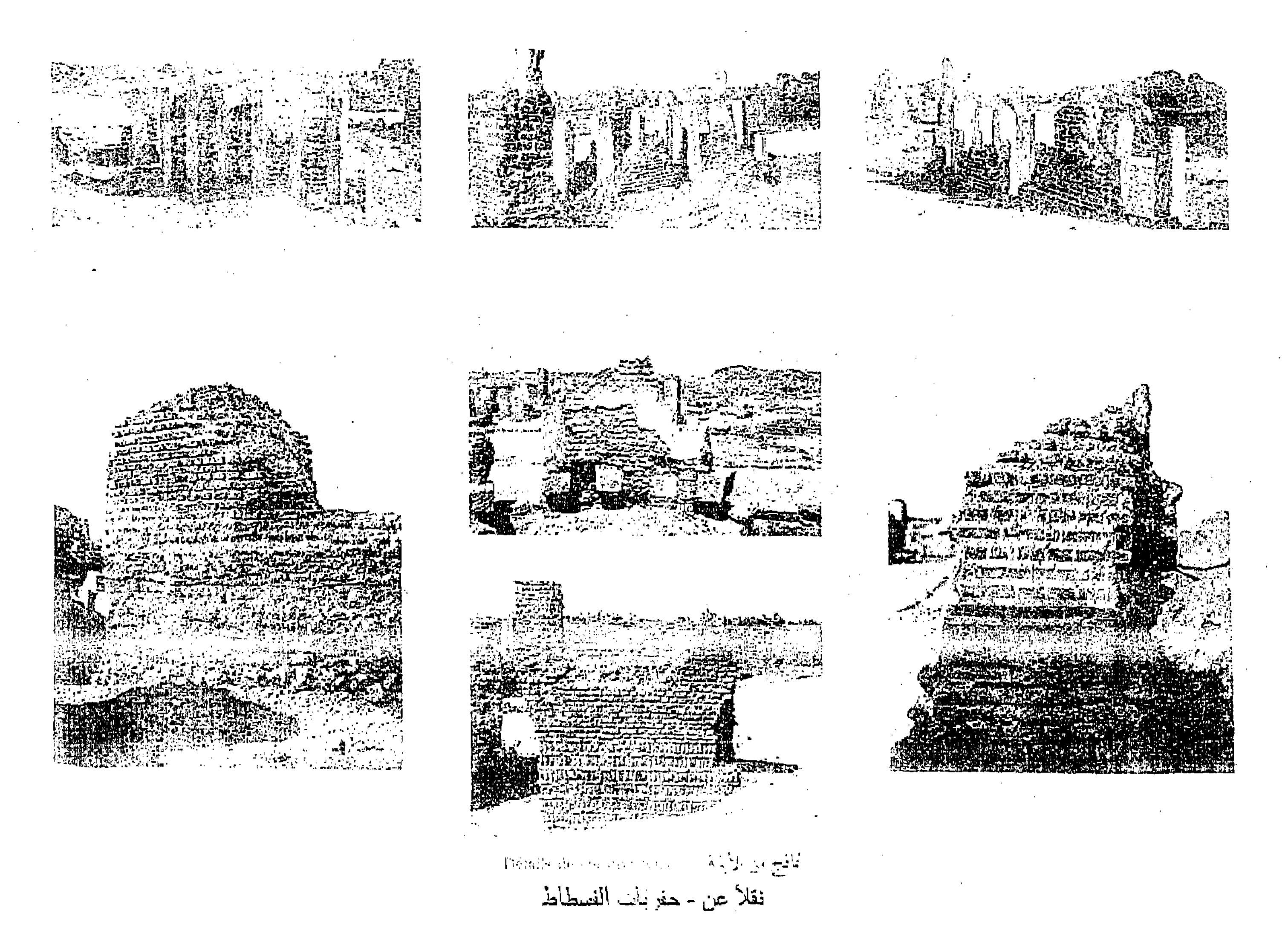
وعلى الله قصـــد الســـــبيل

الملاحـــق



Collines qui dominent Aïn-as-Sira — الكيمان المشرفة على عين الصيرة

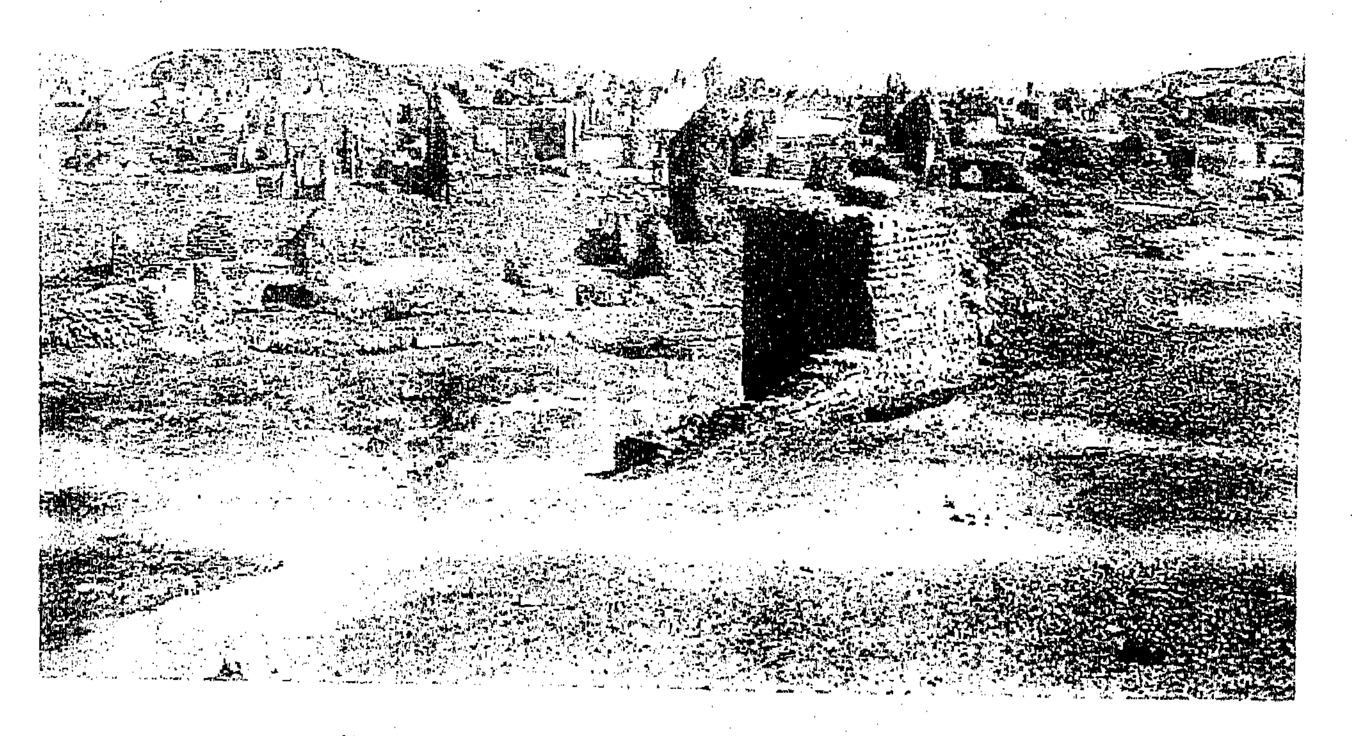
نقلاً عن - حفريات الفسطاط



نقلاً عن - حفريات الفسطاط

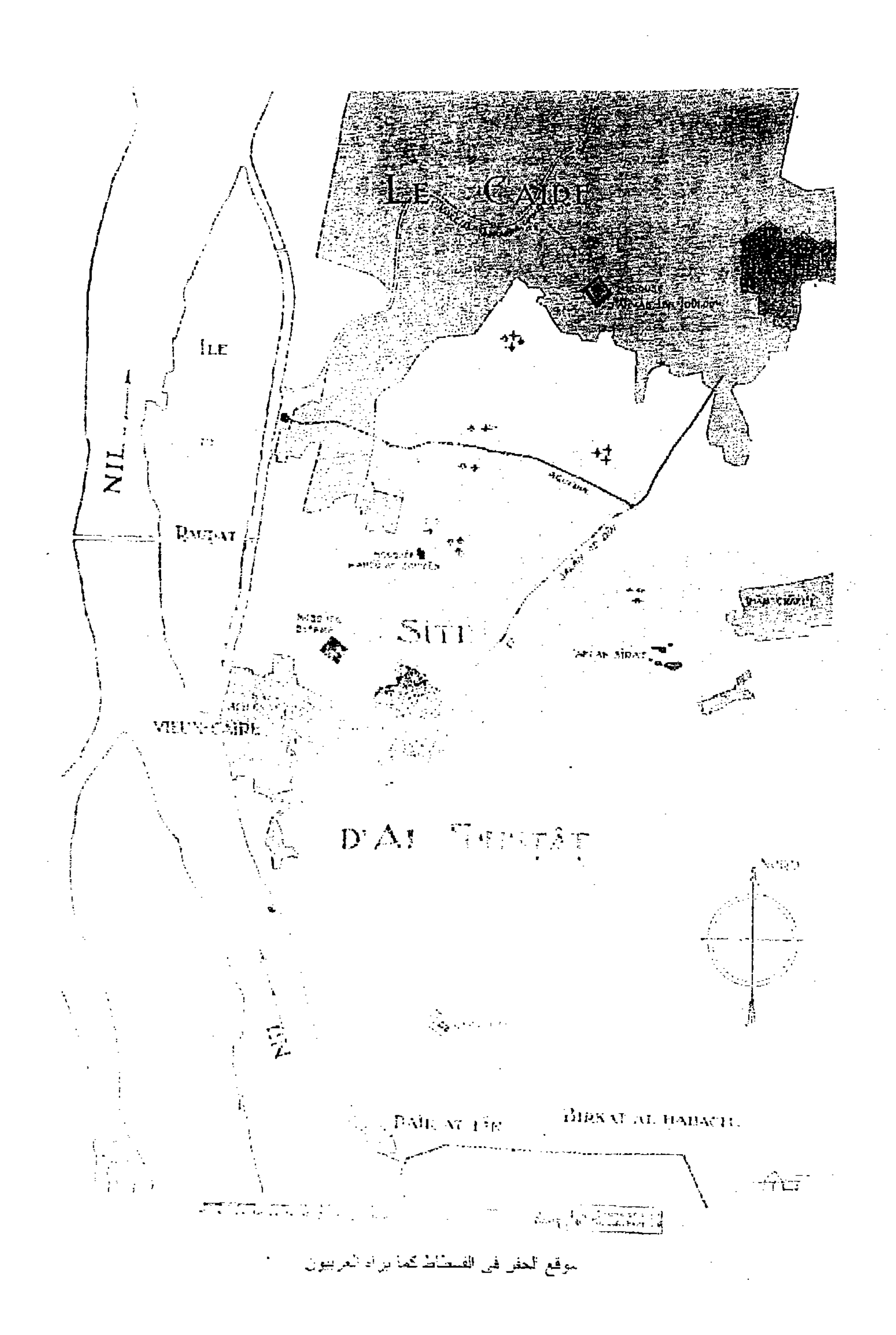
نموذج لحوش قديـــــم

نقلاً عن - حفريات الفسطاط

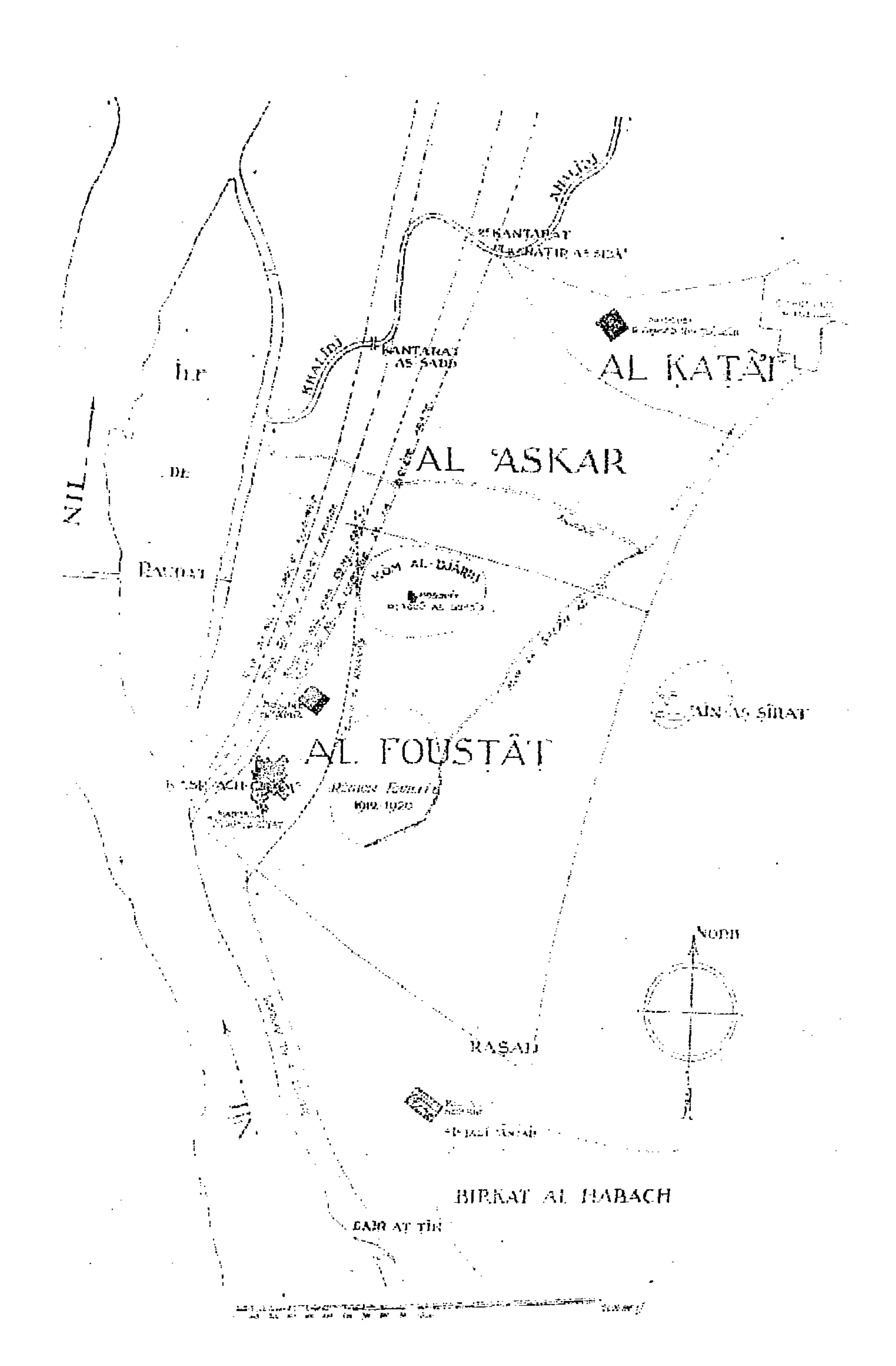


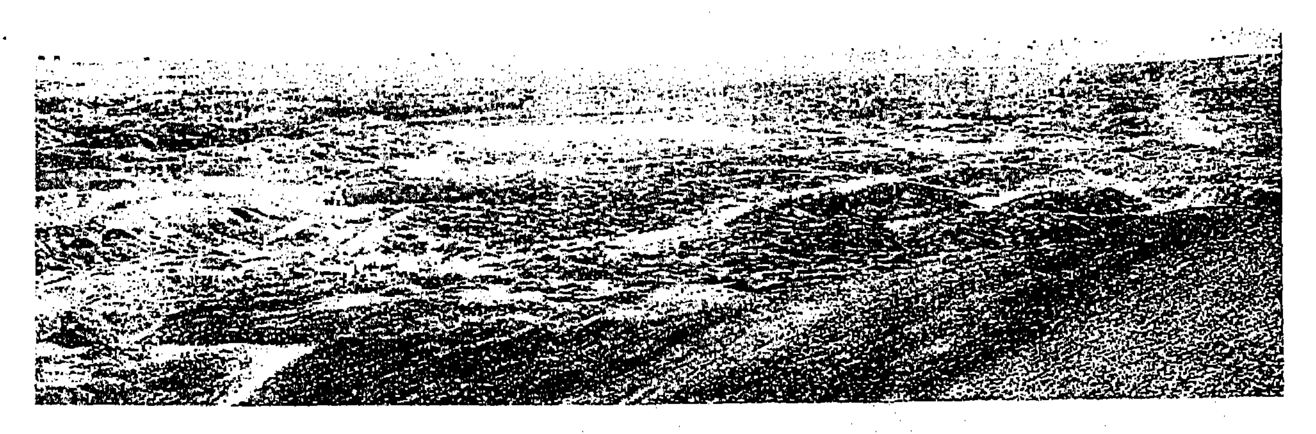
Vue de la partie centrale des fouilles - منظر القسم الأوسط من موقع الحفر

نقلاً عن - حفريات الفسطاط



موقع الحفر في الفسطاط كما يراه الغربيون


AL KATAÏ
AL 'ASKAR
AL FOUSTÂT
KANTARAT AS SADD
NIL
BIRKAT AL HABACH
RAŞAD
NORD



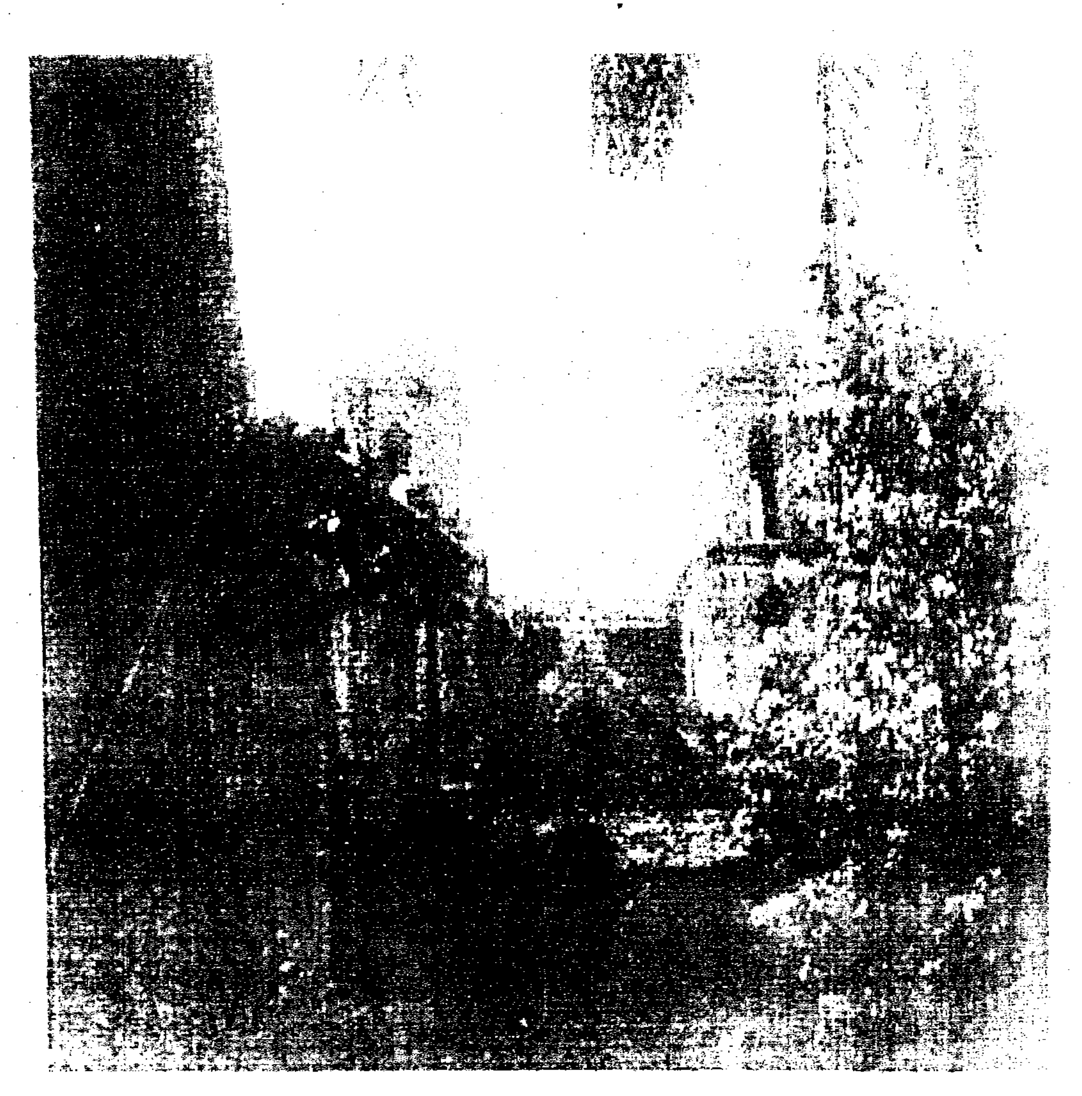
منظر عام عن موقع الفسطاط — Vue d'ensemble du site de Foustât.

نقلاً عن - حفريات الفسطاط



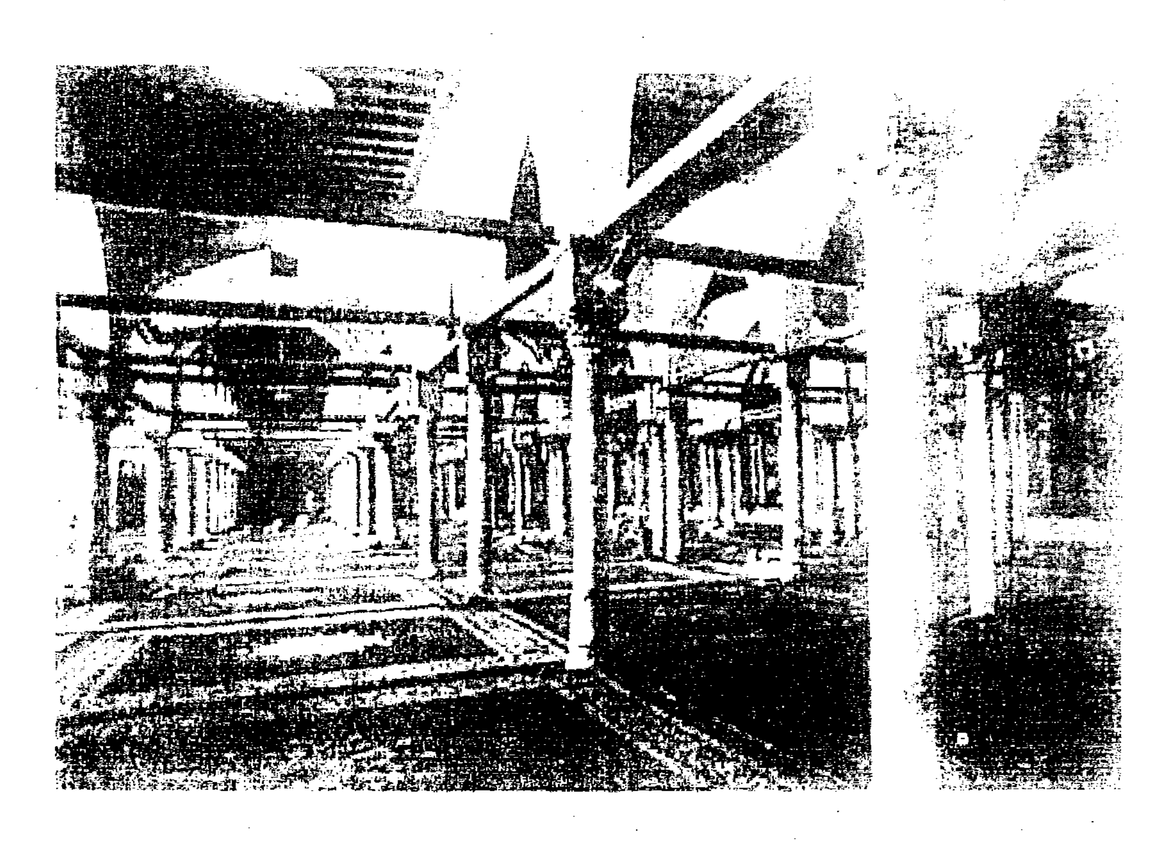
الباب الرئيسى لحصن بابليون الرومانى - القرن الأول الميلادى

نقلاً عن - أبو الحمد فرغلى : الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية فى القاهرة



منظـــر عام للكنيســة المعلقة

نقلاً عن - أبو الحمد فرغلي : أيضاً

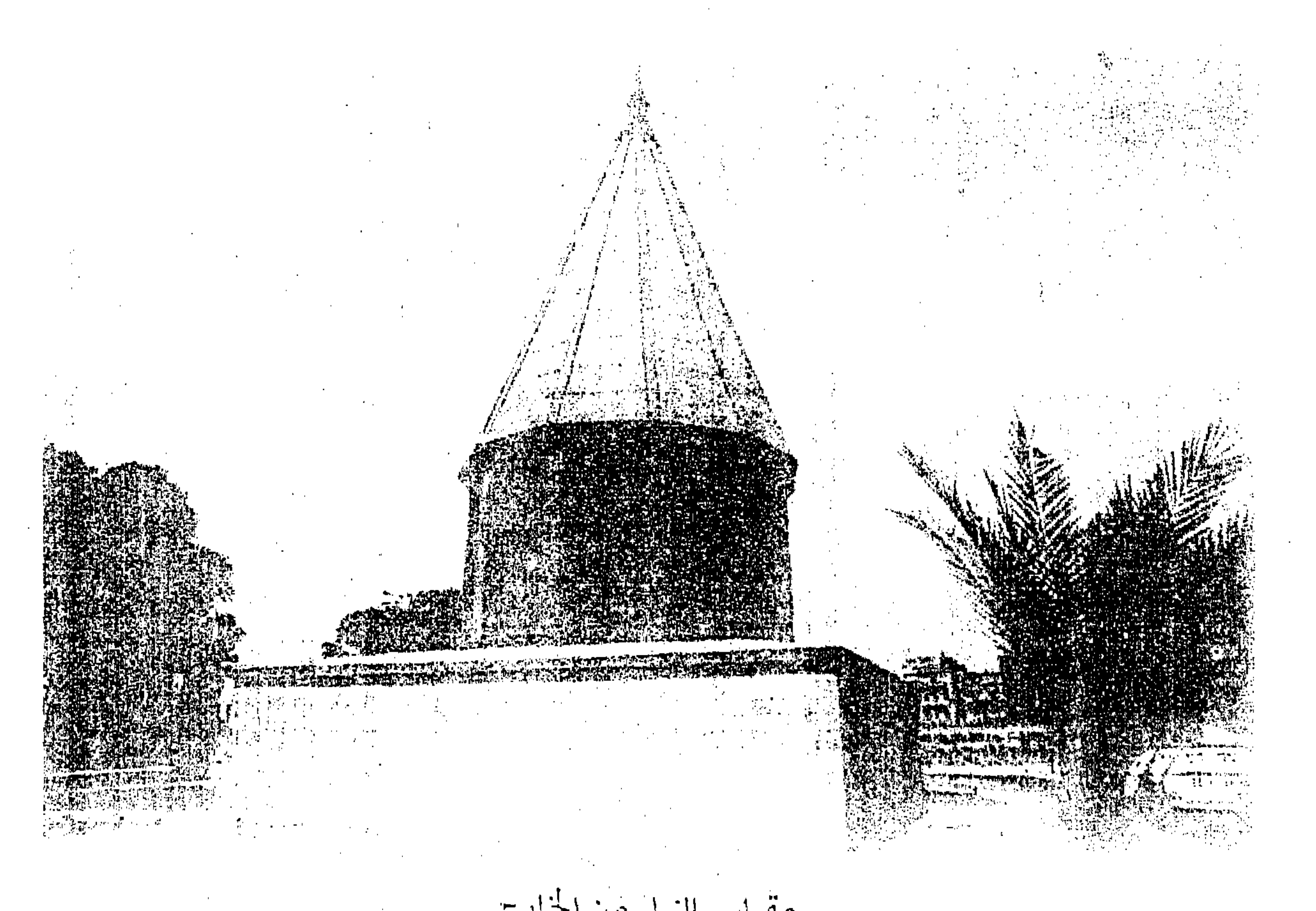


تفاصيل من جامع عمرو بن العاص من الداخل والخارج .

نقلا عن: محمد محمد الكحلاوى – آثار مصر الإسلامية

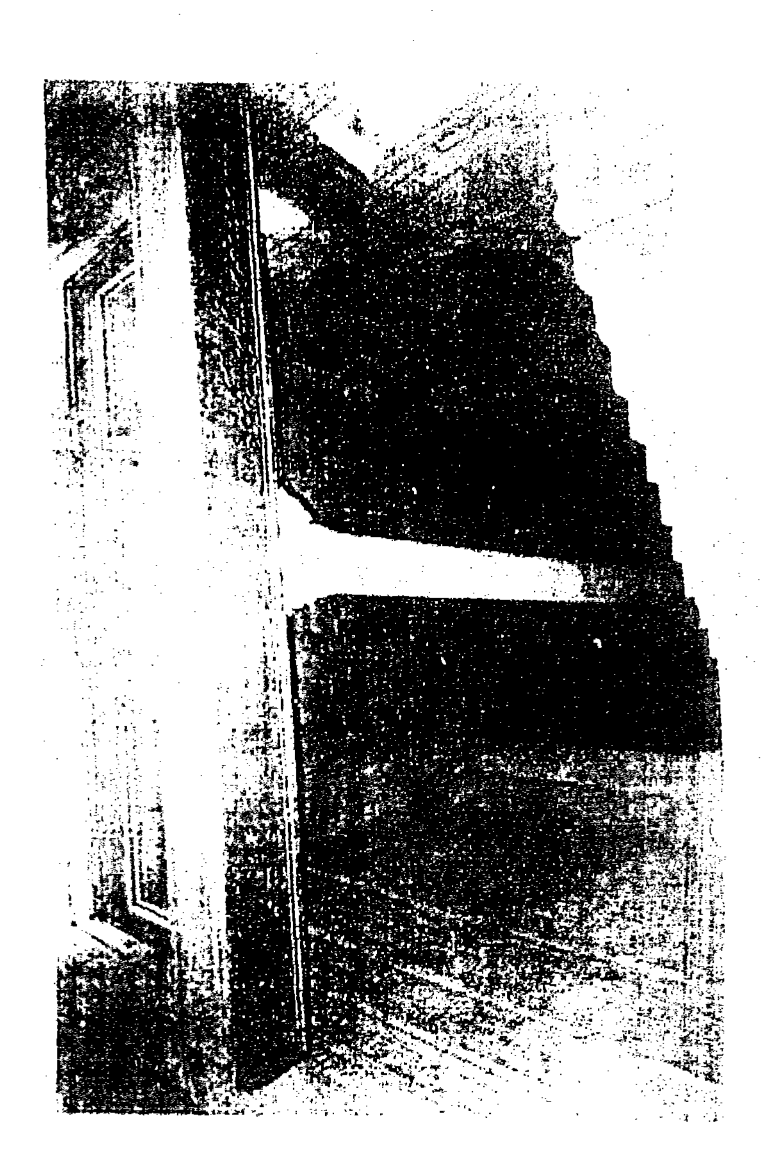
في كتابات الرحالة المغاربة والأندلسيين





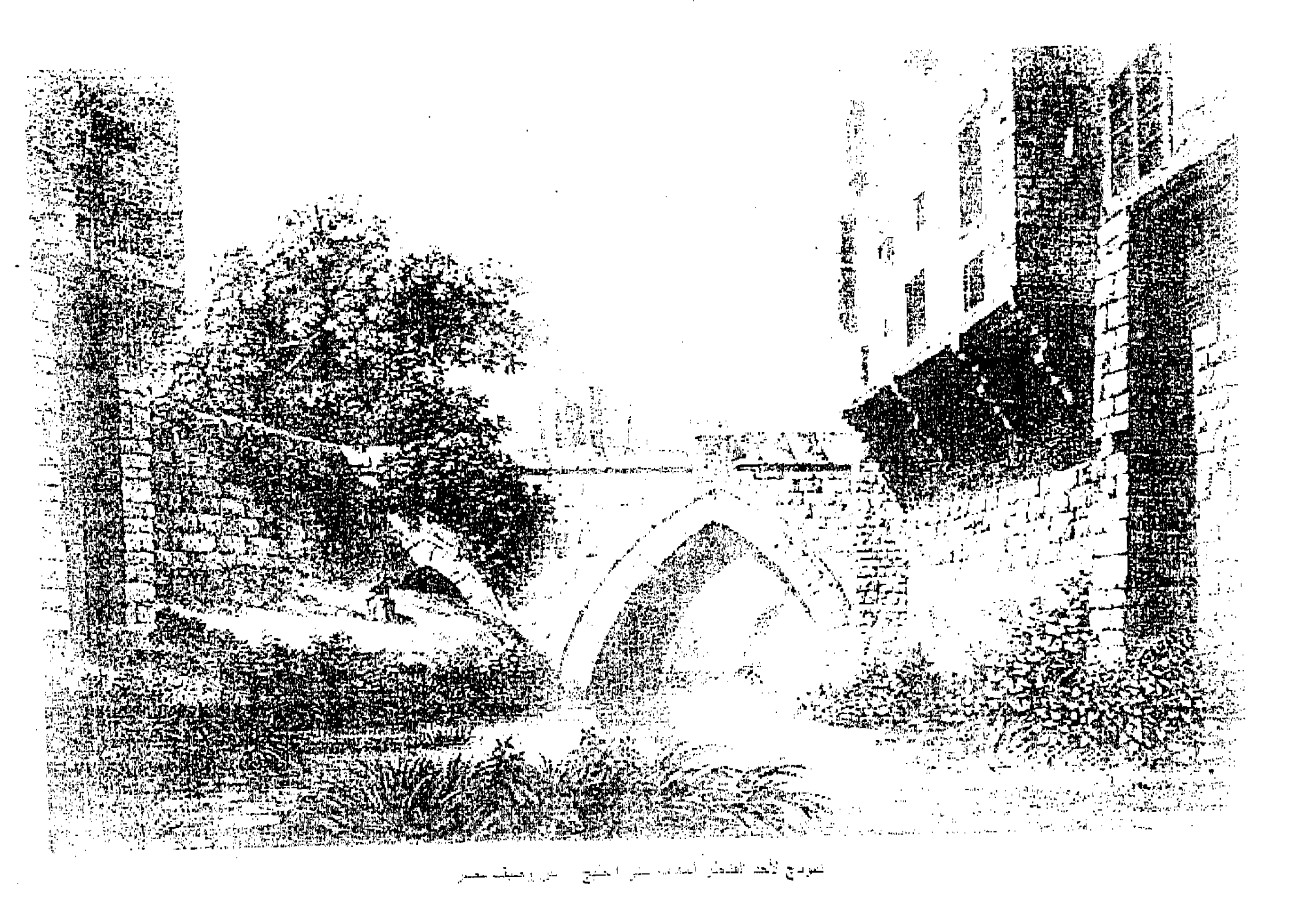
مقياس النيل من الخارج.

نقلاً عن أيمن فؤاد سيد: التطور العمراني لمدينة القاهرة

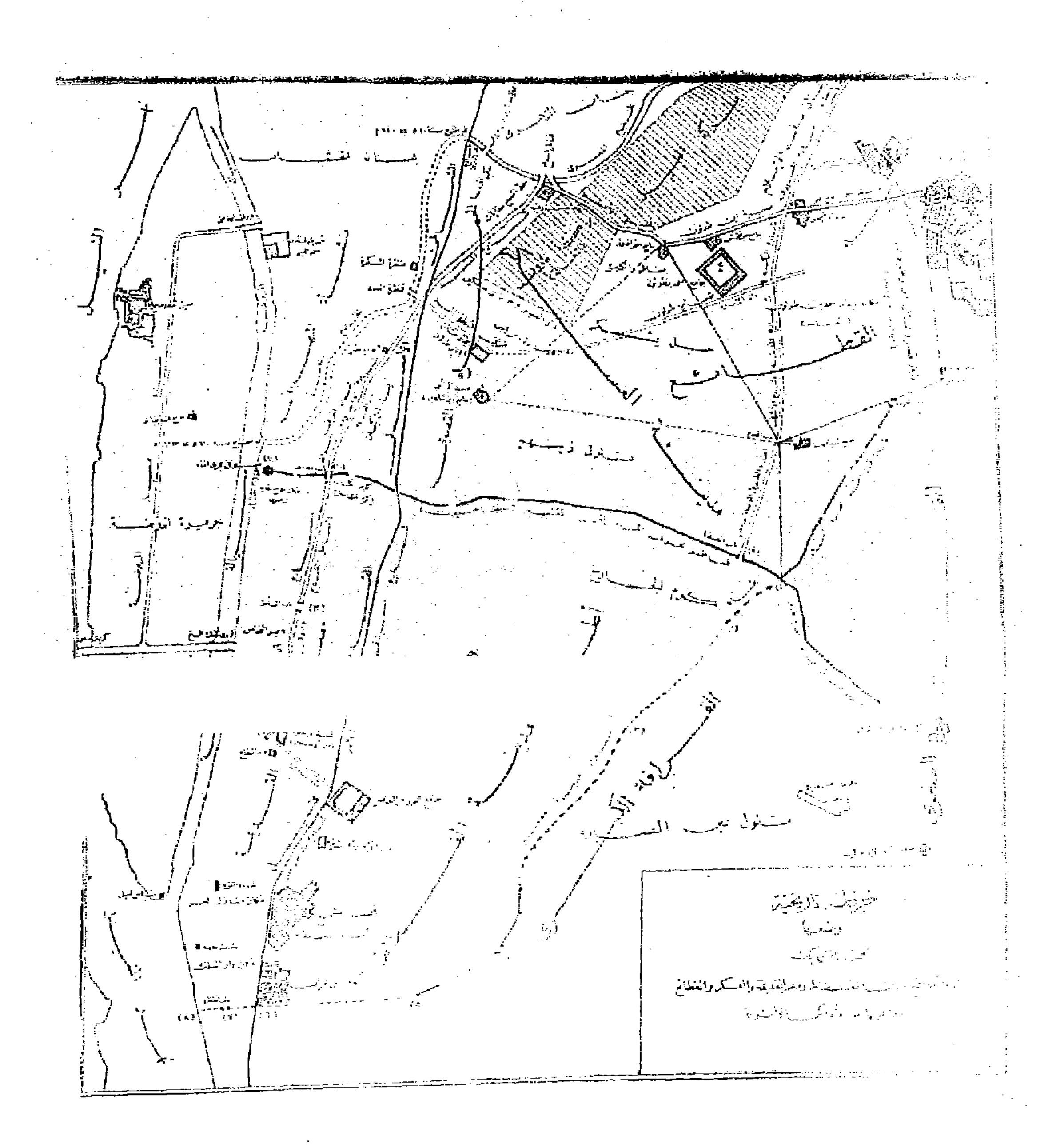


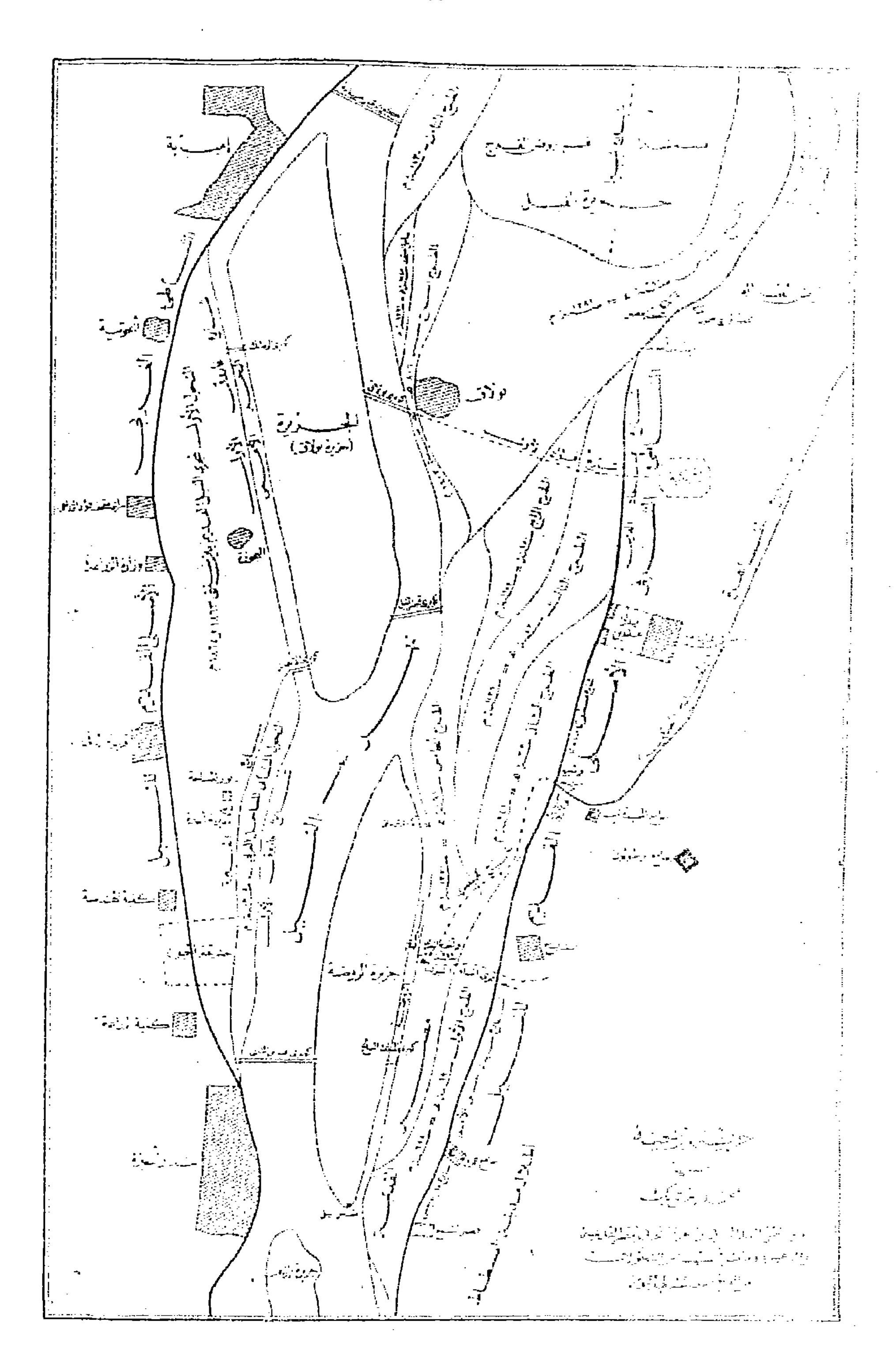
مقياس النيل من الداخل.

نقلاً عن: أيمن فؤاد سيد: التطور العمراني لمدينة القاهرة

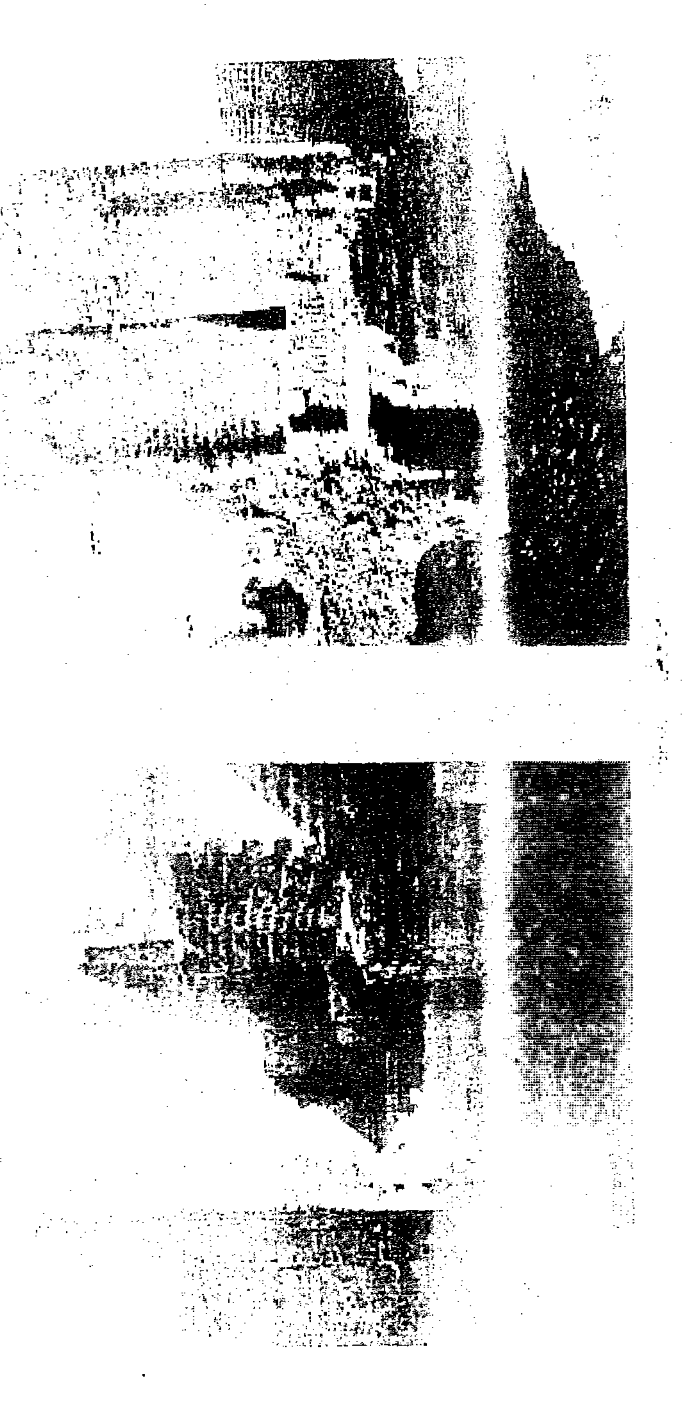


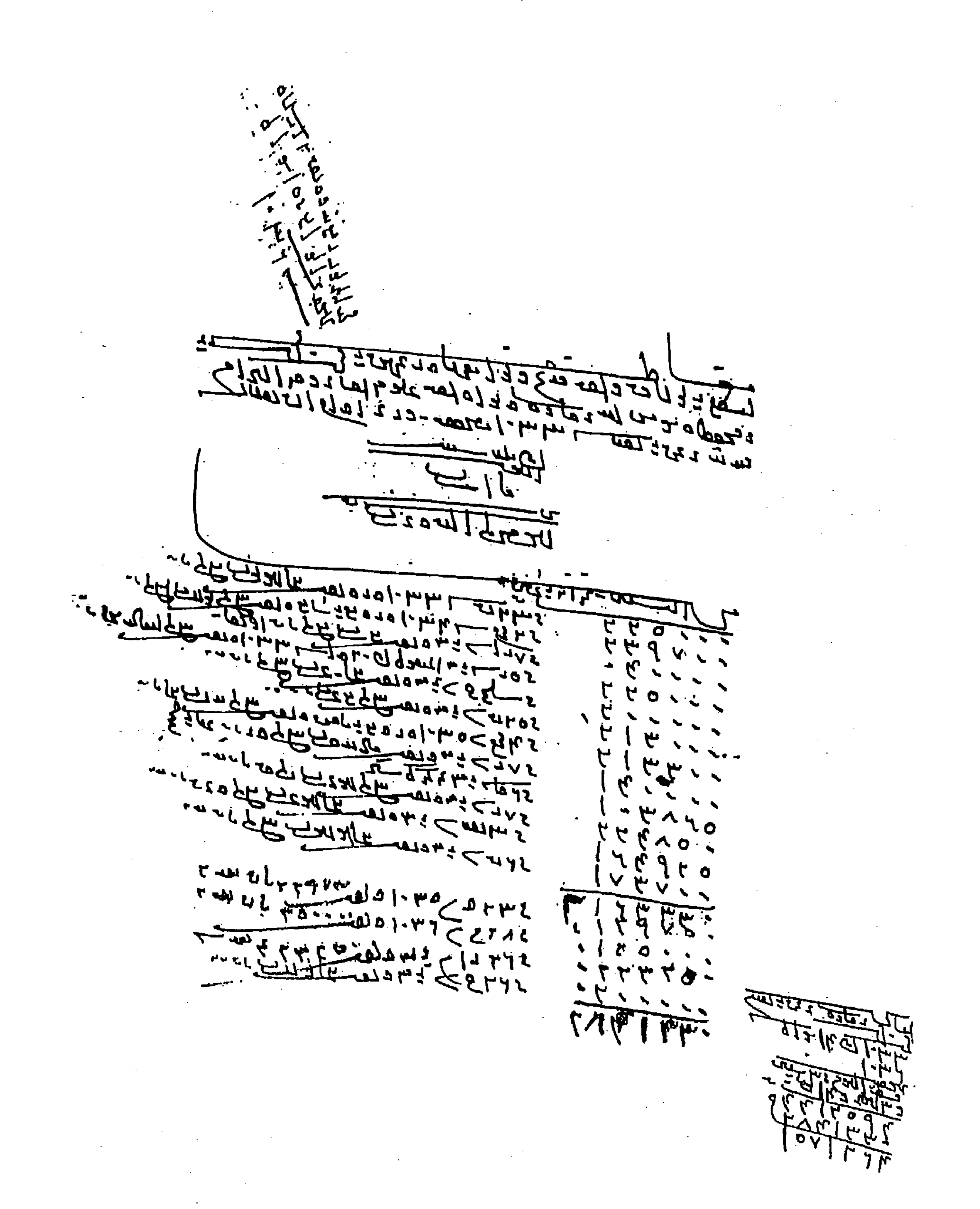
نموذج لأحد القناطر المقامة على الخليج - عن وصف مصر





إمبابة
بولاق
الجزيرة
(جزيرة بولاق)
جزيرة الروضة





صورت تذكرۀ مسعود و مرتب مزبور

[illegible]

الصادر ١٠٩٦

٢١٣٠

٧١

وقف مشروح اوزره محروسه مصرده واقع خانقاه ... محصولندن لوجه ... ابو العطا زاويه
جانبوس مع اسقاط لوتره اقدم شيخ عبد الرزاق ... مزبور تماما ...
وفاتنده سنده اولوب مرحوم اولمغين مسعود مزبور ...
علی خيري ... مزبورلره ويرلمك تصرف تذكره سی ... التاريخ المزبور
لشيخ علی خير ... طرفنه ويرلدی

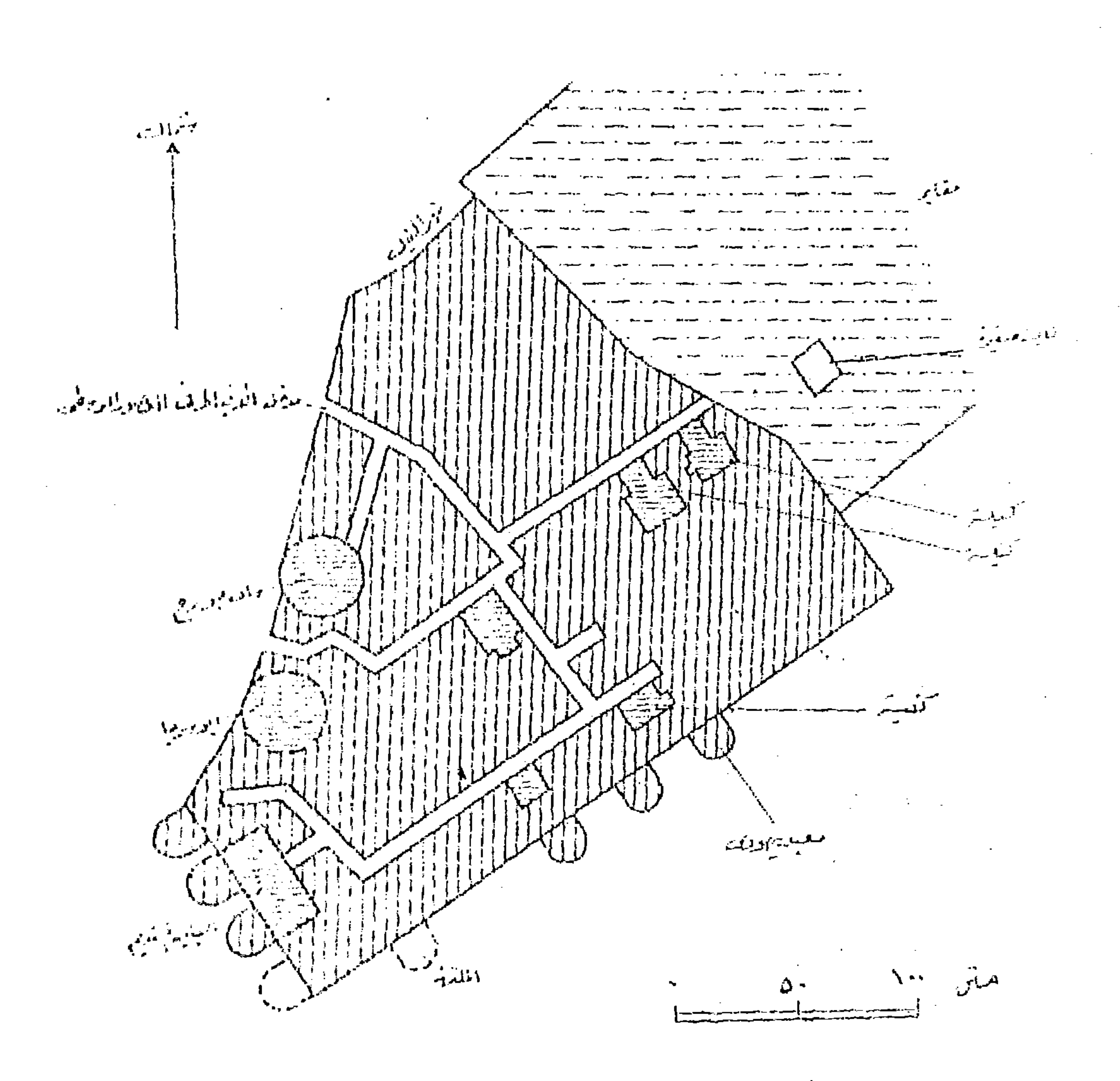
[illegible]

الصادر ١٠٩٦

٥٠

١٥٠٠

وقف مشروح اوزره ذكر اولنان مرتب ... مسعود ... شيخ
لوجه الله ... اقدم ... العطا ...
عبد الرزاق ابو العطا ... وفاتنده ... اولوب تصرف
مرحوم اولمغين مرتب مزبور تماما مزبورلره ويرلمك ... طرفنه ويرلدی
تذكره سی ... لشيخ علی خير ...
... التاريخ المزبور



بابليون ، العاصمة الوطنية

ملحق رقم: ٢ العمران فى مصر القديمة خلال القرن ١٧

تعمير قطعة أرض لصالح النصارى بحارة قصر الجمع

بسبب تحرير الحروف وتسطير الصنـــوف بموجـــب الحجـــة الشـــرعية بالجـــامع المنصورى ..... لدى الحاكم الحنفى ثبت لديه معرفة المعلم إبراهيم ولد الذمى يوحنا الشـــهير ببدوى النصرانى اليعقوبى المباشر بخدمة المقر الكريم الأمير أيواز بيك أمير اللوا الشـــريف السلطانى بمصر المحروسة وهو الناظر الشرعى على وقف فقرا الكنيسة المعروفة بالمعلقـــة الكاينة داخل حارة النصارى بقصر الجمع بمصر القديمة بموجب حجـــة تقريـــر فـــى ذلـــك المسطرة عن الباب العالى بمصر المحروسة فى عشرى صفر الخير سنة ست وثمانين وألـــف ومعرفتها القطعة الأرض / التى بحارة النصارى التى كانت أماكن سكن طايفة من النصـــارى الخربة المستهدمة المسلوبة المنفعة المجاورة للطاحون التى هناك المعدودة من جملة حقـــوق الكنيسة المذكورة بشهادة كل من الذمى برسوم ولد الذمى منصور وأخيه فضـــل الله والذمـــى منصور ولد الذمى منصور ...... وغيرهم والجميع من أهالى الحارة المذكورة وأن الأمـــاكن المذكورة خراب جميعاً وصاروا الآن ضرراً على الجار والمار وفى بقائها على هذا الحـــال ضرر كبير وأن عمارتها لأجل عمل فيها الشمع السكندرى خير وصواب ليعود نفع ذلك علـــى فقرا الكنيسة المذكورة القاطنين بها والواردين عليها وأن الناظر الشرعى المذكور مـــن مالـــه وصلب حاله متبرع به لجانب فقرا الكنيسة كما أن ذلك بمبين ومشروح بموجب حجة شـــرعية مسطرة فى هذه المحكمة مؤرخة فى خامس عشر محرم ١٠٨٦هـــــ وأذن مولانـــا الحـــاكم الشرعى فى تكملة عمارة الخربة المذكورة ....

تحريـــــراً فى: ١١ جمادى الأول ١٠٨٨هـ

مصدر الوثيقة : محكمة مصر القديمة س١٠٤، م١٨٢٠، ص ص١٤٧٢، ١٤٧٣

ملحق رقم: ٢ العمران فى مصر القديمة خلال القرن ١٧

تداخل أوقاف المسلمين والنصارى

بعد الإذن الكريم من حضرة مولانا شيخ الإسلام لنايبه مولانا الحنبلى أجـر يوسـف جلبى الرومى الناظر الشرعى على زواية النعمانية وقف إبراهيم النعمـانى الكاينـة بمصـر القديمة بتقريره الشرعى قبل مولانا قاضى القضاة المومى إليه المعلم بشارة ابن ميخائيل بـن بشارة النصرانى اليعقوبى المباشر الشرعى على وقف الكنيسة المعروفة بدير أبى سرجة التى بمصر القديمة بظاهر حمام جمدار، فإستأجر منه جميع الأرض الحاملة لبنا الزريبة والقلعتين المعدين للحياكة والقاعة المعروفة بالفندق والزريبتين اللتين بهما الخزاين سـكن النصـارى الكاين ذلك جميعه بظاهر قصر الجمع بمصر القديمة ...... وله شهر بمحله وتعهد بتجديـده وزيادة والجارى ذلك فى وقف الزاوية المذكورة وتحت نظر الناظر المذكور لينتفـع بشـارة بذلك فى محل البنا الجارى فى القصب محل الدير المذكور وفى حفر الأرض الخاليـة مـن البناء والجدر ورمى الأساسات والبنا والتعلى على ذلك حسبما أحب وإختار الإنتفاع الشـرعى لمدة ثلاثين عقداً متوالية كل عقد منها ثلاث سنوات متوالية لكل عقد منها صيغة وأجرة تميزه لم يكن داخلاً فى عقد ما قبله ولا متصلاً بما بعده بأجرة مبلغها عن كل سـنة ١٢٠ نصـف يدفعها المستأجر لجهة الوقف المذكور مشتملة الإيجاب والقبول وبالمعرفة والإحاطـة .... معترفاً بشارة بأنها كانت أرضاً خربة مهولة بالأتربة خالية عن السكان سابقاً. فوقع البيورلدى الشريف من طرف الديوان بأن كل من يبنى ويعمر بهذا المكان يكون ملكاً له قصـداً لدفـع الضرر عن الجيران وعن الذين يمرون بهذا المكان، ثم أن بعض النصـارى نطفـوا هـذه الأرض الخالية وبنوا عليها بيوتاً وعينوا لكنيستهم أجرة البناء ودفعوها لكل مـن كـان قبلـه ناظراً لوقف الكنيسة وأبرز من يده حجة مطابقة لتقريرم من طرف الديوان كتب فى رجـب سنة ١٠٤٦ وذلك بعد عين مولانا شيخ الإسلام نور الله أفندى كشاف الأوقاف يومئذ بالكشـف على ذلك وتحريره بحضور المهندسين وجمع غفير من المسلمين، فوجد وقف الزاوية مطابقـاً

الحدود التى بكتاب الوقف ووافقتها بإعتراف بشارة وبأن الأرض الحاملة للأبنية جارية فـــى وقف النعمانية وأن البنا الموضوع على الأرض المذكورة جارى فى وقف الكنيسة المذكــورة إعترافاً شرعياً واعترفوا بذلك وبالأجرة المرقومة ....

تحريــــراً فى: أواخر صفر ١٠٥٥هـ

مصدر الوثيقة : باب عالى: س١٢٤، م١٥٢٤، ص٣٢٣

ملحق رقم: ٢ العمران فى مصر القديمة خلال القرن ١٧

حجة تعمير الدربين بحمام جمدار

(منطقة الحارة المستجدة وكفر الشيخ شهاب المجذوب)

بسبب تحرير الحروف بالجامع المنصورى بعد أن ورد البيورلدى الشريف من حضرة مولانا رمضان بيك أمير اللوا الشريف السلطانى وقايم مقام يومئذ بمصر المحمية بنظرة القصة المرفوعة لديه من قبل طايفة التراسين بمصر القديمة الآتى ذكرهم فيه أدناه مضمون القصة المذكورة أن الفقرا قاطنين بالكفرين المستجدين بالخلا والكيمان بأطراف حمام جمدار بظهر العنبر الشريف قريباً من الجامع الذى هناك الخرب المعروف بالمسلمية وجامع الدبان، وأن اللصوص فى كل يوم يأتون إليهم ويتسلقون عليهم، وقد حصل لهم بذلك غاية الضرر وقصدهم عمارة دربين متقنين لصون أماكنهم من اللصوص المذكورين ويصيرون بذلك آمنين. وأنهم جمعوا من بعضهم أربعة آلاف نصف فضة ليصرفوها فى عمارة ذلك بمعرفة فخر الأعيان الأمير محمد ابن المرحوم سليمان زعيم مصر القديمة حالاً فبرز البيورلدى الشريف المذكور خطاباً لسيدنا ومولانا فخر قضاة الإسلام الحاكم الشرعى الحنفى بما عبارته: " سنكى فضيلتلوا نايب مصر القديمة يتوجه ويكشف على ذلك ويعمروا ذلك ولا أحد يتعرض لهم فى ذلك " قوبل ذلك بمزيد الإمتثال وتوجه مولانا الحاكم الشرعى المشار إليه أعلاه هو وشهوده والأمير محمد الصوباشى المرقوم وكشف على محل وضع الدربين المذكورين فوجد أحدهما يوضع من كتف الدرب الذى هناك بموقف الحمارة والحوش الجارى فى تصرف الأستاذ الأعظم العارف بالله الشيخ عبد الرازق أبو العطا بن وفا عمت بركاتهم المعروف الحوش المذكور بسكن أبو عجاج شيخ طايفة الحمارة وإلى قطعة الأرض الجارية فى تصرف المعلم منصور المعروف بابن الجزار ومن يشركه فى ذلك ووجد الثانى برأس الطريق المتوصل منها لجامع سيدنا عمرو بن العاص ويكون وضعه من كتف منزل دويدار الطحان وإلى منزل الحاج عبد الرحمن السملى ويكون وضعهم على حكم البوابة

المذكورة أعلاه وهو فى العلو من العتبة ... خمسة أذرع وعرض ذلك من الداخـــل أربعــة أذرع وثلث ومن الخارج ثلاثة أذرع ونصف ذراع العمل وأن يكون محكمين البنـــا بــالمون المتقنة والدبش وأكتافهما بالحجر الفص النحيت الأحمر مكملين بالأبواب المحكمـــة بالخشــب النقى والمسمار مانعين من اللصوص وغيرهم كشفاً مرعياً بحضور كلاً مـــن الحـــاج عبــد الرحمن السملى المرقوم والحاج عبد الكريم بن عبد الرحمن والمعلم يحيى بن سلطان والمعلـم إبراهيم بن محمد شكر وسالم بن نصر أبو عجاج والمعلــم خليفــة بــن دراز الجميــع مــن التراســين وغيرهم القاطنين هناك وإطلاعهم على ذلك وتصديقهم عليه، هذا ما تحــرر مــن أمر ما صدر .....

تحريـــــراً فى: ٢٤ ربيع الثانى ١٠٨٧هـــ

مصدر الوثيقة : محكمة مصر القديمة س١٠٤، م١٦٠٢، ص١٣٨٧

ملحق رقم: ٢ العمران فى مصر القديمة خلال القرن ١٧

إزالة أكوام الأتربة بمنطقة أطراف حمام جمدار وتمليكها لمن يعمّر فيها

سبب تحرير الحروف - بالجامع المنصورى - ورد الإذن الشريف من مولانا الوزير بسبب القصة المرفوعة من قِبل فقرا أهالى مصر القديمة فى خدمة العنبر الشريف وغيرهم فى خصوص رغبتهم فى حيازة الكوم التراب الكاين بظهر صور الحارة المعروفة بالعارف بالله تعالى الشيخ شهاب المجذوب من جهة المسلمية الخراب المعوة بجامع الدبان وإلى الجنينة المعروفة بالشيخ زيتون سابقاً بطريق العامة بأطراف حمام جمدار بمصر القديمة. وأن كل من حاز فيه شيئاً وعمره يكون ملكاً له ورفع يد من حاز شيئاً ولم يعمره قبل تاريخه ويمكن الراغبين من عمارته على الفور. فبرز الأمر الكريم من الوزير بإجهار الندا بمصر القديمة بما عبارته باللغة التركية المشروحة باللغة العربية " إن كل من رغب فى عمارة شى من الكوم المذكور فاليحوزه بمعرفته الشرع الشريف والصوباشى بمصر المرقومة وكل من عمر شياً على الفور يكون ملكاً له وكل من حاز شياً من ذلك ولم يعمر شياً فيه ترفع يده عنه وسلم لمن يرغب فى عمارته فوراً ولا أحداً يعارض فى ذلك بخلاف الشرع ولا يتعرض لهم بعد ذلك " ... وأجهر الندا بمسامع العام والخاص ثلاثة أيام متوالية .... فكان ممن رغب فى حيازة ذلك وعمارته الأمير يوسف جوربجى طايفة عزبان المتحدث على حطب مطبخ الديوان الشريف حالاً وفخر الأعيان الأمير محمد بن الأمير سليمان زعيم مصر القديمة حالاً القطعة الأرض تجاه وكالة الصولى وغيرها ....

تحريراً فى: غرة جمادى الأولى ١٠٨٧هـ

مصدر الوثيقة : محكمة مصر القديمة: س١٠٤، م١٦٠٥، ص١٣٨٨

ملحق رقم: ٣

مراسلة من شيخ الإسلام إلى النواب والقضاة بضرورة الإلتزام والعدل وعدم شرب الدخان داخل المحكمة

وردت مراسلة من حضرة سيدنا ومولانا فخر القضاة شيخ مشايخ الإسلام أسبغ الله عليه جزيل الإنعام مضمونها مفاخر النواب والقضاة والشهود الناهجون مناهج الصواب بمحاكم مصر المانونة المانوسة بندى لعلمهم أن يكونوا على الطريقة الجهيرة المستقيمة ويمشون على الحقيقة المستديمة بالعدل والإنصاف والصدق والإسعاف من غير خلاف ويتركون الشبهات ولا يتبعون السيئات ولا يتعاطون كتابات فى المواد الخمس المستثنى بها كالكشف والتقرير والحكم على الغايب أو تفرد شاهد ويمين والتواجرات الطويلة والفسخ والقسمة والإستبدال فإنهم ممنوعون من ذلك إلا بإذن شريف كما حرمت به العادات ولا يشربون الدخان بداخل المحكمة ولا يتعاطون المهملات فمن تعدى وفعل شئ من ذلك عوتب بغاية العتاب وقوبل بأشد العقاب وطرد وأبعد وحرم من خدمته ومن حذر فقد أنذر والله عليم حكيم من تاريخه.

تحريـــراً فى: ٨ جمادى الأول ١٠٩٢هـ.

مصدر الوثيقة : محكمة مصر القديمة سجل ١٠٥، م١٤٠، ص٥١

ملحق رقم: ٤ (أ)

حادث قتل مقدم درك خط فم الخليج فى عهد الصوباشى مصطفى ودواداره الزينى دلاور

حضر لدى الحنفى الأمير مصطفى زعيم مصر القديمـــة حـــالاً وبصحبتـــه دوادارة الزينى دلاور، وأخبر مصطفى الصوباشى أن وصل لعلمه أن فى الثلث الأخير مـــن الليلـــة المسفر صباحها يوم تاريخه حضروا جماعة من اللصوص إلى خط فم الخليج بمصر القديمـــة الحدود من دركه وتعدوا على مقدم دركه المذكور المدعوا ناصر وقتلـــوه بـــالخط المذكـــور وسأل من مولانا الحاكم المشار إليه أعلاه أن يتوجه للكشف على ناصر وتم بالفعل وكشـــفوا عليه ووجدوه ملقى على الأرض على ظهره فوجدوا ضربتان على ضلعه الأيمـــن وضربـــة على ضلعه الأيسر بجميع سكين ضربات قطعت الجلد وأسالت الدماء ومات وتم تحرير ذلـك يوم الأحد مستهل جمادى الأول ١٠٥٨هـــ.

تحريـــــراً فى: الأحد مستهل جمادى أول ١٠٥٨هــ

مصدر الوثيقة : محكمة مصر القديمة سجل ١٠١ وثيقة ٢٧٨ ، ص ص١٠٣، ١٠٤

ملحق رقم: ٤ (ب)

تسليم الدرك بخط السبع سقايات للمقدم محمد

حضر بين يدى الحاكم الشرعى الحنفى فخر الأعيان عمدة ذوى المناصب والشان الأمير سليمان زعيم مصر القديمة حالا يسر الله له وصحبته المقدم محمد بن محمد من ناحية تفهنا بإقليم الغربية بالوجه البحرى وأشهد على نفسه المقدم محمد المذكور أعلاه شهوده الإشهاد الشرعى المعتبر بأن يكون صاحب درك السبع سقايات تابع درك مصر القديمة على حدوده السابقة من إبتداء قنطرة الجبص وسبيل المعمار وإلى محل سبيل قناطر السباع وعليه تلقيه الدرك المرقوم أعلاه برجال يحفظونه بأسلحتهم وجميع ما يصنع فى زمن ولايته يكون عليه القيام بنظره وعليه إغاثة اللهفان وإطفاء الحريق ....

تحريـــرا فى: الأحد ٢٠ شعبان ١٠٥٩هـ

مصدر الوثيقة : محكمة مصر القديمة سجل ١٠١ وثيقة ٥٧٣ ، ص٢١٤

ملحق رقم: ٤ (جـ)

حادث سرقة وقيام صاحب الدرك بالمهام المنوط بها

حضر إلى صوباشى مصر القديمة الزينى محرم تابع الأمير حسن الصوباشى بمصر القديمة شخصيتى الحاج سليمان بن على الغزالى وعبد الحق بن زوين بن غراب والحرمة خطيطة ابنة على بن عبد الله وأخبروا مولانا أن الحرمة خطيطة إدعت خلع باب منزلها نهاراً وضاع لها كساة صوف ثمنها ٥ دنانير فصاحت فأدركها جارها عبد الحق المذكور فذكر لها إنه وجد عبداً أسوداً لا يعرفه يحمل المكساة الصوف بالسبع سقايات فهم يقبض عليه ففر هارباً ورجع فحضر صاحب درك السبع سقايات المقدم قبالة وقبض عليهم وأحضرهم للصوباشى المذكور ....

تحريراً فى: السبت ٢٥ ربيع الأول ١٠٢١هـ

مصدر الوثيقة : محكمة مصر القديمة سجل ٩٨ وثيقة ١٩٤٩ ، ص٥١٠

ملحق رقم: ٥

حصر الغلال بشونة بمصر القديمة فى عهد الأمير يوسف بيك

حضر لدى مولانا الحنفى الأمير يوسف بيك أمير اللوا السلطانى والناظر على الشون الشريفة السلطانية بمصر القديمة حالاً ومعتمد الدولة لتحصيل الغلال الأمير محمد أفندى أمير العنبر الشريف حالاً وسأل من مولانا المشار إليه أعلاه بأن يتوجه بصحبته هو وشهوده إلى حضرة المشار إليهما أعلاه بسبب الكشف والإخبار، وتوجه هو وشهوده إلى العنبر المرقوم فوجدوا كلاً من المشار إليهما أعلاه وكتخذا البيك والأمير محرم بيك من طايفة الجاويشية بمصر المحمية جالسين بباب الشون وأخبرا مولانا الحاكم لما صدر من الكشف على الشون المرقومة وما تحويه من الغلال المتحصل إلى غاية شهر جماد الأول سنة تاريخه وإلى غاية مدة لصرف الجناب العالى الأمير عبدى بيك المتحدث على العنبر الشريف كان وسالا من مولانا الحاكم بأن يستفسر من السادة الكتبة بالعنبر الشريف إلى حقيقة ذلك وكتابة حجة لما يخبرون به من ذلك، وإستفسر من كل من محمد الكتاب المقيد ابن القاضى شمس الدين محمد الكاتب المعتمد بن الشريف عبد الرؤوف الشهير نسبه الكريم بإبن العجمى ورفيقهما فى الضبط والكتابة بالعنبر الشريف هو المعلم يوسف الصيرافى على الغلال المتحصلة إلى غاية التاريخ المرقوم أعلاه فأخبروا بأن الباقى بالعنبر الشريف إلى غاية التاريخ المرقوم أعلاه ما جملته من الغلال السلطانية أربعة آلاف إردب وخمسمائة إردب وإثنان وعشرون إردب ونصف إردب وربع إردب وثمن إردب كما هو معين بالمقاطعة الديوانية على ذلك عن ما هو قمح أربعماية إردب وثلاثة أرادب وثلثاى وربع إردب وثمن إردب، وما هو من الشعير ألف إردب واحد وثلثماية إردب وثلاثة عشر إردب وقيراطاً واحداً، وما هو من الفول أربعة وخمسون إردب ونصف إردب، وما هو من الحمص ماية إردب واحدة وإثنان وتسعون إردب، وما هو من الحلفاة الفاضل ألف إردب واحدة وستماية إردب وأربعة وستون إردب ونصف إردب وثمن إردب، وما هو من الذرة الفاضل ثمانماية إدرب وخمسة وتسعون إردباً

ونصف إردب وربع إردب وهو ما تحرر من نتيجة الكشف وكتب ذلك بطلب مـــن الأمـــير البيك والأمير محمد أفندى المشار إليهما أعلاه.

تحريـــراً فى: الأحد ٢٩ جماد أول ١٠٥٨هـ

مصدر الوثيقة : محكمة مصر القديمة سجل ١٠١ وثيقة ٣٠٤ ، ص١١٢

ملحق رقم: ٦

بيع الفول من مصر القديمة إلى جدة بالحجاز الشريفة

لدى الحنفى اشترى المحترم الحاج أحمد بن المرحوم الحاج محمدين التراس بـــالعنبر الشريف بخط مصر القديمة بماله لنفسه من بايعه المحترم الحاج على بـــن المرحـــوم نجيـــم التراس المرقوم أيضاً فباعه جميع إثنى عشر جمل من الفول عنها أربعين إردب من الفـــول الصحيح الموضوع ذلك بمركب النبيطى المتوجه فى سنة تاريخـــه لبنـــدر جـــدة المعمـــور بالحجاز الشريف بموجب الطمين المعين به ذلك المؤرخ لغاية شهر جماد الأول سنة تاريخـــه المعلوم ذلك عندهما والجارى ذلك فى ملك الحاج على نجيم البائع المذكور وحوزته وتصرفه اشتراه صحيح بمبلغ من الذهب الشريفى الجديد السلطانى معاملة تاريخه بمصر المحروســـة أربعون شريفاً نصف ذلك حفظاً لأصله عشرون شريفاً ويدفع الباقى من تاريخه وحتى خامس عشر ذى الحجة بالشريفى أو ما يعادلها من القروش فإذا لم يقوم بذلك قبل مضى المدة يعتـــبر البيع منحلاً غير لازم ولا كان .....

تحريـــــراً فى: ٢٢ شوال ١٠٨٠هـــ

مصدر الوثيقة : محكمة مصر القديمة س١٠٤، م١٦ ، ص٧

ملحق رقم: ٧

تجارة بين مصر القديمة وبلاد الحجاز من خلال السويس
« تجارة بن أخضر »

بين يدى الحاكم الشرعى أقر وإعترف المحترم الحاج علــى بــن جعفــر الفيومــى المعروف بالمصرى القدسى هو بالواف بمركب الحاج سليمان الشاطبى إقراراً وإعترافـاً .... وهو بالصحة والسلام ..... أن بذمته للمحترم الحاج محمد بن المرحوم محمــد بــن نــاصر المعروف هو بإبى موز التراس بالشون العامرة بمصر القديمة أربعة قناطير بن أخضر قلــب مغربل بالوزن المعتاد نصف ذلك حفظاً لأصــله وضبطاً لجملته قنطارين إثنين ترتب ذلك له بذمته بالطريق الشرعى يقوم له بذلك محمولاً من بندر السويس المرقوم فى شهر شــعبان أو فى شهر رمضان المعظم قدره سنة تاريخه عند دخول المراكب من بلاد الحجاز الشريف إلى السويس المرقوم إلى خط حمام جمدار بمصر القديمة من غير أجرة على المقر له المرقــوم أعلاه القيام الشرعى بالطريق الشرعى بإعتراف الحاج على المقر المذكور بذلك يوم تاريخــه الإعتراف الشرعى وصدق على ذلك الحاج محمد المقر له المرحوم.

تحريــــراً فى: ١٩ صفر ١٠٨٠هـ

مصدر الوثيقة : محكمة مصر القديمة س١٠٣، م١٠٨٤، ص ص٤٠٠، ٤٠١

قائمة المصادر والمراجع

أولا: الوثائق غير المنشورة.

أ. دفاتر الروزنامة والترابيع:

- دفتر مال وارد إلى الخزينة العامرة من أقلام سنة ١١١١هـ ، عين ٢٩، مخزن تركى ١، رقم الحفظ النوعى ٦، سجل رقم ٢١١١.
- دفتر تربيع ولاية فيوم وبهنساوية واجب سنة ٩٣٣هـ، فيوم ناحية رقم ١٢٧
- دفتر مقاطعة إحتساب. عين ١٧، مخزن تركى ١ رقم الحفظ النوعى ١٠، سجل رقم ٥٢٥٣
- دفتر مال الأسكلات ومقاطعات بنفس المحروسة – قلم شهر ١٠٣٦هـ ، عين ٥٣، مخزن تركى ١ ، رقم الحفظ النوعى ١، مسلسل عمومى ٤١٣٩
- دفتر أصول مال جمارك ومقاطعات ومال أسكلة ومقاطعات – قلم شهر در واجب ١٠٨٨هـ، مخزن تركى ١، رقم الحفظ النوعى ٢، مسلسل عمومى ٤١٤٠
- دفتر مال أسكلة ومقاطعات –قلم شهر در واجب ١٠٨٩هـ، مخزن تركى ١، رقم الحفظ النوعى ٣، مسلسل عمومى ٤١٤١
- دفتر أصول مال أسكلة ومقاطعات، عين ٥٣، مخزن تركى ١، رقم الحفظ النوعى ٧، مسلسل عمومى ٤١٤٥
- دفتر مقاطعة إحتساب باب الأوجاقات بإسكندرية وبولاق وتوابعها، عين ١٧، مخزن تركى ١، رقم الحفظ النوعى ١٠، مسلسل عمومى ٥٢٥٣
- دفتر إيرادات الجمارك (مقاطعات أسكلة بولاق ومصر القديمة) لسنة ١١٠٩هـ، عين ٥٣، مخزن تركى ١، رقم الحفظ النوعى ١١، مسلسل عمومى ٤١٤٩

ب. حجج شرعية (الأمراء والسلاطين):

- حجة وقف الشيخ أبى السعود الجارحى بتاريخ ١٤ رجب ٩٢٤هـ – تحت رقم ٢٨٧ بدار الوثائق القومية.

جـ. سجلات المحاكم الشرعية:

- محكمة مصر القديمة: سجل (٨٤، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٥، ٩٨، ٩٩، ١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥) وتغطى الفترة الزمنية من ٩٣٥هـ/١٥٢٨م إلى ١١٠٨هـ/١٦٩٦م
- محكمة الباب العالى: سجل (٧٤، ٨٥، ٨٧، ١٠٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٩، ١٣٣، ١٣٧، ١٦٠، ١٦٥، ١٧٣) وتغطى الفترة الزمنية من ١٠٠٩هـ/١٦٠٠م وحتى ١٠٩٩هـ/١٦٨٧م.
- محكمة بولاق: سجل (١٩، ٢٢، ٢٤، ٢٧، ٢٩، ٣٠، ٤٢، ٤٣، ٤٨، ٤٩، ٥٨) وتغطى الفترة الزمنية من ١٠٠٣هـ/١٥٩٤م وحتى ١٠٩٩هـ/١٦٨٧م
- سجلات الدشت: سجل (٤، ١١، ٥٥، ١١٥، ١١٦، ١١٧، ١١٩،١٢١، ١٢٣، ١٢٤، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٥، ١٥٩، ١٦١، ١٦٦، ١٧٤) وتغطى الفترة الزمنية من ٩٣١هـ/١٥٢٤م وحتى ١٠٦٥هـ/١٦٥٤م.
- محكمة قناطر السباع: سجل (١٢٦، ١٣٠، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦) وتغطى الفترة الزمنية من ١٠١٥هـ/١٦٠٤م وحتى ١٠٩٣هـ/١٦٨٢م.
- محكمة البرمشية: سجل (٧١٠، ٧١١، ٧١٤) وتغطى الفترة الزمنية من ١٠٢٥هـ/١٦١٤م وحتى ١٠٨٨هـ/١٦٧٧م.
- محكمة القسمة العسكرية: سجل (٥٥، ٦٣) ويغطيان الفترة الزمنية من ١٠٥٧هـ/١٦٤٦م وحتى ١٠٦٩هـ/١٦٥٨م.
- محكمة الزاهد: سجل (٦٨١، ٦٨٢) ويغطيان الفترة الزمنية من ١٠٩٢هـ/١٦٨١م وحتى ١١٠٢هـ/١٦٩١م.

- محكمة طولون: سجل ٢٠١ لسنة ١٠٥٩هـ/١٦٤٨م.
- محكمة دمياط: سجل ١٠٢ لسنة ١٠٦٢هـ/١٦٥١م.
- محكمة الإسكندرية: سجل ١٤٩ لسنة ١٠٥٢هـ/١٦٤١م.

ثانياً: الوثائق المنشورة.

- قانون نامة مصر، الذى أصدره السلطان سليمان القانونى لحكم مصر، ترجمة أحمد فؤاد متولى، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٦

ثالثاً: المخطوطات.

- أبو الخير عصام الدين: الشفا فى دواء الوبا. مخطوط بدار الكتب، طب ٩٠٠، ميكروفيلم ٣١٢١٢
- أبو الليث السمرقندى: مقدمة فى التصوف، دار الكتب، تصوف ٢٧٦٧، ميكروفيلم ٤٠٢٥٠.
- إبراهيم اللقانى: نصيحة الإخوان بإجتناب الدخان، دارالكتب، فقه مالك ٣٨، ميكروفيلم ٤١٩٠٤، ١٤٩٢٣
- أحمد بن سعد الدين العثمانى: ذخيرة الأعلام بتواريخ الخلفاء الأعلام وأمراء مصر وقضاة قضاتها فى الأحكام من فتحها الإسلامى إلى زمن الناظم، دار الكتب، تاريخ ١٠٤، ميكروفيلم ٥١١١١
- بدر الدين الغزى: جواهر الذخائر فى عدد الكبائر والصغائر، دار الكتب، تصوف ٢٧٦١، ميكروفيلم ٣٣٨١٨
- حسن بن عمار بن على الوفائى الشربنلى: غنية ذوى الأحكام فى بغية درر الأحكام، جـ١، جـ٢، دار الكتب، فقه حنفى طلعت ٨١١، ٨١٢، ميكروفيلم ٩٢٦٦، ٩٢٦٧
- على الأجهورى: رسالة فى المغارسة، دار الكتب، فقه مالك ٣٦، ميكروفيلم ١٦٧٢٣

- —   : أسئلة وردت من المغرب وأجوبتها، دار الكتب، فقه مالك ٣٩، ميكروفيلم ٤٢٠٢٤
- علاء الدين المكى: عقد الفرائد فيما نظم من الفوائد، دار الكتب، جغرافيا ٣٤٧٢، ميكروفيلم ٢٤٥٧٣
- عبد الملك العصامى: رسالة فى تحريم الدخان، دار الكتب، فقه مالك ٣٨، ميكروفيلم ٤١٩٠٤
- عبد القادر بن محمد الجزيرى: درر الفوائد المنظمة فى أخبار الحاج وطريق مكة المكرمة، دار الكتب، تاريخ ١٥٧٠، ميكروفيلم ٣٥٧٤٩
- مجهول: قطعة من تاريخ مصر إلى العثمانيين، تاريخ تيمور ٢٦٤١، ميكروفيلم ٢٧٩٦٢
- مجهول: قوت النفوس فى مخاطبة العريس والعروس، دار الكتب، لاهوت طلعت ١٣٦، ميكروفيلم ٢٢٩٥٦
- مجهول: مجموعة من مدائح للسيد المسيح والسيدة العذراء، دار الكتب، لاهوت ٦٩٠، ميكروفيلم ٤٨١٧٤
- مجهول: تاريخ ملوك آل عثمان وولاتهم بمصر إلى ولاية على باشا المتولى عليها، دار الكتب، تاريخ تيمور ٢٤٠٨ ، ميكروفيلم ٤٩٨٤٧
- —   : الروضة المأنوسة فى أخبار المحروسة، دار الكتب، تاريخ تيمور ٢٥٢٤، ميكروفيلم ٣٤٣٢١
- —   : قطف الأزهار من الخطط والآثار، دار الكتب، جغرافيا ٤٥٧، ميكروفيلم ٤٥٨٥٢
- محمد بن محمد المهندس الجرجاوى: الكواكب المشرقة فى أحكام النكاح والطلاق والنفقة، دار الكتب، فقه حنفى طلعت ٨٠٥، ميكروفيلم ٩٢٦١
- محمد عريف إسماعيل: تحرير الكلام فى مسائل الإلتزام، فقه مالك ٢٨١، ميكروفيلم ١٦٨٩٨

- محمد بن عبد الباقى الزرقانى المصرى: أسئلة وأجوبة فى العقائد والتصوف والأحكام الشرعية، دار الكتب، معارف عامة ٣٠، ميكروفيلم ٤٦٠١٩
- محمد المرعشى: ترتيب العلوم، دار الكتب، معارف عامة ٩٧، ميكروفيلم ٤٥٩٢١
- مرعى بن يوسف الحنبلى: نزهة الناظرين فى تاريخ من ولى مصر من الخلفاء والسلاطين، تاريخ تيمور ٣٠٣، ميكروفيلم ١٣٣٠٣

رابعاً: المصادر العربية.

- ابن حوقل: صورة الأرض، دار الكتاب الإسلامى، القاهرة، ١٩٩٨
- ابن إياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور، جـ ٥، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة، ١٩٦١م.
- إبراهيم بن أبى بكر الصوالحى: تراجم الصواعق فى واقعة الصناجق، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن، المعهد الفرنسى بالقاهرة، ١٩٨٦
- أحمد شلبى ابن عبد الغنى: أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، مكتبة الخانجى، القاهرة، ١٩٧٨
- استيف: النظام المالى والادارى فى مصر العثمانية. وصف مصر، جـ٥، ط١، مكتبة الخانجى ١٩٧٩
- المقدسى: أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٩٠
- تقى الدين أحمد بن على المقريزى: المواعظ والإعتبار فى ذكر بذكر الخطط والآثار، ٤ أجزاء، مكتبة الآداب ١٩٩٦.
- جيرار: وصف مصر. الحياة الإقتصادية والإجتماعية فى ق١٨، ترجمة زهير الشايب، جـ٤، القاهرة، ١٩٧٨
- جون أنتيس: مذكرات رحالة عن المصريين فى الربع الأخير من ق١٨ (١٧٧٠-١٧٨٢) ، ترجمة سيد الناصرى.

- جومار: وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل، ترجمة أيمن فؤاد سيد، مكتبة الخـــانجي، ١٩٩٨
- حسين أفندى الروزنامجى: ترتيب الديار المصرية، مجلـــة كليـــة الآداب، مجلـد ٤، جـ٢، ١٩٣٦
- دى شبرول: دراسة عن عادات وتقاليد سكان مصر المحدثين، وصف مصر، جــ١، ترجمة زهير الشايب، مكتبة مدبولى، ١٩٧٩
- صامويل برنار: الحياة الإقتصادية فى مصر فى ق١٨، وصـــف مصــر ، جــ٦، ترجمة زهير الشايب، ط١، مدبولى، ١٩٨٠
- عبد الرحمن بن نصر الشيرزى: نهاية الرتبة فى طلب الحسبة، تحقيق الســيد البــاز العرينى، ط١، درا الثقافة، ١٩٨١
- عبد الغنى بن إسماعيل النابلسى: الحقيقة والمجاز فى الرحلة إلى بلاد الشام ومصــر الحجاز، تحقيق أحمد عبد المجيد، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٦
- محمد بن أبى السرور البكرى: الروضة المأنوسة فى أخبار مصــر المحروســة، دار الثقافة، ط١، ١٩٩٧
- ـــــــــــ : النزهة الزهية فى ذكر أخبار مصر والقاهرة المعزيــة، تحقيق عبد الرازق عيسى، العربى للنشر والطبع، ط١، ١٩٩٨
- محمد الأمين فضل محب الله المحبى: خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر، ٤ أجزاء ،المطبعة الوهبية، ١٢٨٤هـ
- محمد توفيق البكرى الصديقى: بيت السادات الوفائية، دار الكتب المصرية، ١٩٧٥
- فولنى: ثلاث أعوام فى مصر وبر الشام، ترجمة إدوارد البســتانى، منشــورات دار المكشوف، ط٢، بيروت، ١٩٤٩
- يوسف بن الوكيل الملوانى: تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن، ١٩٩٨

خامساً: المصادر الأجنبية.

- **Albert, Jacques**: Estat De L'Egypte, 1643, en Voyages en Egypte Des annees 1634-1636, [IFAO], Le Caire 1974
- **Amarison**: Voyage en Egypte 1697, Imprimé en 1976, Francais.
- **Arocchatta**: Voyage De 1599, Imprimé en 1976, Francais.
- **Belon, Pierre**: Le Voyage en Egypte 1547, Le Caire 1969.
- **Blunt, Henry**: L eVoyage en Egypte, 1634, [IFAO], Le Caire 1974
- **Bremond, Gabriel**: Voyages en Egypte, 1643-1645, [IFAO], Le Caire, 1974
- **Brown, Edward**: Le Voyage en Egypte 1673-1674, [IFAO], Le Caire, 1974.
- **Combe, Etienne**: L'Egypte Ottomane Le Conquete par Selim "1517"

  L'Arrivee De Le Ponaparte (1798)
- **Costele, Henry**: Voyage De "1600-1601", Imprimé en 1981, Francais.
- **Fermanel, G. Et Stochove, V**: Voyages en Egypte, 1631, [IFAO], Le Caire, 1975
- **Gonzales, A**: Le Voyage en Egypte, 1665-1666, [IFAO], t.I, Le Caire, 1977.
- **Lichtenstein, H. L. Von**: Voyage De Lichtenstein en 1587, en Voyages en Egypte Des annees 1587-1588 Trad. De L'allemand Par. u. Castel, [IFAO], Le Caire, 1972.
- **M. T. E. Thevenot**: Voyage De L'Event A Pris, 1981
- **Neitzschitz, G**: Voyage en Egypte, 1636, en Voyages en Egypte Des annees 1634-1635 et 1636, [IFAO], Le Caire, 1974.
- **Ovington**: Voyage De "1689", Imprimé en 1981, Francais.

- **Pitts, Goseph:** Voyage De "1685", Imprimé en 1981, Francais
- **Sandys**: Voyage en Egypte "1611", Imprimé en 1981, Francais.
- **Vanslb**: D' Vn Voyage Fait en Egypte en (1672-1673), Imprimé en 1981, Francais.
- **Wild, Johann**: Voyage en Egypte "1610-1616", Imprimé en 1975, Francais.

خامساً: المعاجـــم:

- عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب القديمة والحديثـــة، مؤسســة الرســالة، ط٨، ١٩٩٧
- محمد على الأنسى: الدرارى اللامعات فى منتخبات اللغات، بيروت، ١٩٠٠
- المعجم الوجيز: الطبعة الخاصة بوزارة التربية والتعليم، ١٩٩٣

سادساً: المراجع العربية والمعربة:

- أبو الحمد محمود فرغلى: الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية فى القـــاهرة، الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٠
- أبو اليسر فرج: النيل فى المصادر الإغريقية، مؤسســة عيــن للدراســات والبحــوث الإنسانية والإجتماعية، ط١، ١٩٩٥
- أحمد السعيد سليمان: تأصيل ما ورد فى الجبرتى من الدخيل، القاهرة، ١٩٧٩
- أحمد السيد الصاوى: النقود المتداولة فى مصر العثمانية، القاهرة، ١٩٩١
- أحمد عبد الرحيم مصطفى: فى أصول التاريخ العثمانى، دار الشروق، [د.ت]
- أحمد فكرى: مساجد القاهرة ومدارسها، دار المعارف، ١٩٦١
- إسماعيل سرهنك: حقائق الأخبار عن دول البحار، جــــ٢، ط١، المطبعــة الأميريــة ببولاق، ١٣١٤هـــ
- السيد رجب حراز: المدخل إلى تاريخ مصر الحديث، القاهرة، ١٩٧٠

- أندريه ريمون: فصول من التاريخ الإجتماعى للقاهرة العثمانية، ترجمة زهير الشايب، مكتبة مدبولى، القاهرة، ١٩٧٤
- ـــ : المدن العربية الكبرى فى العصر العثمانى، ترجمة لطيف فرج، دار الفكر للدراسات والنشر، ط١ ،القاهرة ١٩٩١
- ـــ : القاهرة تاريخ حاضرة، ترجمة لطيف فرج، دار الفكر للدراسات والنشر، ط١، القاهرة ١٩٩٤
- أيمن فؤاد سيد: التطور العمرانى للقاهرة، مؤسسة الفرقان للتراث.
- ـــ : مسودة كتاب المواعظ والإعتبار فى ذكر الخطط والآثار للمقريزى، مؤسسة الفرقان للتراث، لندن، ١٩٩٥
- ـــ : المدينة الإسلامية والدراسات الحديثة التى تناولتها. بحث فى المجلة التاريخية، العدد ٤٠، عام ١٩٩٧، ١٩٩٩
- توفيق الطويل: التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى، جـزءان، سلسلة تاريخ المصريين، العدد ٢١، ٢٣، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٨
- جب وبوون: المجتمع الإسلامى والغرب، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى، جـ١، دار المعارف، ١٩٧٠
- جرجى زيدان: مصر العثمانية، تحقيق محمد حرب، دار الهلال، العدد ٥١٧، ١٩٩٤
- جمال حمدان: جغرافية المدن، عالم الكتب، ط٢، القاهرة، ١٩٧٢
- ج. و. مكفرسون: الموالد فى مصر، ترجمة عبد الوهاب بكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨
- حسام محمد عبد المعطى: العلاقات المصرية الحجازية فى ق١٨، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين رقم ١٤٩، ١٩٩٩
- حسن عثمان: مصر فى العهد العثمانى فى المجمل فى التاريخ، ط١، القاهرة، ١٩٤٢

- خالد عزب: الفسطاط أولى عواصم مصر الإسلامية، مقال مطبوع ضمن مقالات الهيئة العامة لقصور الثقافة للإحتفال بمرور ١٤٠٠ سنة على دخول الإسلام مصر، القاهرة، ١٩٩٩
- ستانلى لينبول: سيرة القاهرة، ترجمة حسن إبراهيم حسن ، على إبراهيم حسن، هيئة الكتاب، ١٩٩٧
- سعاد ماهر: تطور العمائر الإسلامية بتطور وظائفها، مقال بالمجلة التاريخية، مجلد ١٨، ١٩٧١
- سيد الناصرى: الإغريق تاريخهم وحضارتهم، دار النهضة العربية، القاهرة، ط١، ١٩٧٦
- سيدة إسماعيل الكاشف: دراسات فى النقود الإسلامية، مقال فى المجلة التاريخية، مجلد ٤، ١٩٦٥
- عاصم محمد رزق عبد الرحمن: مراكز الصناعة فى مصر الإسلامية من الفتح العربى حتى مجئ الحملة الفرنسية، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٩
- عبد الحميد حامد سليمان: تاريخ الموانى فى العصر العثمانى، عدد ٧٩، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥
- ـــ : الملاحة النيلية فى مصر فى العصر العثمانى، سلسلة تاريخ المصريين، الهيئة العامة للكتاب، عدد رقم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠
- ـــ : الرسوم الجمركية على البن فى مصر فى القرنين ١٧، ١٨ الميلاديين، بحث مقدم فى المؤتمر الدولى المنعقد فى الفترة من ١١-١٨ أكتوبر ١٩٩٧، مونبلبية – فرنسا.
- عبد الحميد يونس وآخرون: دائرة المعارف الإسلامية، مجلد ٤
- عبد الرازق عبد الرازق عيسى: القضاء فى مصر فى العصر العثمانى، تاريخ المصريين رقم ١١٧، ١٩٩٧
- عبد الرحمن زكى: القاهرة تاريخها وآثارها، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦

- عبد الرحيم عبد الرحمن: الريف المصرى فى القرن الثامن عشر، مكتبة مدبولى، ط٢، ١٩٨٦
- —: فصول من تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى فى العصر العثمانى، تاريخ المصريين، العدد ٣٨، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٠
- —: المغاربة فى مصر فى العصر العثمانى، المجلة التاريخية المغربية، الجزائر، ١٩٨٢
- عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، جـ١، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٦
- عبد الكريم رافق: بلاد الشام ومصر من الفتح العثمانى حتى حملة بونابرت (١٥١٦-١٧٩٨)، دمشق ، ط٢، ١٩٦٨
- عراقى يوسف محمد: الوجود العثمانى فى مصر فى القرنين ١٦، ١٧، ط١، ١٩٩٦
- عفاف مسعد السيد: دور الحامية العثمانية فى تاريخ مصر (١٥٦٤-١٦٠٩)، تاريخ المصريين رقم ١٧٩، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩
- على بهجت وألبير جبرييل: حفريات الفسطاط، دار الكتب، ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م،
- على مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر، جـ١، جـ٦، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦
- عماد بدر الدين أبو غازى: تطور الحيازة الزراعية زمن المماليك الجراكسة، عين للدراسات والبحوث، ط١، ١٩٩٦
- فتحى محمد مصيلحى: تطور العاصمة المصرية والقاهرة الكبرى، القاهرة، ١٩٨٨
- كامل صالح نخلة: تاريخ البباوات بطاركة الكرسى الإسكندرى، الحلقة الأولى، ط١، ١٩٥١
- لوسيان فيفر: الأرض والتطور البشرى، ترجمة محمد السيد غلاب، دار المطبوعات الجديدة، القاهرة، ط٢، ١٩٠٢

- ليلى عبد اللطيف: الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى، القاهرة، ١٩٧٨
- — : المجتمع المصرى فى العصر العثمانى، دار الكتاب الجامعى، ط١، القاهرة، ١٩٨٧
- — : دراسات فى تاريخ ومؤرخى مصر والشام إبان العصر العثمانى، مكتبة الخانجى بمصر، ١٩٨٠
- محمد السقا: تاريخ الشرائع القديمة فى الشرق والغرب، دار النهضة العربية، ١٩٩٥
- محمد الششتاوى: متنزهات القاهرة فى العصرين المملوكى والعثمانى، دار الآفاق العربية ،١٩٩٩
- محمد رمزى: القاموس الجغرافى، ٤ أجزاء، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤
- محمد عفيفى: الأوقاف والحياة الإقتصادية فى مصر فى العصر العثمانى، تاريخ المصريين، عدد ٤٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١
- — : الأقباط فى العصر العثمانى، تاريخ المصريين ٥٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢
- — : تجارة الدخان فى العصر العثمانى، مقال بمجلة كلية الآداب. جامعة القاهرة.
- — : الخطط والحياة الإقتصادية فى حارة اليهود بالقاهرة، مجلة المؤرخ المصرى، العدد ١٠، يناير ١٩٩٣
- — : الرباع فى العصر العثمانى، مقال بمجلة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة، ١٩٩٩
- محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية، مكتبة الآداب، [د.ت].
- محمد فهمى لهيطة: تاريخ مصر الاقتصادى فى العصر الحديث، دار النهضة المصرية، ١٩٤٥
- محمد محمد الكحلاوى: آثار مصر الإسلامية فى كتابات المغاربة والأندلسيين، الدار المصرية اللبنانية، ط١، ١٩٩٤

- محمد محمد أمين، ليلى على إبراهيم: المصطلحات المعمارية فى الوثـائق المملوكيـة (٦٤٨-٩٢٣هـ)، دار النشر بالجامعة الأمريكية، ط١، ١٩٩٠
- محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الإجتماعية فى مصر "١٢٥٠-١٥١٧م"، دراسـة تاريخية وثائقية، دار النهضة العربية، القاهرة، ط١، ١٩٨٠
- محمد مختار باشا: التوفيقات الإلهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنة الإفرنكيـة والقبطية، تحقيق محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسة والنشر، [د.ن]
- محمد مختار: بغية المريد فى شراء الجوارى وتقليب العبيد، القاهرة، ١٩٩٦
- محمد نور فرحات: القضاء الشرعى فى العصر العثمانى، الهيئـة المصريـة العامـة للكتاب، ١٩٨٨
- مصطفى على السيوفى: تاريخ التجارة الخارجية فى مصر إبان الحكـم العثمـانى، . رسالة ماجستير بآداب القاهرة عام ١٩٧٢
- نيللى حنا: بيوت القاهرة فى القرنين السابع عشر والثامن عشـر (دراسـة إجتماعيـة معمارية)، ترجمة حليم طوسون، العربى للنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٩١
- — : تجار القاهرة فى العصر العثمانى (سيرة أبـو طاقيـة)، ترجمـة رؤوف عباس حامد، الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٧
- نيفين مصطفى حسن: رشيد فى العصر العثمانى، دار الثقافة، ١٩٩٩

سابعا: المراجع الأجنبية.

- Abdel Hamid El Batrik: Egyptieen-Yemeni Releation (1819-1840) and Their Implications For British Policy in The Red Sea, London 1958
- Gamal El- din El - Shayyal: Some Aspects of Intellectual And Social Life in Eighteenth-Century Egypt.
- Michel Tuchsherer: La Flotte Imperiale De Suez "1594-1719" Turcica 1997

- Nelly Hanna: An Urban History of Bulaq in The Mamluk and Ottoman Periods. Cairo, 1983
- Nelly Hanna: Construction Work in Ottoman Cairo "1517-1798" Le Caire 1984
- P. Holt: Poltical and Social Change in Modern Egypt. London. 1958 – Quartiers et Nouvements Populaires au Caire ou XVIII Siecle. Andre. Roymond.

قائمة المحتويات

أولاً: فهرس الخرائط.

ثانياً: فهرس الموضوعات.

ملخص الرسالة

مدينة مصر القديمة فى القرن السابع عشر الميلادى

تعتبر دراسة المدن الحضارية من الدارسات المفيدة فى مجال البحث التاريخى. هذه المدن التى حظيت بإهتمام من جانب بعض المهتمين بالتنقيب فى هذا المجال وعلى رأسهم عبد الرحمن زكى وأندريه ريمون ومحاولات نيللى حنا، وجاءت القاهرة محط اهتمام هؤلاء فى المقام الأول بوصفها العاصمة وكل ما يأتى بعدها يدور فى فلكها. واعتبرت مصر القديمة بجانب بولاق متنفساً لها ينظر إليها الكثيرون على أنها حياً عادياً من أحياء القاهرة أصبح مهيض الجناح بعدما كانت منطقته – عندما كانت تسمى الفسطاط – تتبوأ دور الزعامة على مصر قاطبة.

وكل من تناولها بالدراسة من قريب أو بعيد نظر إليها على أنها شئ عظيم قد تحطم فراح يرثى مجده الزائل ويتعلق بأهداب الماضى الجميل كى يتحسس طريقه نحو المستقبل، لذلك جاءت الكتابات التى دارت حولها فى مجملها فقيرة تفتقد إلى المصداقية يعوزها التنقيب بمعولٍ من حديد من أجل إضافة شئ ذى قيمة تذكر. لذلك وقع اختيارنا على مصر القديمة فى القرن السابع عشر لتكون أطروحة للماجستير نكشف من خلالها اللثام عن تلك المدينة التى وقع عليها الغُبن من قِبل البعض والتى اكتنفها الغموض لفتراتٍ طويلة. وجاء تحديد فترة القرن السابع عشر بالذات لأنه حتى هذه اللحظة لم تكن هناك وفرة من الدراسات المستقلة لهذه الحقبة التى تعد من أكثر الحقب فى تاريخ مصر غموضاً ، وبالتالى جاءت الصعوبة هنا مزدوجة فى دراسة مدينة تعلوها الأتربة فى فترة غاية فى الغموض، لذلك كان لزاماً علينا التنقيب الدؤوب والتحلى بالصبر لإخراج ما هو جديد، لذا فهى محاولة متواضعة بكل المقاييس.

وقد آثرت فى البداية أن ألقى الضوء على مدينة الفسطاط أول عواصم مصر الإسلامية منذ النشأة وحتى الأفول، وجاء مدخلنا حول المدينة التى آل أمرها إلى خراب وأصبحت تسمى بالمدينة العتيقة أو مصر العتيقة أو القديمة بعدما سرقت العاصمة الجديدة

لمصر – نعنى القاهرة – الأضواء منها، وأصبحت مصر القديمة أرضاً بوراً وخرائب ينعق فيها البوم والغربان، فأهملها الجميع فترات مديدة من التاريخ وهو الأمر الذى جعل الغموض يسيطر على تاريخها حتى أن جمهرة من الباحثين لا يفضلون التطرق إليها بالحديث من قريب أو بعيد بإعتبار أن سيرتها لا تسمن ولا تغنى من جوع بحجة أن دراستها بمثابة التمسك بأهداب ناقة عجفاء لا تدر لبناً. لذلك كان تعرضى لها فترة القرن السابع عشر بمثابة مغامرة يلاحقها الفشل حيثما نولى وجهنا.

وقد انقسمت هذه الدراسة إلى مقدمة وستة فصول، فى المقدمة أو التمهيد ألقينا الضوء حول مدينة الفسطاط كما ذكرت منذ قليل. وفى الفصل الأول – الذى حمل عنوان مصر القديمة من منظور عمرانى – وقد عالج عدة أمور منها وضع مسمى للمدينة حتى لا يحدث اللبس، ثم بعد ذلك عالجت الجوانب العمرانية فيها لنقطع بذلك أصابع الاتهام التى وجهت إليها من حيث كونها خرائب ومأوى لأعمال اللصوصية على مر التاريخ ولم تكن هناك ثمة محاولة للعمران، كذلك تناولت فيه أهم المنشآت الدينية والاجتماعية من مساجد وكنائس وزوايا وأضرحة وحمامات وأحواش ورباع .... إلخ.

وفى الفصل الثانى ركزت حول النظام الإدارى وما يتضمنه هيكل الجهاز الإدارى من أمير اللوا والقاضى والصوباشى (رئيس جهاز الأمن) ورجاله والمحتسب، وخصصت الجزء الأخير من الفصل لإلقاء الضوء حول النظام المالى والجمركى للمدينة.

وفى الفصل الثالث تناولت الزراعة والصناعة، ففى الزراعة تعرضت للرى وأهم الزراعات وأشكال الحيازة ومدى صلتها بنظام الالتزام رغم أنها مدينة حضرية وليست ريفية، وظهرت بها العديد من الصناعات مثل صناعة الفخار والزيوت والشموع والحياكة والصباغة وغيرها من الصناعات التى تؤكد أنها بكل المقاييس ذات شكل ونظام معين.

أما الفصل الرابع فقد استعرضت فيه التجارة منفردة عن الزراعة والصناعة رغم أنها تمثل معهما محور الحياة الاقتصادية. وبدأ الفصل بالتركيز على كونها مدينة وليست حياً يؤكد ذلك النشاط التجارى الضخم بها مع وجود ميناء مستقل. ربما يتبادر لأذهان البعض تأخر الإشارة الواضحة حول كونها مدينة أم حى ؟ فهذا أمر مقصود بعد تناول الصناعة

والنشاط التجارى بها وإثبات أن الزراعة التى ظهرت بها زراعة بساتين أى أنـــها (المدينــة المتريفة)، لا تنفى عنها صفة المدينة الحضرية.

وفى الفصل الخامس تناولت الحياة الاجتماعية والصحية بها وقد بدأت بتعــدد فئــات المجتمع التى شكلت النسيج الاجتماعي لها من أتراك ومماليك ومصريين ورقيق واســتطردت إلى الأحوال الشخصية بها من أمور الزواج والطلاق والنفقة، وكذا أمور الصحة فى ضوء ما هو متاح من مادة.

وخصص الفصل الأخير لدراسة النواحى الدينية والثقافية من حيث مظـــاهر الحيــاة الدينية لدى المسلمين والنصارى ودور الدولة فى تنظيم شــئون الحيــاة الدينيــة والأوقــاف، وشملت النواحى الثقافية أهم الكتاتيب والمدارس وبعض المهتمين بالثقافة.

أما الخاتمة فقد جاءت لتلخص أهم النتائج التى توصلت إليها الدراسة وليست ملخصــاً لها. فتؤكد أن دراسة تاريخ مصر القديمة خلال القرن السابع عشر جاءت على قدرٍ كبير مــن الأهمية حيث تكشف لنا ذلك من خلال التعمق فى تاريخها، فتثبت هــذه الدراســة أنــه مــن الصعب الآن أن نسقط هذه المدينة من ذاكرة التاريخ بعدما كشف النقاب عنها وفرضت نفســها على خريطة العصر العثمانى.

Misr El-Qadimah In The Seventeenth Century

The civilization's cities studying considered from useful studies in the historical researching field.

These cities which obtain with interest from some of people who care with searching in this field. At the head of them Abd-El Rahman Zaki, Andria Rimon and Nilli's Hana tries.

Cairo came at the spot of care them at the first step as the capital, and all of what comes after it turn round on its orbit. The old Egypt was considered beside Boulak a passage for it. A lot of people look at it as it is usual quarter from Cairo quarters which became less important, afterwards its region "when it was called El Fostat" at the top on the leader's role of all of Egypt.

Each one studied it from far or near looked at it as it is a great thing, which was destroyed. He goes to lament its vanishment glory and belong to the beautiful past to know his way towards the future. So all the writing about Cairo came poor and missed the truth and need researching with an axe from beginning to add something with a value to remember. So we choose old Egypt in the seventeenth century to be the subject of Magestaire to discover through it the veil away. This city didn't take what deserve from some historians. This city covered with mystery for a long time. The definition of the seventeenth century came especially because up till now there weren't much of independent studies to this era, which considered the most mystery in Egypt history. As following the difficult comes here as double in studying a city covers with dusts in a period so mystery. For that we should research continuously and praise with patience to get out the newest. Therefore it is a humble try with all measures.

This study divided into an introduction and six chapters, at the introduction where we spot the light around El Fostat City as I mentioned before. At the first chapter which take the title "Old Egypt from prosperity side" this book deals with many subjects like:

Putting a name to the city to prevent any ambiguity, then after that it deals with the prosperity sides to cut the accuse of fingers which sent to it from it is runis and abode for robbery works on the period of the history, there wasn't any tries to prosperity, also I take in this subject the most important religious and social establishments from mosques, churches, small mosques, akhrega, toilets, ahwash and rabbae ... etc.

At the second chapter I concentrate on the administrative system and what includes the administrative set's structure from colonel, judge, El sobashy [the chief of security's administration] and his men and El mohtasseb. I specify the last part from this chapter to spot the light around the financial and custom system for the city.

At the third chapter I take the agriculture and the industry. At the agriculture I exposed to the irrigation and the most important of the plants, the forms of possession and the connector with system of obligation, although it is a civilization city not cultivated. A lot of industries appeared such as crockery, oils, candles, wearing, dyeing and the other industries which confirm that it is a city from all sides and with a special shape and system.

At the fourth chapter I exposed the commercial isolated about the agriculture and industry, although it acts with them the commercial life's axis. The chapter begin with concentrating that it is a city not a quarter, the great commercial activity on it confirm that beside the independent port on it. May be coming early to some bodies' memories that the clear signal comes late about is it a city or a quarter? This subject aims after dealing with the industry and the commercial activity on it and prove that the agriculture which appeared on it is gardens agriculture that it is "cultivated city" and don't deny the quality of the civilizing city.

At the fifth chapter I take the social and healthy life on it. I begin with many of the society classes which formed the social wave from Turkish, Memlouks, Egyptians and slaves. I deal with the personal states from marriage, divorce, expense and the health at the light of what allowable from the material.

The last chapter specify to study the religious and cultural sides from the aspects of the religious life at the Moslems and the Christians,

the role of the state at organizing the religious life and the endowments, the cultural sides include the most important of elementary schools, schools and persons who concern with culture.
The conclusion comes to summarize the important results which I reach to them in the study and not to be an extract for it.

The study of old Egypt history during the 17th century comes on a big amount of importance where discover this for us through the penetrate on its history. This study prove that it is difficult now to drop this city from the memory of the history after what had discovered about it and presume itself on the map of Ottoman era.

جامعة القاهرة
كلية الآداب
قسم التاريخ

رسالة ماجستير عن

مدينة مصر القديمة فى القرن السابع عشر الميلادى

دراسة تاريخية

إعداد

خالد حامد السيد عبد الله أبو الروس

تحت إشراف

أ.د/ محمد عفيفى عبد الخالق
[مشرف]

أ.د/ أحمد حسن
عميد كلية الآداب - جامعة القاهرة
[مشرف مشارك]

تقديـــــم

تعتبر دراسة المدن الحضارية من الدراسات المفيدة فى مجال البحث التاريخى. هـــذه المدن التى حظيت بإهتمام من جانب بعض المهتمين بالتنقيب فى هذا المجال وعلـــى رأســـهم عبد الرحمن زكى وأندريه ريمون، وجاءت القاهرة محط اهتمام هـــؤلاء فـــى المقـــام الأول بوصفها العاصمة وكل ما يأتى بعدها يدور فى فلكها، كذلك اعتبرت مصر القديمـــة مجـــرد متنفس لها ينظر إليها الكثيرون على أنها حى عادى من أحياء القاهرة أصبح مهيض الجنـــاح بعدما كانت منطقته تتبوأ دور الزعامة على مصر قاطبة. وكل من تناولها بالدراسة من قريب أو بعيد نظر إليها على أنها شئ عظيم قد تحطم فراح يرثى مجده الزائـــل ويتعلـــق بـــأهداب الماضى الجميل كى يتحسس طريقه نحو المستقبل، لذلك جاءت الكتابات التـــى دارت حولـــها فى مجملها فقيرة تفتقد إلى المصداقية يعوزها التنقيب بمعولٍ من حديدٍ من أجل إضافة شـــئ ذى قيمة تذكر.

لذلك وقع إختيارنا على " مصر القديمة فى القرن السابع عشر الميـــلادى " لتكـــون أطروحة للماجستير، نكشف من خلالها اللثام عن تلك المدينة التى وقع عليها الغبن من قِبـــل البعض. والتى اكتنفها الغموض لفتراتٍ طويلةٍ. وجاء تحديد فترة القرن السابع عشر بـــالذات لأنه حتى هذه اللحظة لم تكن هناك وفرة من الدراسات المستقلة لهذه الحقبة التى تعد من أكـثر الحقب فى تاريخ مصر غموضاً. وبالتالى جاءت الصعوبة هنا مزدوجة فـــى دراســـة مدينـــة تعلوها الأتربة فى فترة غاية فى الغموض. لذلك كان لزامـــاً علينا التنقيب الدؤوب والتحلـــى بالصبر لإخراج شئ يذكر، لذا فهى محاولة متواضعة بكل المقـــاييس. وقـــد انقســـمت هـــذه الدراسة إلى مقدمة وستة فصول وخاتمة. حاول الباحث فى المقدمة إلقاء الضوء على مدينـــة الفسطاط التى ورثتها مصر القديمة (العتيقة) فيما بعد، ثم كيفية ظهور مصر القديمة وأفـــول نجم الفسطاط. فى الفصل الأول انصب اهتمام الباحث حول معالجة عدة أمور منـــها وضـــع مسمى للمدينة حتى لا يحدث اللبس، ثم بعد ذلك عالج الجوانب العمرانية فيها ليقطـــع بذلـــك

أصابع الإتهام التى وجهت إليها من حيث كونها خرائب ومأوى لأعمال اللصوصية على مـــر التاريخ ولم تكن هناك ثمة محاولة للعمران، كذلك تناول فيه أهم المنشآت الدينية والإجتماعية.

وفى الفصل الثانى ركز الباحث على النظام الإدارى بالمدينة ومـــا يتضمنـــه هيكـــل الجهاز الإدارى من أمير اللوا والقاضى والصوباشى ورجاله وكذلـــك المحتســـب وخصـــص الجزء الأخير من الفصل لإلقاء الضوء على النظام المالى والجمركى للمدينة. أمـــا الفصـــل الثالث فقد خصصه الباحث للزراعة والصناعة فقط. فتناول نظم الزراعة والـــرى وأشـــكال الحيازة ومدى صلتها بنظام الالتزام رغم أنها مدينة حضرية وليست ريفيـــة، وظـــهرت بـــها العديد من الصناعات مثل صناعة الفخار والزيوت والشموع ونجـــارة المراكـــب والحياكـــة والصباغة والصناعات الغذائية وغيرها من الصناعات التى تؤكد أنها مدينة بكـــل المقـــاييس ذات شكلٍ ونظامٍ معين.

أما الفصل الرابع فقد استعرض فيه الباحث التجارة منفردة عن الزراعة والصناعـــة رغم أنها تمثل معهما محور الحياة الاقتصادية. وبدأ الفصل على غير العادة من حيث التركيز على كونها مدينة وليست حياً يؤكد ذلك النشاط التجارى الضخم بها مع وجود مينـــاء مســـتقل ربما يتبادر لأذهان البعض تأخر الإشارة الواضحة حول كونـــها مدينـــة أم لا ؟ فـــهذا أمـــر مقصود بعد تناول الصناعة والنشاط التجارى بها وإثبات أن الزراعة التى ظهرت بها زراعـــة بساتين أى أنها " المدينة المتريفة " ولا تنفى عنها صفة المدينة الحضرية.

وفى الفصل الخامس تناول فيه الباحث الحياة الاجتماعية والصحية بالمدينة. بدأ بتعدد فئات المجتمع التى شكلت النسيج الاجتماعى لها من أتـــراك وممـــاليك ومصرييـــن ورقيـــق وغيرهم واستطرد إلى الأحوال الشخصية بها من أمور الزواج والطلاق والنفقة. وتناول أمور الصحة بها فى ضوء ما هو متاح من مادة.

وخصص الفصل الأخير لدراسة النواحى الدينية والثقافية من حيث مظـــاهر الحيـــاة الدينية لدى المسلمين والنصارى بها ودور الدولة فى تنظيم شئون الحياة الدينيـــة والأوقـــاف. وشملت النواحى الثقافية بها أهم الكتاتيب والمدارس وبعض المهتمين بالأحوال الثقافيـــة بـــها والتى جاءت فقيرة إلى حدٍ ما نظراً لقلة المادة فى هذا الجانب.

وانتهت الدراسة بخاتمة تضمنت أهم النتائج التى توصلنا إليها إضافة إلى بعض الملاحق عن الأشكال والصور التى تخدم الدراسة بشكلٍ مباشر وصريح، وبعض الوثائق الهامة عن تاريخ مصر القديمة فى القرن السابع عشر الميلادى.

واعتمدت الدراسة على العديد من الوثائق والمصادر يأتى فى مقدمتها وثائق المحاكم الشرعية ودفاتر الروزنامة التى توصل الباحث إلى إخراج بعض منها لم يكن معروفاً من قبل يعود تاريخها إلى عام ١٠٣٣هـ/١٦٢٣م وما بعدها ويعود ذلك إلى أن مثل هذه الدفاتر تفتقد إلى الفهرسة الجيدة. ومن يدرى ربما نتوصل إلى دفاترٍ أخرى تعود إلى ما قبل هذا التاريخ، وعموماً فقد قمنا بنشر بعض أصولها فى ملاحق هذه الدراسة حتى تتضح الرؤية.

واعتمدنا بعض الوقت على وثائق من دفاتر الرزق والالتزام ولكن على نطاقٍ ضيق بما يخدم دراستنا.

واطلع الباحث على العديد من المخطوطات المحفوظة بدار الكتب المصرية – قسم المخطوطات – سواء كانت مخطوطات تاريخية أو جغرافية أو فقهية أو فى التصوف والمعارف العامة وبعض المخطوطات القبطية التى تقع تحت رمز (لاهوت) ولكن على نطاقٍ ضيق لصعوبتها على الباحث المبتدئ.

وقد قدمت المصادر التاريخية وكتب الخطط للمقريزى وغيره مادة علمية لا بأس بها. إضافة إلى كتابات الرحالة الفرنسيين الذين زاروا المدينة خلال القرن فكانوا شاهد عيان على أحداث تلك الفترة. وقد حصل الباحث على نسخ هذه الكتابات من المجمع العلمى بالقاهرة.

وهناك العديد من المقالات العربية والمعربة والإفرنجية وبعض المقالات التى استند إليها الباحث بشكل يسند المادة الوثائقية والمصدرية حتى يتحقق التلاحم بين جنبات الموضوعات المختلفة والتى سرعان ما ظهرت – نتيجة ذلك – كجسدٍ واحد لا أثر للجروح به رغم العمليات الجراحية العديدة التى ألمت به.

ويوجه الباحث الشكر إلى الصديق أحمد عبد العزيز الباحث بجامعة الإسكندرية الذى أمدنى بالعديد من المصادر النادرة التى يتعذر الحصول عليها، وكذلك الأخ والصديق أيمن أحمد الباحث بجامعة القاهرة الذى طالما نتناقش معاً مناقشات جادة ومثمرة تكشف لى عن معلوماتٍ وأفكارٍ هامة.

ويتقدم الباحث بالشكر للدكتور ميشيل توشرار (بجامعة أكس بروفانس) والباحث بالمعهد الفرنسى بالقاهرة بما قدمه لى من معلوماتٍ ثمينةٍ وكذلك بعض المقالات الهامة التى تمس الدراسة.

وأخص بالشكر العاملين بالمجمع العلمى بالقاهرة وكذلك دار الوثائق والكتب القومية ومعهد البحوث والدراسات الإفريقية بجامعة القاهرة وغيرها من الأماكن التى تردد عليها الباحث وكذلك بعض الشخصيات التى يضيق المقام عن ذكرها من سكان مصر القديمة التى تقابل معها الباحث أثناء جولاته بالمدينة فهؤلاء قد قدموا للباحث المعلومات الغزيرة عن الواقع الفعلى الآن للمنطقة الأمر الذى سهل على الباحث محاولة تضييق هوة الزمان بما يتناسب إلى حدٍ ما مع الواقع الفعلى للمدينة دون الإخلال بالإطار التاريخى والفكرى للعصر الذى تتناوله الدراسة حتى لا تأتى الكتابة فى جانب والواقع فى جانبٍ آخر.

ويتقدم الباحث بجزيل الشكر لأستاذه الفاضل الدكتور أحمد حسن عميد كلية الآداب بجامعة القاهرة – والمشرف المشارك – على ما قدمه للباحث من ملاحظاتٍ ومعلوماتٍ هامة أضاءت الكثير من مجاهل البحث.

وفى البداية والنهاية يبقى دور الأستاذ الدكتور محمد عفيفى عبد الخالق المشرف على هذه الدراسة فهو لم يكن مشرفاً فحسب بل كان بمثابة الأستاذ والأخ والصديق والأب الروحى للباحث، وإليه ترجع فكرة اختيار موضوع البحث. فقد ساهم بخبرته فى العصر العثمانى بإرشاد الباحث عن كيفية التعامل مع وثائق العصر ومصادره ولم يأل جهداً فى توجيه الباحث الذى طالما يحتاج إلى مجهودٍ مضنٍ بحكم قلة خبرته وإذا أتى بجديد فإن الفضل يعود إلى الدكتور عفيفى الذى غرس هذا النبت. ولا يعنى ذلك تحمله أى قصور قد وقع فيه الباحث فالمسئولية أولاً وأخيراً تقع على عاتق الباحث.